البيئة المصرية

الدكتور

أحمد فوزي ملوخية

جامعة الإسكندرية

2003

مكتبة بستان المعرفة

لطبع ونشر وتوزيع الكتب

كفر الدوار - الحدائق ☎: ٠٤٥/٢٢٤٢٢٨

الإسكندرية ☎: ٠١٢٣٥٣٤٨١٤

الكتاب: البيئة المصرية
المؤلف: د/ أحمد فوزى ملوخية
رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠٠٢/٧٤٩١
الترقيم الدولى: I.S.B.N 977-6015- 42 -5
الطبعة: الأولى
الناشر: مكتبة بستان المعرفة
كفر الدوار - الحدائق - ٦٧ ش الحدائق بجوار نقابة التطبيقيين
تليفون: ٠٤٥/٢٢٤٢٢٨ & ٠١٢٣٥٣٤٨١٤

البيئة المصرية

إهداء

إلى روح والدى....

عبق التقوى والبركات يفوح بدارى

إلى والدتى....

زادى منها خير دعاء ورضاها على خير دثار

إلى زوجتى....

هبة الرحمن إلىّ وأحلى أقدارى

بسم الله الرحمن الرحيم



الباب الأول

مقدمة فى البيئة المصرية

- تمهيد:
- الفصل الأول: البيئة ومكوناتها
- الفصل الثانى: موقع مصر وعلاقتها المكانية
- الفصل الثالث: أقسام مصر الإدارية

الباب الأول

مقدمة فى البيئة المصرية



لقد خلق الله البيئة الطبيعية فى نظام مثالى متكامل ميزها بتوازن دقيق بين عناصرها، فهى تتكون من مجموعة أركان هى الماء والهواء واليابسة والطاقة والمخلوقات الحية، وكل ركن فيها يوجد فى اكثر من صورة أو حالة، ودورات الحياة تسير بقدرة الله بتوفر البيئة المريحة للإنسان وغيره من المخلوقات. وقد أعطى الله البيئة خلقها على الهيئة التى خلقت بها صالحة للحياة ما بقيت على توازنها الطبيعى، وتتجلى رحمة الله فى تنوع وتكامل عناصر البيئة بحيث تستطيع أن تقاوم بعض التغيرات إذا كانت فى حدود معقولة.

ولقد شغلت قضية البيئة كل البشر عبر جميع عصور التاريخ، فكانت الطبيعة مصدر خوف وفزع حينا ومهبط الوحى حينا آخر، ولكنها فى كل الأحوال دفعت الانسان للتأمل فى الكون خارج ذاته. وحلول أن يترجم تأملاته إلى أنظمة عقائدية أو فكرية أعطته التوازن مرة ودفعته إلى الصراع مرات. وسوف تظل البيئة بوجه عام مسرح الخلق الانسانى وملتقى ما يسطره التاريخ من صفحات تعكس نضال الإنسان معها من اجل استخدام أفضل لها، ويتبارى البشر فى اكتشاف أسرارها وبناء التكنولوجيا من موادها. وهنا يتدرج الإنسان من أعلى سلم التقدم إلى أسفله من خلال مجتمعات يحكم مكانها فى هذا السلم مبلغ ما استطاعت أن تطوع جانبا أو آخر من الطبيعة لخدمة مصالحها.

ولكن الإنسان وهو شاخص البيئة، مدرك لأهميتها فى ذاته ويتأمل وجدانه وينسق فى علاقاته فى الإطارات الصغرى والكبرى، إلا أنه وجد نفسه أنه فى ذاته

سيظل محدوداً ومشدوداً إلى البيئة بمعناها الأوسع والأضيق، وحتى فى الأحوال التى أراد فيها أن يخرج عن نطاق ما هو معروف من بيئته إلى نطاق أوسع أو إلى أبعاد لا نهائية، كانت صور البيئة وطبيعتها هى نقطة البدء وهى الخيال وهى المنطق، كل هذا أستقر فى أذهان الدارسين الأوائل والمحدثين، ولذلك لم تدرس البيئة بمعزل عن الإنسان إلا لأغراض مختلفة يكون البحث حينها متمركزاً حول النظر فى البيئة ذاتها وليس فى انعكاس آثارها على التاريخ أو المستقبل.

الفصل الأول

البيئـــة ومكونـاتهـا

يشير مفهوم البيئة إلى الإطار الفيزيقى والاجتماعي الذى يعيش فيه الإنسان، ويتأثر بكل التفاعلات والعلاقات القائمة بين جميع عناصره وتتكون البيئة مـن ثـلاث منظومات رئيسية هى:

١- المحيط الحيوى Biosphere

وهو الغلاف السطحى من الأرض اليابسة والطبقات السطحية من المجموع المائى فى المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار والطبقات السفلية من الغلاف الجوى، وهذا المحيط الحيوى هو الحيز المكانى الذى توجد فيه الحياة بأنماطها المتباينة، ويتكون من مجموعات من العناصر هى:

أ- مجموعة العناصر غير الحية (ماء وهواء وتربة).

ب- مجموعة العناصر الحية المنتجة (الكائنات النباتية التى تصنع غذائها بنفسها)

جـ- مجموعة العناصر الحية المستهلكة (الحيوانات والإنسان).

د- مجموعة العناصر المحللة (وهى التى تقوم بتحليل المواد العضوية إلى مواد سهلة الامتصاص)

وهناك توازن بين مكونات المحيط الحيوى بحيث إذا حدث تغير فى أى مكون من مكوناته، فإنه لابد وأن يستتبعه تغير فى بقية المكونات.

وقد سبق ظهور المحيط الحيوى ظهور الإنسان، وكان المسرح الذى هبط إليه فى فجر ظهوره ضمن مجموعة الكائنات الحية، ولكن الإنسان ما لبث أن اصبح أحد العوامل المؤثرة فيه والمتأثرة به.

٢- المحيط المصنوع Technosphere

وهو عبارة عن كل ما صنعه الإنسان وبناه في حيز المحيط الحيوى مثل الحلل السكنية فى القرى والمدن، مراكز الصناعة، شبكات المواصلات، شبكات الرى والصرف ومنشآت ضبط الأنهار، مراكز الطاقة، وسائل النقل وغير ذلك.

ذو المحيط المصنوع يديره الإنسان ويتحكم فيه، ولكن بعض مكونات المحيط المصنوع مثل النظم الزراعية يديرها الإنسان ولكنها لا تكون تحت تحكمه الكامل، لأنها ما تزال تحت تأثير عوامل المحيط الحيوى مثل المناخ.

٣- المحيط الاجتماعى Sociosphere

وهو عبارة عن مجموعة النظم الاقتصادية والأعراف الاجتماعية والأدوات الإدارية والتشريعية والمؤسسات السياسية التى ينتظم فى إطارها دولاب حياة الجماعة الإنسانية.

والمحيط الاجتماعى من صنع الإنسان وقد تطور على مدى القرون من تاريخ الإنسان، وهو يجمع المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية السائدة فى المجتمع، وبعض مكونات المحيط الاجتماعى يرجع تاريخها إلى الماضى (الدين، الدستور، التراث الثقافى، الخ)، ويمكن للمجتمع فى كل الأحوال أن يقرر تغيير بعض عناصر المحيط الاجتماعى، ولكن هذا التغيير لا يتجاوز بعضاً من المكونات، فحتى الثورات والانقلابات لا تغير إلا القليل من جملة المحيط الاجتماعى.

والتفاعلات بين المحيطات الثلاث هى نبض الحياة فى المجتمع المنتظم، ولابد أن نعرف بعض الملاحظات عن هذه التفاعلات، وهى:

١- عمليات الحياة والنشاط فى المجتمع تتصل بتحويل عناصر المحيط الحيوى إلى موارد أو ثروة، وكما يقول عالم الاقتصاد الأمريكى زمرمان "الثروة لا تكون. الثروة تتكون"، ويقصد بذلك أن البيئة الطبيعية الفطرية وهى المحيط الحيوى تشتمل على مكونات نباتية وحيوانية وأرض ومياه وغيرها، تتحول هذه المكونات إلى ثروة، أى إلى موارد وسلع يحتاج لها الإنسان وينتفع بها، فى خطوات ثلاثة متتابعة هى:

أ- يتعرف الإنسان على فائدة المكون.

ب- يتوصل الإنسان إلى وسائل الحصول عليه ومعالجته ليصبح نافعاً.

جـ- ينهض الإنسان بالعمل الذى يستخدم فيه الوسائل التكنولوجية للحصول على المكون ومعالجته، وهذه هى تنمية الموارد الطبيعية، وتتم فى اطار التفاعل بين المحيطات الثلاثة، وتوزيع الفوائد الناتجة من التنمية تخضع لضوابط المحيط الاجتماعى.

٢- تنشأ المشاكل البيئية نتيجة خلل أو تدهور فى بعض من التفاعلات التى تجرى فيما بين المحيطات الثلاثة، وأن تحليل هذه التفاعلات وفهمها يتيح وسيلة لتشخيص أحوال التضرر البيئى وطرق علاجها.

٣- ليس الإنسان ـ كما تقول الأفكار والمعتقدات الدارجة ـ مركز مثلث التفاعلات بين المنظومات الثلاث، ولكنه عنصر من عناصر كل منها.

فالإنسان نوع من الثدييات العليا أى واحد من مجموعة أنواع كائنات المحيط الحيوى، وكثير من تفاعلاته وأنشطته أشبه ما يكون بتفاعلات غيره من كائنات المملكة الحيوانية، والإنسان بجهده وعمله الذهنى المبدع هو بانى المحيط المصنوع والعامل على إدارته، وهو عنصر المحيط الاجتمماعى ومادته، ولكننا نلاحظ أن الإنسان فى إدارته للمحيط المصنوع قد يسمح لمخلفات المصانع ان تخرج إلى المحيط الحيوى الذى يعيش فيه وتلوثه وتفسده، وأن الإنسان فى إدارته لمؤسسات المحيط الاجتماعى قد يتخذ من القرارات التى تتصل بالمحيط المصنوع (مثل قرار

استخدام محطات القوى الذرية، أو قرار منع استخدام بعض المبيدات الكيمائيـة، أو غير ذلك)، ما يؤثر سلبياً أو إيجابياً على المحيط الحيوى، أى أن المنظومات الثلاث، تتفاعل بفعل الإنسان وعمله، ونتيجة هذا التفاعل تؤثر على حياة الإنسان، فالإنسان سبب هذه الآثار وهو المتأثر بها.

٤- التنمية بيئياً هى تطوير القدرة الوطنية على إدارة التفاعلات بين المحيطات البيئية الثلاث التى ينتج عنها إحداث الثروة والإنتاج، والدول المتقدمة هى الجماعات البشرية ذات القدرة الوطنية على إدارة التفاعلات المتداخلة والمعقدة بين المحيطات الثلاث إدارة رشيدة وناجحة، أما الدول المتخلفة فهى الجماعات البشرية التى لم تستكمل بعد عناصر القدرة الوطنية على إدارة التفاعلات بين المحيطات البيئية الثلاث.

الفصل الثانى

موقع مصر وعلاقتها المكانية

تشغل مصر مساحة تبلغ ١٠١٩٦٠٠ كيلو متر مربع وتأخذ شكلاً أقرب ما يكون إلى المربع الذى تقترب فيه النسبة بين طوله وعرضه.

وبصفة عامة يعتبر الشكل المندمج للدولة أنسب فى مجال الدفاع والاستغلال للاقتصادى لمواردها من الشكل الطولى، ولذلك فإن الشكل العام لمصر يعتبر ملائماً من هذه الناحية، على حين يبدو المعمور مفرطاً فى الطول خصوصاً فى الوجه القبلى الذى يمتد طولياً كخندق محصور بين الهضبتين الشرقية والغربية، وهذا يضيف عبئاً فى مجال الدفاع عنه.

غير ان الشكل المفرط الطولى للمعمور المصرى لا يخلو مع ذلك من مزايا، فيلاحظ أنه يمثل عمقاً استراتيجياً للمناطق الشمالية فى أوقات الخطر الذى يتهددها، وقد كانت معظم الأخطار التى تحيط بمصر طوال تاريخها تفد فى صوب الجنوب بمثابة مجال للتراجع أو إعادة لتنظيم الأوضاع من أجل الدفاع عن البلاد، وعموماً فالأراضى المصرية تمتد بين دائرتى عرض ٢٢°، ٣٠َ ٣١° شمال الدائرة الاستوائية.

حدود مصر السياسية:

يلاحظ ان حدود مصر تتوزع بين البر والبحر، وإذا بدئ بالحدود الجنوبية لمصر بينها وبين جمهورية السودان والتى تعتبر أطول الحدود البرية (١٢٨٠ كيلو متراً) وتتميز بأنها تسير فى خط مستقيم، يلاحظ أنها تتبع دائرة عرض ٢٢° شمالاً حتى رأس حدارية إلى الجنوب قليلاً من بلدة حلايب على ساحل البحر الأحمر.

وما يزال خطا الحـدود المزدوجين (إدارى وسياسى) يمثـلا نموذجـاً غريبـاً لتعيين الحدود بين دولتين، بل أنهما مثاراً للنزاع بين الحين والآخر، فلقـد حـدث فـى عام ١٩٥٨م عند إجراء الاستفتاء علـى رئاسـة حكومـة السـودان (فـى عهـد الفريـق إبراهيم عبود) والذى واكبـه اسـتفتاء الوحـدة بيـن مصـر وسـوريا، وادعـى السـودان وقتها أن سكان المنطقة سودانيون، وكاد الأمر يؤدى لصدام مسلح، وتكرر ذلك ثانية فى عام ١٩٩٣، حينما احتضن السودان جماعات مناهضة لمصر كانت تتسـلل عبر هذا الجزء إلى داخل البلاد.

أما الحدود الغربية فتبدأ فى التعرج لتترك واحة جغبوب فى الأراضى الليبية ولتفصلها عن واحة سيوه داخل الأراضـى المصريـة، وتسـتمر بعدهـا شـمالاً متتبعـة طريقة الاخوان ومارة بمجموعة من الآبار حتـى تصـل إلـى البحـر المتوسـط غـرب بلدة السلوم بحوالى عشرة كيلو مترات، وبذلك فطول هذا الجزء ٣٠٦ كيلو متر.

وتشترك مصر بحدود بريـة فـى شـبه جزيـرة سـيناء مـع فلسـطين المحتلـة، وتمتد من ٢١٠ كيلو متر بادئة من بئر طابا عند رأس خليج العقبة، ولتسير فى خـط مستقيم حتى رأس النقب. والحدود المصرية فى معظمها حكماً ترى حدوداً هندسـية، أى أنها لا تتمشى مع ظاهرات طبيعية واضحة مثل الجبال أو الأنهار أو غـير ذلـك، وإنما تمتد فى خطوط مستقيمة تقطع مناطق صحراوية شبه خالية من السكان، وهـى قـد تسـاير خـط طـول أو دائـرة عـرض أو علامـات مميـزة مثـل الآبـار أو الـدروب الصحراوية أو أشياء يضعها الإنسان كعلامات، ومن ثـم فهـى ليسـت حـدوداً فاصلـة بحيث يلمس الفارق بين المناطق الواقعة على جانبيها.

أما بالنسبة للحدود البحرية التى تشمل الضلـع الشـمالى كلـه ومعظـم الضلـع الشرقى، فتمتد فى الشمال بين رفح شرقاً حتى غربى السلوم غرباً بطول ٩٩٥ كيلـو

متراً، وما بين رأس خليج العقبة شمالاً حتى رأس محمد جنوباً، ثم تنتقل غرباً لتسير مع ساحل البحر الأحمر حتى حدود مصر مع السودان فى الجنوب.

موقع مصر الجغرافى وأهميته:

يمكن النظر إلى أهمية موقع مصر الجغرافى من أربعة جوانب مختلفة، هى:

أ- الموقع الفلكى بالنسبة لدوائر العرض وخطوط الطول.
ب- الموقع بالنسبة للمسطحات المائية المجاورة.
جـ- الموقع والعلاقات مع الدول المحيطة.
د- موقع عاصمة مصر وتطوره.

أ- الموقع الفلكى:

وله أهميته فى تحديد مكانة مصر بالنسبة للعالم. ويلاحظ أن الموقع بالنسبة لدوائر العرض أكثر أهمية من حيث آثاره فى تحديد أحوال المناخ السائدة، وتمتد الأراضى المصرية بين دائرتى عرض ٢٢° شمالاً، ٣١,٥° شمالاً، وهى بذلك تقع فى معظمها داخل إطار المناطق شبه المدارية، وإن بدت أطرافها الشمالية فى المناطق شبه المعتدلة.

أما الموقع بالنسبة لخطوط الطول فيلاحظ أن اراضى مصر تمتد ما بين ٢٥° شرقاً، و ٤٠َ ٣٦° شرقاً، أى أن مصر قريبة جغرافياً من بداية نصف الكرة الشرقى الذى يبدأ من خط جرينتش وينتهى عند خط طول ١٨٠°م شرقاً.

وطبقاً لهذا التحديد الفلكى، يتضح أن مصر متوسطة الموقع من حيث دوائر العرض. أما بالنسبة لخطوط الطول فيمتد يابس العالم القديم إلى الشرق منها حتى أطراف أستراليا وإندونيسيا.

وتعتبر مصر دولة إفريقية آسيوية، فالجزء الأكبر من أراضيها يمتد فى إفريقيا، وينظر إلى شبه جزيرة سيناء باعتبارها جزءاً من قارة آسيا خصوصاً بعد حفر قناة السويس لتمثل مانعاً مائياً بينها وبين بقية أراضى الدولة، وقد ساعد هذا الموقع بلا شك فى التأثير على التوجيه الجغرافى للدولة، فمصر بالرغم من إفريقيتها موقعاً إلا أنها كانت طوال تاريخها ذات توجيه أسيوى، وكان لذلك بصماته بالطبع على سكانها وخصائصهم الإثنوجرافية (العرقية).

ب- موقع مصر بالنسبة للمسطحات المائية:

تشرف مصر بسواحل بحرية طويلة على بحرين هامين أحداهما تربطها بحوض البحر المتوسط فى الشمال، ويبلغ طولها ٩٩٥ كيلومتراً، وقامت عليها موانى هامة، مثل دمياط ورشيد فى الماضى والاسكندرية وبورسعيد فى الحاضر.

وما تزال علاقات مصر بالدول المشرفة على البحر المتوسط تجارياً وسياسياً ذات أهمية واضحة.

أما الجهة الثانية فتقع فى الشرق وتشمل السواحل الغربية لسيناء ثم ساحل البحر الأحمر جنوباً حتى حدود السودان، وهى أكثر طولاً وإن بدت أقل أهمية فى الوقت الحالى بسبب فقر ظهيرها.

وأضاف حفر قناة السويس كشريان بحرى يربط بين الشرق والغرب لموقع مصر مزيداً من الأهمية، حيث أختصرت القناة الطريق لبحرى الذى كان يدور حول

رأس الرجاء الصالح، والذى يربط موانى جنوب وشرق آسيا بموانى غرب أوربا والبحر المتوسط، وأكد اكتشاف البترول بكميات كبيرة حول الخليج العربى أهمية القناة بصورة أكبر من الناحية الملاحية.

حقيقة أن القناة تواجه بعض المشكلات منها اتجاه الدول البحرية إلى بناء ناقلات عملاقة تصل حمولاتها إلى ٤٥٠ ألف طن تدور حول إفريقيا بتكاليف أقل لتتجنب مخاطر إغلاق القناة، كما حدث فى عام ١٩٥٦م، وخلال الفترة بين ١٩٦٧ - ١٩٧٥م، ولكن إدارة القناة تقوم بعمليات تطوير دائبة لمواجهة هذه المنافسة.

غير أن هناك أخطاراً أخرى ما زالت تواجه قناة لسويس وتؤثر على عائداتها، منها التذبذب فى كميات البترول المنتجة من منطقة الخليج.

ثم يتمثل الخطر الثانى فى المشروع الذى تقوم بدراسته إسرائيل لحفر قناة بين ايلات عند رأس خليج العقبة وأشدود على ساحل البحر المتوسط، أو بين ايلات والبحر الميت فساحل البحر المتوسط.

وتواجه سواحل البحر الأحمر المصرية فى الغرب نظيرتها فى الحجاز شرقاً، وإن كانت تحتل المرتبة الانية بعدها من حيث الطول إذ تبلغ أطول السواحل السعودية.

جـ- موقع مصر بالنسبة للدول المجاورة:

نقلت مصر من خلال موقعها الجغرافى المؤثرات العربية الإسلامية إلى إفريقيا جنوبا عبر دهليز النيل الطويل. بل وأبعد من ذلك كانت لبعض القبائل العربية هجرات من صعيد مصر إلى تونس مثلما حدث من بنى هلال وسليم.

ولاشك فى أن المنطقة برزخ السويس وشبة جزيرة سيناء لها أهميـة خاصـة فى موقع مصر، فقد جاءت لمصر المؤثرات الأسيوية عبر هذه البوابـة، بـل يمكـن القول أن الدفاع عن مصر يعتمد على تأمين المدخل الشمالى الشرقى لها، فقد كـانت معظم الغزوات التى انتهت بـاحتلال مصـر أو السيطرة عليهـا بـدءاً مـن الهكسـوس وحتى حرب ١٩٦٧م تفد من هذا الاتجاه، ولا نتجاوز الحقيقة كثيراً إذا قلنا أنه حتـى الآن ما زال خطـر التهديـد لخـارجى لمصـر يمكـن أن يأتيهـا مـن هـذه البوابـة، وإذا قورنت الحدود الغربية أو الجنوبية أو حتـى الشـمالية مـن حيث تهدهـا لأمـن مصـر يمكن ملاحظة مدى أهمية المنطقة الشمالية الشرقية، بحيـث تفـوق كـل هـذه الجهـات مجتمعة.

أما صلات مصر وعلاقاتها بالجنوب، فقد دعمت نيليـا بـورو ميـاه الفيضـان مصدر الحياة على أرضها، وكان النهر فى ذات الوقت طريقـاً ملاحيـاً رغـم جنادلـه لست بين أسوان وحلفا دلفت من خلاله الجماعات البشرية، وتدفقت عن طريقه السلع بين السودان ومصر، وموطن النوبيين الممتد حوله عبر الحدود السياسية بين البلدين وصلات الدم بين الشعبين أكبر دليل على هذه العلاقات.

أما علاقات مصر بالمناطق الواقعة فـى غربهـا، فقد كـانت خـلال العصـور القديمة ذات طبيعة عسكرية حيث اغارت القبائل الرعوية فى الغالب على الأراضـى الزراعية، وجهز الفراعنة جيوشاً تأديب هذه القبائل وتعقب المغيرين، ولكـن م لبـث أن تحولت لعلاقات حضارية من خـلال تدفـق المؤثـرات العربيـة والإسـلامية عبـر مصر غرباً إلى ليبيا وبلاد المغرب، ثم عودتها مع جوهر الصقلى قـائد المعـز لديـن الله الفاطمى إلى مصر مرة أخرى وتأسيس الدولـة الفاطميـة لشـيعية واتخـاذ مدينـة القاهرة عاصمة لها.

والخلاصة أن مصر أصبحت بموقعها الأفرو أسيوى والنيلى والبحر المتوسط ذات أهمية استراتيجية فى ثلاث دوائر أولها الدائرة العربية بحيث تعد همزة وصل بين مشرق العالم العربى ومغربه، ويساعدها على ذلك وزنها البشرى والثقافى، كذلك تتمثل دائرتها الثانية فى العالم الأفرو أسيوى إسلامياً وغير إسلامى، والدائرة الثالثة تمتد إلى القارة الأوربية شمالاً عبر البحر المتوسط.

د- موقع العاصمة:

تنقلت عاصمة مصر من الجنوب إلى الشمال خلال الفترات التاريخية المختلفة، وكانت أقدم عواصم مصر هى نحن (الكاب)حالياً بالقرب من مدينة أدفو.

وفى العهد الفرعونى تنقلت العاصمة بعد ذلك ما بين طيبة (الأقصر حالياً) ومدينة أخناتون) (تل العمارنة بمحافظة المنيا) وأهناسيا (بمحافظة بنى سويف) وكلها فى مصر الوسطى والعلي أى فى الوادى.

وبعد الاحتلال اليونانى أسس الأسكندر الإسكندرية مكان قرية صغيرة قديمة تسمى راكوديس أو راقوده، وأصبحت عاصمة لمصر فى عهد خلفائه من البطالمة، وظلت كذلك فى عهد الرومان ربما بسبب توجه مصر خلال هذه الفترات نحول الشمال وارتباطها باليونان وإيطاليا.

ولكن عند فتح العرب لمصر وجدوا أن هذه العاصمة متطرفة صوب الشمال الغربى، ويمكن أن تتهددها الأخطار وبالتالى نقلت العاصمة مرة أخرى إلى موقعها عند رأس الدلتا، وأقيمت مدينة الفسطاط وبعدها توالت العواصم العربية (العسكر والقطائع) إلى أن أسس جوهر الصقلى قاهرة المعز لدين الله الفاطمى وظلت كذلك حتى الآن.

على أن عاصمة مصر الآن - تضخمت سكانياً وبيروقراطياً، ومن الصواب التفكير حالياً فى نقلها إلى مدينة أخرى تقع على طريق القاهرة - الفيوم أو على الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية.

الفصل الثالث

أقسـام مصر الإدارية

تنقسم مصر الآن إلى مجموعة من الوحدات الإدارية المختلفة تبدأ بتقسيمها إلى محافظات وهى تضم حالياً ٢٦ محافظة تبينها الخريطة المرفقة، ويلاحظ أن هذه المحافظات تتوزع بين وسط الدلتا التى تضم ٤ محافظات هى دمياط وكفر الشيخ والغربية والمنوفية وشرقها الذى يشمل ثلاث محافظات هى الدقهلية والشرقية والقليوبية ثم غرب الدلتا ولا يضم سوى محافظتين هما لبحيرة والإسكندرية، وعلى ذلك فإن الدلتا وهوامشها الشرقية والغربية تشمل تسع محافظات وإذا أضيفت إليها محافظات القناة الثلاث حسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب (بورسعيد والاسماعيلية والسويس) لأصبح الوجه البحرى يشمل نحو نصف عدد محافظات الجمهورية.

أما فى الوجه القبلى فتبدأ المحافظات من الشمال على طول مجرى نهر النيل بالقاهرة والتى تعتبر محافظة وصل بين الوجهين ثم تترتب بالاتجاه جنوباً بدءاً بالجيزة ثم بنى سويف والفيوم والمنيا وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان، وتمتد كل هذه المحافظات على نهر النيل فى شكل شريطى ضيق باستثناء محافظة الفيوم التى تبعد عنه وتقع داخل منخفض الفيوم، وبالتالى يمكن القول أن محافظات الوجه القبلى تشمل أيضاً تسع محافظات مثل الوجه البحرى وإن أختلفت أقدارها من حيث المساحة فمحافظات الوجه البحرى أكثر إتساعاً وأكبر حجماً سكانياً بصورة عامة، وتبلغ مساحة كل هذه المحافظات ٣٥١٩٠كم^{٢} نسبتها ٤٪ من إجمالى مساحة مصر كلها.

أما بقية محافظات مصر والتى تشمل ٥ محافظات ويطلق عليها أحياناً محافظات الحدود فتقع أراضيها فى المناطق الصحراوية شرقى نهر النيل وغربه،

وملاصقة لسواحل البحار وتضـم محافظتا مرسـى مطـروح والـوادى الجديـد معظـم مساحة الصحراء الغربية ولايستثنى من ذلك سوى قطاع صغير تمتـد بـه محافظـات الجيزة جنوباً بغرب لتضم الواحات البحرية إليهـا وجـزءاً آخـر غربـى مدينـة الإسكندرية وجنوبها الغربى (منطقة العامرية) وتشغل محافظة مرسـى مطـروح مساحة قدرها ربع مليون كيلو متر مربع وتشرف على سواحل البحر لمتوسط بين الإسكندرية والسلوم بطول ٥٠٠ كم. أما محافظة الوادى الجديد فتشغل مساحة قدرها ٣٠٠ ألف كم٢ فى القسم الجنوبـى الغربـى مـن مصـر بـدءاً مـن خـط عـرض مدينة جرجا بسوهاج حتى الحدود المصرية الليبية غرباً وحتى حدود مصر الجنوبية فى الجنوب والسهل الفيضى للنيل شرقاً، وكما ترى تشغل هاتان المحافظتان وحدهما نحو نصف مساحة مصر كلها.

أما فـى شـرق النيـل فتمتد محافظة البحر الأحمر لتشغل معظـم مسـاحة الصحراء الشرقية باستثناء الأطراف الشمالية لها الموزعة بين محافظات السويس والقاهرة والجيزة وتبلغ مساحة هذه المحافظة وحدها ١/٥ مساحة مصر أى ٢٠٠ ألف كم٢، يضاف إلى المحافظات الصحراوية شبه جزيرة سيناء التى تمثل ٦٪ من إجمالى مساحة مصر وهى تنقسم إلى محافظتين إحداهما فى الشمال (سيناء الشمالية) والأخرى فى القسم الجنوبى (سيناء الجنوبية)، فكـأن هذه المحافظات الخمس تمثل ٩٦٪ من مساحة البلاد بينما تنقسم الـ ٤٪ الباقية إلـى ٢١ قسـماً إداريـاً تمثـل محافظات القسم المأهول من الأراضى المصرية ولكـل منها قاعدتها الإدارية التى تأخذ نفس أسمها فى كل محافظات الصعيد ومنطقة القناة والقاهرة والإسكندرية ودمياط وكفر الشيخ، على حين تتميز محافظات الدلتا الأخرى بوجود عواصم إدارية لها فالبحيرة عاصمتها دمنهور والغربية طنطا والمنوفية شبين الكـوم والقليوبيـة بنهـا والشرقية الزقـازيق والدقهلية المنصـورة، وفى المناطق الصحراوية تعد العريش عاصمة لسيناء الشمالية والطور عاصمة سيناء الجنوبية والغردقة قاعدة لمحافظة البحر الأحمر والخارجة عاصمة للوادى الجديد.

وتساير الحدود الإدارية بين المحافظات ظاهرات طبيعية مثل فروع النيل أو البحيرات فى الدلتا أو مجرى النهر ذاته فى الصعيد أو ظاهرات قام بإنشائها الإنسان مثل الترع والمصارف أو تأخذ خطوطاً وهمية لا أساس لها فى الواقع مثل حدود مرسى مطروح مع الوادى الجديد والجيزة والفيوم أو الحد الإدارى بين محافظة البحر الأحمر ومحافظات الصعيد والحد الفاصل بين قسمى سيناء الشمالى والجنوبى.

أقاليم مصر التخطيطية

وقد أقترحت هذه الأقاليم فى عام ١٩٧٥ وكان الهدف منها تجميع إمكانات وموارد المجموعات المتقاربة مكانيا من المحافظات لاستغلالها اقتصادياً وقسمت مصر بناءاً على ذلك إلى ٨ أقاليم تخطيطية على النحو التالى:

١- إقليم القاهرة الكبرى ويشمل محافظات القاهرة والجيزة والقليوبية.
٢- إقليم الإسكندرية ويشمل محافظات الإسكندرية والبحيرة ومحافظة جديدة مقترحة يمكن أن تسمى العامرية فى غرب وجنوب غرب الإسكندرية.
٣- إقليم الدلتا ويضم محافظات الدقهلية ودمياط وكفر الشيخ والغربية والمنوفية.
٤- إقليم مطروح ويشمل محافظة مرسى مطروح فقط.
٥- إقليم شمال الصعيد ويضم محافظات الفيوم بنى سويف والمنيا.
٦- إقليم جنوب الصعيد ويشمل سوهاج وقنا وأسوان والقسم الجنوبى من محافظة البحر الأحمر.
٧- إقليم أسيوط ويضم محافظتا أسيوط والوادى الجديد.
٨- إقليم قناة السويس ويتكون من محافظات القناة وشبه جزيرة سيناء.

وقد أنتقد هذا التقسيم الذى وضعته وزارة الحكم المحلى فى ذلك الوقت بسبب تخصيصه إقليماً كاملاً لمحافظة مرسى مطروح والمفروض أن تضم لإقليم الإسكندرية كذلك الحال بالنسبة لمحافظة أسيوط التى فصلت من محافظات الوادى

الجديد بجانب تجزئته محافظة البحر الأحمر بين ثلاثة أقاليم هى القناة وشمال الصعيد وجنوبه.

وقد أقترح تقسيم إدارى آخر للمحافظات يهدف لتجزئة الصحراوين الشرقية والغربية إلى أقسام أصغر وإضافة جبهة ساحلية على البحر الأحمر لمحافظات الوجه القبلى. على أن مثل هذا التقسيم لابد أن يستند إلى أسس واقعية تدخل فى اعتبارها الخدمات الإدارية ومدى سهولة حصول السكان عليها بجانب الموارد الاقتصادية لكل منطقة.

الباب الثانى

الثقافة المصرية

- الفصل الأول: تعريف الثقافة
- الفصل الثانى: مكونات وتنظيم الثقافة
- الفصل الثالث: تنظيم الثقافة
- الفصل الرابع: أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات
- الفصل الخامس: التغير الثقافى
- الفصل السادس: العمليات الثقافية

الفصل الأول

تعريف الثقافة

الثقافة (Culture) مصطلح هام فى كل العلوم الاجتماعية وبقد اهتم علم الأنثربولوجيا بوجه خاصه بدراسة الثقافة دراسة تفصيلية متعمقة وأسفرت دراساته عن قدر كبير من المعارف العلمية التى تمتلئ بها حالياً الكثير من الكتب والمراجع والمقالات العلمية وسوف نحاول فى هذا المجال توضيح كل من المعنى العلمى والمعنى الدارج للثقافة وبيان ونشأتها وطبيعتها وخواصها.

إلى جانب ذلك سوف نوضح الفرق بين الثقافة والمدنية، وأسباب الاهتمام بدراسة الثقافة، ولصعوبة التعرف على أصل الثقافة، والأساس البيولوجى للثقافة وأهمية الجماعات الإنسانية فى اكتساب الثقافة، تلك المعارف تعتبر ضرورية للطالب المبتدئ الذى يرغب فى فهم المجتمع ومكوناته ووظائفه وخصائصه فدراسة الثقافة تساعد على تحقيق ذلك.

حاول الكثيرون من علماء الانثربولوجيا تحديد المقصود بالثقافة ولجأ بعضهم إلى وضع تعاريف محددة لها بينما أكتفى البعض الآخر بتفنيد وشرح ما بعده هذا المصطلح الهام. ومن بين التعاريف العديدة للثقافة ذلك التعريف الكلاسيكى لعالم الأنثربولوجيا الانجليزى Edward Tylor والذى قد ورد فى كتابه Frimitive Culture والمنشور فى لندن ١٨٧١ والذى جاء به أن الثقافة هى: ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعارف والعقائد والفن والأخلاق والقانون والتقاليد والقدرات والعادات الأخرى المكتسبة بواسطة الإنسان عضو فى المجتمع.

وهناك بعض العلماء الذين يضيفون إلى هذا التعريف أشياء أخرى ويشيرون بوجه التحديد إلى أن عبارة القدرات والعادات الأخرى أنما يتضمن أيضاً اللغة

والأساليب التكنولوجية المستخدمة فى صنع واستعمال الأدوات، ويرغبون أن يكون واضحاً أن طرق السلوك والتفكير والشعور المشتركة هى أيضاً جزء من الثقافة غير ان مضمون تعريف Tylor dukn يعنى كل هذه الأشياء وأن لم يكن تفصيلاً فالثقافة هى السلوك المتعلم وأنماط السلوك المتعلمة أى كل طرق أو أنماط التفكير والشعور بل والآراء المشتركة، ومن الجدير بالذكر أن تعريف Tylor للثقافة - رغم قدمه ورغم وجود تعاريف كثيرة أخرى أضيفت من بعده - لا يزال يلقى قبولاً عاماً إلى حد كبير لدى الكثير من العلماء الاجتماعيين.

وقبل أن ننتهى من الكلام على التعريف الثقافة ربما يجد أن نورد تعريفاً آخر حتى يتبين منه مدى اتفاق أو اختلاف التعاريف بعضها عن بعض. يعرف جون كوبر الثقافة على أنها الأنماط دائمة التغير من السلوك المتعلم ومنتجات هذا السلوك المتعلم (بما فى ذلك الاتجاهات والقيم والمعارف والأشياء المادية) التى يشترك فيها أفراد المجتمع وتنتقل فيما بينهم، ويلفت المؤلف النظر بوجه خاص فى هذا التعريف إلى الحقائق الأتية:

١- أن سلوك الناس عموماً متعلم.

٢- أن الثقافة منظمة فى أنماط.

٣- أن هذه الأنماط ناتجة عن تعليم (شعورى أو لا شعورى) من الناس الآخرين.

٤- أنها توجد فى شكل أشياء مادية وأفكار وعادات وأيضاً اتجاهات ومعارف معنوية.

٥- أنها تميل إلى أن تكون إلى حد ما عامة ومشتركة بين أعضاء المجتمع تتعلم من الآخرين وتعلم للآخرين بطريقة لا شعورية إلى حد كبير.

٦- أن هذه الطرق فى الأداء والطرق فى التفكير تكون نمط حياة الناس.

٧- أن هذه الطرق متغيراً باستمرار.

ولعله واضحاً من هذا التعريف أن جون كوبر إنما ينظر إلى الثقافة على انها السلوك المتعلم وأنماط السلوك المتعلقة المتغيرة التى يشترك فيها الناس ويتناقلوها فيما بينهم، وهذا ما يتفق تماماً مع تعريف تيلو السابق توضيحه، غير انه يختلف معه فى أنه يعتبر الأشياء المادية الثقافية جزء من الثقافة وبمعنى آخر ينظر إلى الثقافة على أنها تتكون من ماديات ومعنويات.

المفهوم الدارج للثقافة:

اتضح من المفهوم العلمى للثقافة أنها السلوك المتعلم وأنماط السلوك المتعلمة التى يقتبسها الفرد من غيره من الأفراد فى المجتمع وينقلها بدوره إلى الأفراد الآخرين وهذا يعنى أن كل فرد فى المجتمع - باستثناء المولود حديثاً - له ثقافة على عكس ما يعتقد الكثيرين ممن يستخدمون لفظ "ثقافة" بالمعنى الدارج لوصف الأفراد الذين يطلقون عليهم دراجياً بالمثقفين كالعلماء والمهندسين والكتاب والصحفيون وذوى الآداب الرفيعة الذين يحسنون الجلوس على الموائد واستخدام أدوات الطعام المختلفة أو استقبال الناس ومعاملتهم بطريقة حسنة والذين يعرفون القواعد الخاصة (الاتيكيت) بالسلوك المناسب فى المواقف المختلفة أو الأفراد من حملة الشهادات أو أولئك الذين يهتمون بالنواحى الفنية والأدبية والموسيقية.

مثل هؤلاء قد يكونوا فقط أحسن حظاً من غيرهم من أفراد آخرين بحكم تمتعهم بأحسن ثمرات ثقافتهم، ووفقاً لهذا المعنى الدارج للثقافة فإن الأفراد غير المثقفين هم أولئك الذين يتصفون بصفات عكس الصفات المذكور أعلاه والذين لا يتمتعون على القل بمثل هذه الصفات، هذا المعنى الدارج للثقافة بعيداً كل البعد عن معناها العلمى والذى يعنى أنها طريقة حياة جماعة من الناس يشترك أفرادها فيها بدرجات متفاوتة فكل الناس فى فى المجتمع لهم ثقافة، ولو أن مختلف الأفراد ومختلف الجماعات لها ثقافات مختلفة.

فالعمال الأميين غير المهرة فى المزارع والمصانع والمناجم وجامعى القمامة فى الشوارع وغيرهم جميعهم لهم ثقافة شأنهم فى ذلك شأن من يسمون بالمثقفين من أفراد المجتمع رغم أن هؤلاء الوسائل ربما لم يدخلوا مدرسة أو معهداً عالياً ولم يسمعوا قط عن أى عالم أو أديب أو موسيقى موهوب أو ممثل مشهور كما أنهم لا يعرفون شيئاً عن أى إنتاج علمى أو أدبى أو موسيقى أو فنى ذات قيمة عالية أو منخفضة، أنهم قوم يكدون ويكدحون طوال يومهم للحصول على قدر ضئيل من الدخل يواجهون به احتياجاتهم اليومية الضرورية، خبراتهم ومعارفهم وقدراتهم وكفاءتهم محدود للغاية ومع ذلك فإن لهم ثقافة شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الأفراد الأخرين بالمجتمع، وبالمثل يمكن أن يقال بالنسبة لربة البيت العادية التى تمضى طوال يومها فى آداء الأعمال المنزلية لديها هى الأخرى ثقافة شأنها فى ذلك شأن الطبيبة أو الأديبة أو نجمة السينما أو الأوبرا اللامعة.

وربما يعزى الخلط الذى لا يزال يحدث بين المعنيين العلمى والدارج للثقافة كما يقول J.B. Mckee إلى أنه فى الماضى وعلى وجه التقريب فى منتصف القرن التاسع عشر كان يستخدم لفظى الثقافى والمدنية فى الدراسات الأنثروبولوجية لوصف طريقة الحياة السائدة فى أنواع من المجتمعات بينما يستخدم لفظى الوحشية Savage والبربرية لوصف طريقة الحياة فى مجتمعات أخرى.

فالمصطلح ثقافة ـ من الناحية التاريخية ـ نشأ فى محيط التفرقة والتمييز بين أنواع الحياة الاجتماعية للسكان فى المجتمعات المختلفة إلا أنه عندما وضع Tylor تعريفه المشهور فى ١٨٧١ أصبح المصطلح "ثقافة" لا يقصد به بالمرة مدلوله القديم وإنما أصبح يطبق على كل المجتمعات المتحضرة والبدائية والمتقدمة والمتخلفة على السواء. كل الناس لهم ثقافة بل لابد أن يكون لهم ثقافة.

ولقد أوضح Mckee أن العالم البريطانى Raymond Williams قد تتبع فى مؤلفه "الثقافة والمجتمع" (١٨٧٠ - ١٩٥٠) والمنشور فى ١٩٥٩ التطورات التى طرأت على استخدام لفظ ثقافة بواسطة المفكرين البريطانيين منذ أوائل القرن الثامن عشر فتبين له أن الثقافة تستخدم بالمفهوم الذى تستخدم به حالياً منذ بداية المجتمع الصناعى ومنذ حدوث التغيرات الثورية فى الحياة الاجتماعية التى جاءت مع التصنيع، ويقول أنها أحد كلمات خمسة هامة أصبحت مهمة لاعطاء معنى للخبرات التى جاءت مع هذه التغيرات الكبيرة والكلمات الأخرى هى: الديمقراطية ـ الصناعة ـ الطبقة الفن. وعلى الرغم من المجهودات الكبيرة التى قام بها العلماء الاجتماعيون وبالأخص الأنثربولوجيون لتعريف الثقافة وعلى الرغم من الكتابات التى كتبت فى هذا الشأن فأنه لا يزال هناك عدم اتفاق تام على مدلول هذا المصطلح الهام.

الثقافة والمدنية

على أن ثمة خلط آخر كثيراً ما يحدث بين المصطلحين الثقافة (Culture) والمدنية (Civilization) وهو خلط يجب أيضاً تفاديه، فقد أوضحنا قبلاً المفهوم العلمى للثقافة فما هو إذن المقصود بالمدنية؟ أى ساكن المدينة وهى كلمة تعنى عكس كلمة بدائى Frimitive، وعندما يقال المجتمعات المتمدينة يقصد بذلك المجتمعات الحضرية الكبيرة ذات النظام الاقتصادى والسياسى والاجتماعى المعقد، وعندما يقال المجتمعات البدائية أنما يقصد بذلك المجتمعات الصغيرة البسيطة التى لا تحتوى على الأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الكبيرة والمعقدة.

بالطبع هناك سمات كثيرة جداً تتصف بها كل من المجتمعات المتمدينة والمجتمعات البدائية ليس هنا مجال التعرض اليها لكن المهم أن نشير إلى أن لفظى متمدين وبدائى أن هما إلا مصطلحين لوصف نوعين من المجتمعات تختلف عن بعضهما من حيث التركيب والبناء والوظائف والخواص وأنه سواء أكانت

المجتمعات متمدينة أو بدائية فإن لكل منها ثقافتها وعلى ذلك فليس هناك ثمة ما يدعو للخلط بين الثقافة والمدنية فلفظ ثقافتها وعلى ذلك فليس هناك ثمة ما يدعو للخلط بين الثقافة والمدنية فلفظ ثقافة لا يجب أذن أن يكون مرادفاً للفظ مدنية لأن المندية لفظ يصف نوع الحياة فى مجتمعات معينة بمقارنتها بنوع الحياة فى مجتمعات أخرى بينما لفظ ثقافة يعنى طريقة الحياة فى أى مجتمع انسانى متمدين كان أو بدائى.

على انه يجب الإشارة إلى أن بعض الأنثروبولوجيين لم يعودوا يرغبون فى استخدام لفظ بدائى لوصف الثقافة التى تتصف بها المجتمعات البسيطة غير المعقدة لأن كلمة بدائى تعنى للكثيرين التخلف وتوحى بالاعتقاد بأن المجتمعات مرتبة على سلم الرقى كل تقف فى مكان معين، أنهم يميلون حالياً لاستخدام لفظ Noniiterate Societies وهو لفظ يقصد به المجتمعات التى ليس لها لغة مكتوبة بدلاً من لفظ Frimitive Societies، وأحياناً ما يستخدم أيضاً لفظ Freliterate ولكن نظراً لأن هذا اللفظ الأخير قريباً من لفظ Frimitive فأن البعض يفضل استخدام لفظ Nonliterate.

وأخيراً أيا كانت المصطلحات المستخدمة لوصف مختلف أنواع المجتمعات وايا كانت التعاريف المستخدمة فى الدلالة على الثقافة فأنه يجب أن لا نخلط بين المجتمع والثقافة، يقول ساذرلاند وأيضاً زملائه أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس تعيش فى مكان معين مميزة عن غيرهم من الناس حيث سلوكهم الحقيقى اى من حيث طريقة تفكيرهم وطريقة شعورهم وانفعالهم، ومن هنا يمكن التمييز بين المجتمع والثقافة فعندما نركز الاهتمام على الناس ونرى كيف أنهم كأفراد وكجماعات صغيرة مرتبطين ببعض فى وحدة واحدة منظمة إلى حد ما ومميزة عن غيرها من الجماعات المنظمة الأخرى فى هذه الحالة تكون نتحدث عن المجتمع.

أما إذا تحدثنا عن أنماط سلوك الناس تقاليدهم وعقائدهم ولغتهم وطرق تفكيرهم وشعورهم وأفعالهم المشتركة والتى ترتبط ببعضها فى نمط عام فأننا فى هذه الحالة نكون نتحدث عن الثقافة، ويقول ساذرلاند أن Ralph Linton قد فرق ببساطة بين المجتمع والثقافة بقوله "أن المجتمع مجموعة منظمة من الأفراد بينما الثقافة مجموعة منظمة من ردود الأفعال المتعلمة التى يتصف بها مجتمع معين.

أسباب الاهتمام بدراسة الثقافة

يعزى الاهتمام بدراسة الثقافة إلى عوامل عديدة منها:

١ – حب الاستطلاع

رغبة الإنسان فى التعرف على كيف بدأت الخليقة على سطح الأرض وكيف نشأت التجمعات الإنسانية الأولى وكيف تطورت أشكالها ووظائفها وأوجه نشاطها كل ذلك وغيره دفع الكثيرين من الأفراد على مر العصور إلى محاولة الوقوف على قصة حياة الإنسان على سطح الأرض، ولقد كانت فيما مضى بعض المعارف المتوصل إليها - خاصة عن نشأة الإنسان – أحياناً تتعارض مع العقائد الدينية السائدة غير أنه حالياً أصبحت الكثير من المعارف العلمية فى هذا الشأن مقبولة بصفة عامة والقليل جداً منها ما يتعارض مع هذه العقائد الدينية.

ويسعى علماء الأنثروبولوجيا إلى محاولة دراسة المجتمعات البدائية البسيطة بوجه خاص قبل أن تنقرض هذه المجتمعات لأنها فعلاً آخذه فى الزوال، أو قبل أن تتأثر طريقة الحياة بها من جراء اختلاطها بالمجتمعات المتمدينة المعاصرة بسبب سهولة الانتقال والاتصال فى الوقت الحاضر، انهم يهدفون من وراء ذلك إلى محاولة استكمال التعرف على المجهول من المعارف الخاصة بنشأة وتطور الثقافة فى المجتمعات المختلفة على مر الأزمنة المختلفة، أن تاريخ الإنسان على سطح الأرض لا يزال يكتنفه الكثير من الغموض هذا الغموض يكتشف بعض جوانبه من

آن لآخر بفضل البحث والتنقيب وحب الاستطلاع الذى يساور الكثيرين من العلماء والباحثين المتخصصين فى علمى التاريخ والأنتروبولوجيا بوجه خاص.

٢- الرغبة فى الاستفادة بخبرات الماضى وتجاربه:

ان دراسة الماضى وما ينطوى عليه من خبرات عديدة كانت أيضاً دافعاً وراء الرغبة فى تقصى الحقائق المتعلقة بالخبرات السابقة املاً فى أن تساعد هذه الحقائق فى فهم مشاكل الحاضر وربما فى حلها، لقد أظهرت بعض الاكتشافات على ان الناس فى مختلف المجتمعات حتى البسيط جداً منها وفى مختلف العصور مرت ببعض التجارب والخبرات التى لا يجب الاستهانة بقيمتها أو التقليل من قدرها أو من أهميتها وأن الالمام بهذه التجارب والخبرات يعتبر مفيداً للغاية.

فلو أمكن مثلاً التعرف على كيف نشأت وتطورت انظمة التحكم وأنظمة الأسرة والأنظمة الاقتصادية والأديان وغير ذلك لأمكن الاستفادة من كل هذه المعارف لا فى الأنظمة القائمة حالياً فحيب بل وفى ادراك أوجه القوة والضعف فى كل منها، ومميزات وعيوب كل نظام من واقع الخبرات السابقة والمشاكل والصعوبات التى تعرض لها كل نظام حتى يمكن تفادى الوقوع فى مثلها، أن خبرات الماضى كثيراً ما تكون أكبر عون فى حل مشاكل الحاضر وفى التخطيط للمستقبل.

٣- الرغبة فى فهم المجتمع وما ينتابه من تغيرات:

دراسة الثقافة بكل ما تتضمنه من معنويات كالتقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين والعلوم والفنون والآداب والتكنولوجى المستخدم وغير ذلك، وبكل ما تتضمنه من منتجات مادية يساعد على التعرف على اصل أو نشأة العناصر الثقافية والأنماط الثقافية القائمة عليها والتغيرات التى تطرأ عليها أو تنتابها، أن السلوك المتعلم لأفراد المجتمع وأنماط ذلك السلوك المتعلم (أى الثقافة) هى التى

تشكل طريقة الحياة فى المجتمع كما سبق القول ومن ثم فإن دراسة الثقافة وما يطرأ عليها من تغيرات يساعد على فهم بل ويعتبر أمراً ضرورياً لفهم التركيب البنائى والوظيفى للمجتمع.

٤ – لزيادة الفهم المتبادل بين المجتمعات ذات الثقافات المختلفة:

دراسة مكونات الثقافات المختلفة من شأنة أن يفسر أوجه الشبه والخلاف بين هذه الثقافات، كثيراً ما تختلف طرق سلوك وطرق تفكير واتجاهات الناس من مجتمع لآخر اختلافاً كبيراً لدرجة أن ما قد يعتبر صواباً فى مجتمع قد يعتبر خطأً فى مجتمع آخر وما قد يعتبر عفة فى مجتمع قد يعتبر فجوراً فى مجتمع ءخر، ولو أن هناك ادراك واعى لحقيقة أسباب التشابه والاختلاف هذه لساعد ذلك على إزالة الكثير من سوء الفهم والغموض الذى يسود تفكير الناس فى المجتمعات المختلفة تجاه ثقافات بعضهم البعض ولساعد كثيراً على إقامة علاقات طيبة بين المجتمعات على اساس من الفهم والاحترام المتبادل.

هذا بالإضافة إلى أن كل ثقافة تقريباً يوجد بها من الأشياء القيمة ما لم يوجد له شبيه فى ثقافة أخرى، دراسة الثقافات المختلفة تساعد على التعرف على كل هذه الأشياء وتيسر من امكان الاستفادة عن طريق الاقتباس بما توصل غليه الناس فى مجتمعات أخرى من أشياء معنوية أو مادية قيمة بعد تكييفها وتعديلها أو تحويرها بما يتناسب وظروف كل مجتمع.

صعوبة التعرف على أصل الثقافة:

على الرغم من التقدم العلمى الكبير الذى وصل إليه الانسان فى العصر الحاضر فى مختلف الميادين إلا أنه مع الأسف لا يوجد حتى الآن معلومات عملية دقيقة تجيب على الاستفسارات المتعلقة بمتى وأين وكيف بدأ الإنسان فى خلق ثقافة

على الرغم من أن الكثير من الأفراد على مر العصور كانوا يسعون للوصول إلى اجابات مرضية عن هذا الشأن، لم يكن كل هؤلاء الأفراد من العلماء بل كان منهم رجال الدين والفلاسفة والمصلحون، بعض هؤلاء وصل إلى عدة تفسيرات واستنتاجات عن نشأة الثقافة ولكن من الصعب اثبات صحتها عن طريق البحث العلمى الميدانى لأن فترة ما قبل التاريخ مليئة بالغموض، ومن ثم فأن مشكلة التعرف على نشأة الثقافة لا تزال تتحدى جهود الباحثين والعلماء حتى اليوم.

وربما يعزى الاخفاق العلمى فى معرفة نشأة الثقافة إلى عوامل عديدة منها أن البحث العلمى فى هذا الشأن بدأ منذ عدة أجيال قليلة فى الوقت الذى تعتبر المصادر الأركيولوجية المسئولة أن بعض المعالم الأولى للثقافة بدأت فى الظهور منذ حوالى مليون سنة قبل الميلاد، ومن هذا يتبين مدى الفترة الزمنية الطويلة التى انقضت منذ بداية ظهور الثقافة على سطح الأرض وهذا من شأنه أن يصعب على اى باحث مهما كانت قدرته أن يكون لديه من الأدلة العلمية ما يوضح حقيقة نشأة الثقافة أى متى وأين وكيف نشأت على وجع التحديد، وإذا ما اعتبر أن أصل اللغات والحياة والاجتماعية والأسرية واستعمال الآلات ترجع إلى عصر ما قبل الإنسان Pre-Humen فإن المشكلة تصبح والأمر كذلك أكثر تعقيداً.

لقد سبقت الثقافة كافة السجلات المكتوبة سواء الموجودة أو التى كانت موجودة فيما مضى ومن ثم فإن كافة الحقائق التاريخية مهما أرتدت إلى الوراء لا يمكن أن تجيب على وجه التحديد على كيفية نشأة الثقافة فأصول الكثير من الأشياء الثقافية تائهة فى الغموض الذى تتصف به الحقبة الأولى من تاريخ حياة الإنسان على سطح الأرض لكن رغم أن الكثير من الأدلة عن حياة الانسان فى الأزمنة الماضية قد ضاعت أو غير معروفة إلا أن العلم لا يخلو من بعض المعارف التى يعتد بها عن الماديات الثقافية من الأزمنة القديمة والتى لم تفنى مثل الحجارة

والآلات والرسومات الموجودة على جدران الكهوف والتي يمكن ملاحظاتها ودراستها.

العناصر الثقافية والمعنوية عن الفترات السابقة هي التي لا يزال من الصعب تجميعها ومعرفتها لأنه كما سبق أن أوضحنا قبل ظهور الكتابة أو الرسم لم يكن هناك وسيلة ملموسة لشرح كيف يعيش الناس أو كيف يفكرون وفي أي شئ يفكرون ولماذا اخترعوا اشياء دون أشياء أخرى إلى غير ذلك ولو أنه من الممكن التوصل إلى بعض الآراء والاستنتاجات من فحص الأشياء المادية التي تركها الناس في الأزمنة الماضية غير أنه من الصعب أن ندرك ثقافتهم تماماً خصوصاً وأن الأشياء المادية وحدها لا تحكي قصة حياتهم الاجتماعية كاملة.

وعلى أي حال فإن كل ما يسعى إليه البحثون من وراء دراستهم للعناصر الثقافية مادية أو معنوية عن هذه الحقبة الماضية من تاريخ حياة الإنسان هو أنه بالتحليل والاستنتاج ربما يستطيعون تكوين فكرة عن نشأة هذه العناصر الثقافية لكن ذلك ليس أمراً سهلاً لأنه لا يوجد وقت معين نشأت فيه أي سمو أو مركب أو نمط ثقافي معين فلا يعرف مثلاً متى نشأت الدولة أو الأسرة؟ لابد أن هناك ظروف كثيرة حدثت الواحدة تلو الأخرى سبقت ذلك وأدت في النهاية إلى بداية ظهور الحكومة والدولة والأسرة، ربما نشأت الحكومة تدريجياً نتيجة لوجود تآلف جنسي بين الأفراد، وهكذا الحال بالنسبة لأي سمة ثقافية أو مركب أو نمط ثقافي آخر جاء تدريجياً نتيجة حدوث شئ تلو الآخر نتيجة ظروف معينة حتى أصبح كما هو عليه حالياً أن كان لا يزال موجوداً وليس هناك أي تاريخ محدد يمكن أن يقال أن فيه ظهر عنصر ثقافي معين، ومن ثم يمكن القول ان مكونات الثقافة نشأت تدريجياً كما نشأت الأرض والكون بأجمعه، هذه هي على الأقل فكرة التطور من الناحية العلمية.

الأساس البيولوجى للثقافة

ان الشكل الموجود عليه الإنسان حالياً جاء بعد فترة طويلة جداً من التطور البيولوجي، ربما مرت ملايين من السنين إلى أن وصل الجنس البشرى إلى ما وصل إليه حالياً من صفات بيولوجية، ولن نتعرض فى هذا المجال لنشأة وتطور الإنسان وصفاته البيولوجية فى كل مرحلة من مراحل تطوره ومكانته فى المملكة الحيوانية فهذا أمر تناوله بالتفصيل علماء الانثروبولوجيا وعلماء البيولوجيا وكتبوا عنه الكثير من الكتب والمراجع العلمية، أننا سوف نهتم هنا بالإنسان المعاصر بصفاته البيولوجية الراهنة لأننا أساساً نستهدف التعرف على نشأة الحياة الاجتماعية للإنسان أكثر من التعرف على تطور خواصه البيولوجية.

الثقافة لها أساس بيولوجى لا يمكن اهماله ولا التغاضى عنه. لابد من دراسة الانسان ككائن بيولوجى ذو قدرة على خلق وحمل ونقل الثقافة، لننظر إذن إلى بعض الخواص البيولوجية للإنسان التى ساعدته ومكنته على خلق ثقافة، الإنسان حيوانكغيره من الحيوانات الأخرى الموجودة على سطح الأرض، وكحيوان فأنه يشترك مع سائر الحيوانات فى بعض الصفات البيولوجية والتى منها أنه كائن حى يتكون من مادة بروتبلازمية حساسة، يتناول الطعام ويخرج الفضلات ويولد طاقة، مشكلته كغيره من الحيوانات تتضمن ضرورة تكييف نفسه للبيئة التى يعيش فيها وإشباع احتياجاته ودوافعه البيولوجية الموروثة والتى منها احتياجاته للمأكل والمشرب والراحة والحركة.

ومن صفات الإنسان أنه يحاول أن يحتفظ بدرجة حرارة جسمه يتنفس ويتولد لديه الرغبة للاختلاط الجنسى، هذه الاحتياجات او الدوافع الفطرية تفرض الشعور بها عن طريق خلق حالة من التوتر أو عدم التوازن العضوى الذى يحمل على التفكير فى اشباعها، وكسائر الحيوانات الثديية يتصف [انه يتكون من جنسين

(ذكر وأنثى)) وبأنه من فصيلة الحيوانات ذات الدم الحار وبأنه يلد أطفاله أحياء. ومثل Frimates والتى منها القردة والشمبانزى والجوريلا لا يعرف موسماً معيناً للاختلاط الجنسى ولا للتوالد بل يتم ذلك عادة فى أى وقت على مدار السنة ويلد عادة مولوداً واحداً وبعد فترة طويلة نسبياً من الحمل، والمولود يكون عادة غير قادر على إعالة نفسه لمدة طويلة نسبياً بعد الولادة. كل هذه الصفات البيولوجية ذات أهمية قصوى وتستوجب اعتبارات خاصة بالنسبة للمجتمع الإنسانى والثقافة.

ورغم وجود هذه الصفات التى يشترك فيها افنسان مع سائر الحيوانات الأخرى فإنه يختلف عنها فى أنه ورث القليل جداً من أنماط السلوك الغريزى بأستثناء بعض ردرود الفعل أى الأنعكاسات الأوتوماتيكية مثل انقباض عدسة عينة فى حالة التعرض للضوء الشديد جداً وافراز غدده للعاب عندما يكون جائعاً وأمامه طعام، وتقلص عضلاته عند الشعور بألم، وتحكم جهازه العصبى فى تنفسه ودقات قلبه وعمليات هضمه واخراجه بقليل جداً منالتكييفات الارادية من جانبه، باستثناء هذه الانعكاسات الموروثة فأنه لا يوجد نمط محدد لرد الفعل.

ومع أن الكثير من السلوك الحيوانى يتحكم فيه غريزياً إلا أنه يجب الاشارة إلى أن السلوك الغريزى يزداد فى الكائنات الحيوانية الدنيا، والانسان بوصفه أرقى الكائنات الحيوانية فأن كل سلوكه تقريباً سلوك ارادى وليس غريزى. والغريزة هى طريقة سلوك موروثة لها أساس فسيولوجى يحدد السلوك بوضوح ويكون عام فى نفس الجنس من حيث التعبير عنه، ولعل من الجدير بالذكر أن نشير أن العلماء الاجتماعيين لم يعودوا يرغبوا فى استخدام ما يسمى بالغرائز حيث لم يعد لها قيمة تذكر فى وصف السلوك الانسانى.

وفضلاً عن هذا الاختلاف فإن الانسان يختلف ايضاً عن سائر الحيوانات فى أنه ينقصه القدرة البيولوجية فى أن يكيف نفسه لظروف بيئية معينة، فالدب له فرو

كثيف والفيل له جلد سميك والسمك له قشر وزعانف كل هذه تجعل كل منها قادراً على المعيشة فى بيئة معينة، قليل جداً منالحيوانات يناسبها المعيشة فى أكثر من نوع واحد من الطقس لعدم قدرتها على أن تكيف نفسها للمعيشة والحياة فى البيئات المختلفة لأن تركيبها البيولوجى لا يمكنها من ذلك ومن ثم فأنها وجدت موزعة على سطح الأرض كل فى الأماكن التىتناسبها أما الإنسان فأنه على العكس من كل ذلك تماماً فكما ينقصه الأنماط المحددة من السلوك فأنه ينقصه التكيفات البيولوجية المحددة، ولكن هذه كلها ميزات وليست قصوراً فالانسان كائن مرن لديه القدرة على التكيف مع الظروف البيئية التى يعيش فيها ومن ثم فأنه استطاع أن يعيش تحت الظروف المتباينة المختلفة على سطح الأرض.

على أن هناك ثلاث صفات بيولوجية هامة يتميز بها الانسان عن الحيوانات الأخرى بأستثناء Higher Primates ومنها القردة Great Apes (الجوريلا والشمبانزى). هذه الصفات الثلاث هى:

١- أن لديه يدين يمكن بواسطتها مسك الأشياء Prehensile hand وأصبع يستطيع أن يجعله عكس أى أصبع آخر.
٢- وأنه عن طريق عموده الفقرى وشكله القائم استطاع الوقوف على رجليه الطويلتين فحرر بذلك يديه لعمل الأشياء وقد ساعد على ذلك أيضاً أن خفى رجليه تحميانه من أى صدمة قد تؤثر على مخه عند المشى.
٣- وأن لديه قوة ابصار واسعة وكبيرة يستطيع ببصره أن يرى ـ لمسافات بعيدة وأن يركز بصره على الأشياء التى تقع على مسافات مختلفة غير ان هذه الصفات وحدها لم تمكن القردة ولا Great apes من خلق ثقافة.

والذى جعل الإنسان مميزاً عن غيره من أفراد المملكة الحيوانية ومن ثم قادراً على خلق ثقافة هو ثلاث صفات بيولوجية أخرى انفرد بها عن سائر الحيوانات وهى:

١- أنه له جهاز عصبى على درجة عالية من التعقيد.
٢- أنه له مخ كبير يصل فى حجمه إلى ثلاث أمثال حجم مخ الجوريلا ومعقداً جداً حيث ينتهى إليه ملايين أطراف الأعصاب المنتشرة بالجسم.
٣- أن جهازه الصوتى متصل بمنطقة كلامية متطورة فى المخ مما جعله قادراً على ربط الكلمات فى جمل والتعبير عنها بوضوح وقد ساعد على ذلك أن ليس لديه بحكم تركيب مخه معوقات تعوق تحريك لسانه فى الاتجاهات المختلفة إذ أن أنيابه صغيرة كسائر أسنانه الأخرى تقريباً. من حيث الحجم كما أن فكوكه صغيرة أيضاً وإن كانت أقل قوة وأقل قدرة على كسر الأشياء بمقارنتها بفكوك وأسنان الـ Primates.

لكل هذه الصفات البيولوجية استطاع الانسان أن يكون له لغة ورموز واشارات يتفاهم بواسطتها مع غيره من الأفراد كما استطاع الانسان بفضل خواص جهازه العصبى وجهازه الصوتى ومخه أن يتعلم ويتذكر ويفكر ويتنبأ وبذلك أمكنه سائر الحيوانات الآخرى عمل ثقافة كما أصبح فى استطاعته اكتسابها من الآخرين ونقلها لغيره.

وإذا كان الإنسان هو الكائن الحيوانى الوحيد ذو الثقافة فكيف يفسر سلوك بعض أنواع الحيوانات والذى يتسم بالفهم والإدراك والذكاء والذى يتشابه فى بعض النواحى من سلوك الإنسان. هناك على ما يبدو اتفاق عام بأن الحيوانات غير الإنسانية ليس لديها المقدرة اللازمة لخلق ونقل ثقافة لعدة أسباب منها:
١- أن الحيوانات لاتستطيع عمداً أن تعلم غيرها من الحيوانات أى طريقة سلوك أو تفكير أو إتجاه معين، أو على الأقل ليس هناك من الأدلة على أنها تفعل ذلك. هذا على الرغم من أن لدى بعضها القدرة على تعلم بعض أنواع السلوك كما يبدو ذلك بوضوح من السلوك المتعلم لبعض القردة والكلاب.

٢- لايمكن للحيوانات أن تقوم بعملية تجميع ونقل العناصر الثقافية وعلى ذلك فأن كل حيوان يبدأ من نفس النقطة التى بدأ منها الحيوان الآخر وليس من النقطة التى أنتهى إليها.

٣- الحيوانات ليس لديها القدرة على فهم معنى ومضمون الأشياء ولا القدرة على الكلام وليس لديها لغة ولا رموز متعارف عليها. كل هذه الأشياء ضرورية ومهمة جداً وبدونها يتعذر تكوين الثقافة ونقلها من جيل لآخر. هناك بعض النواحى الثقافية التى تنقل من حيوان لآخر غير أن الكثير منها يتم لاشعوريا عن طريق التقليد.

٤- لاتستطيع الحيوانات أن تحل المشاكل المعقدة كما يفعل الإنسان ولو أن بعضها كما يبدو فى بعض المواقف ـ أظهر قدرة على حل بعض المشاكل بطريقة لم تحدث من قبل لقد أستطاع الانسان بفضل جهازه العصبى المعقد وجهازه الصوتى ومخه الكبير المعقد أن يقوم بما لم يستطيع أن تقوم به الحيوانات من أفعال وبذا قد أستطاع أن يكون ثقافة بينما عجزت الحيوانات الأخرى عن تحقيق ذلك.

على أنه ليس معنى عدم وجود ثقافة للحيوانات أن ليس هناك حياة اجتماعية بينها هناك ولاشك حياة اجتماعية بين أجناس الحيوانات ولو أن الوصول إلى درجة كبيرة من التعاون لايوجد إلا بين الرتب العالية من الفقريات والحشرات التى تعيش جماعية ومعيشية من أمثلة ذلك الذئاب والكلاب والقردة والشمبانزى والجوريلا والطيور. وإلى جانب الحياة المجتمعية للإنسان هناك أيضاً لحياة المجتمعية للنحل والنمل والتى يشير سلوكها إلى وجود درجة عالية من التعاون وتبادل المنفعة. فالنمل منظم على أساس طائفى يوجد بينه تخصص وتقسيم العمل وتنظيم جماعى محدد ومع ذلك لايعنى هذا أن له ثقافة لأنه ليس له تراث اجتماعى يسعى لنقله من جيل لآخر. سلوك المل سلوك غريزى أى يحدده عوامل بيولوجية.

وليس أدل على أن سلوك الإنسان المتعلم يختلف عن سلوك النمل الغريزى من أنه إذا ما تصورنا إمكان انتزاع كل الإتجاهات والتقاليد من عقول الادميين وحطمنا كل الأشياء المادية التى أتوا بها فأننا نرجع إلى الوراء حيث كان الإنسان فى العصر الحجرى. إقامة الحياة لموجودة حالياً فى ظل ثقافة الإنسان الحالية سوف يتطلب ثانية مجهودات أجيال عديدة لا حصر لها، أما إذا ما محونا ما سوف نطلق عليه تجاوزاً ثقافة النمل بل إذا محونا النمل جمعية باستثناء أثنين فقط وأبقيناهما تحت ظروف بيئية مواتية لتكاثرها فأنهما سوف يكونا مجتمع النمل من جديد خلال فترة جيل واحد. كل نملة تخلق بمجموعة من الأستعدادت الغريزية التى توجهها لسلوك معين تحت كل ظرف من الظروف تقريباً. والخلاصة أنه ليس هناك من الأدلة على أن النحل والنمل وغيرها من لاحيوانات التى تعيش معيشة جماعية لها ثقافة كتلك التى يتصف بها الإنسان.

إذا كانت بعض الحيوانات الراقية والطيور والحشرات لها حياتها الاجتماعية فهل معنى هذا أن لها تراث اجتماعى وهل هذا التراث الاجتماعى ينتقل من حيوان لآخر؟ هناك ما يشير إلى وجود تقاليد بين الطيور فهى تهاجر مثلاً فى جماعات منظمة وفى أوقات معينة مثل هذا السلوك الجماعى يدل أن عملية نقل ثقافى قد تمت وأن الحيوان يستطيع أن يتعلم سلوكاً معيناً بالتقليد من حيوان آخر ليس هذا فقط بل قد يسترعى انتباه البعض ما تقوم به لحيوانات من أنواع السلوك التى تدل على قدرتها على إقتباس بعض العناصر الثقافية البسيطة التى تتضمنها ثقافة الإنسان فالكلاب تتعلم مثلاً كيف تحضر الجرائد اليومية من الباعة أو توجه قطيع الغنم حسب رغبة سيدها أو ترشد كفيف البصر إلى طريق أو تشم رائحة الصيد إذا ما أصابه الصياد بل أن أحد الكتاب ذهب إلى حد أنه يمكنها أن تقتبس القدرة على التمييز العنصرى فتتبح على الرجل الأسود إذا كانت كلاب رجل أبيض.

بعض الحيوانات أذن لديها القدرة على التعلم بل وعلى الاتصال ببعضها ولكن كل هذه الأشياء لاتعنى أن لها ثقافة ولا أن فى استطاعتها أن تكون ثقافة ــ رغم أن فى قدرتها أن تتعلم وتقتبس بعض الأشياء البسيطة سواء من غيرها من الحيوانات أو الإنسان ن طريق التقليد ــ لأنها لاتتمتع بالمميزات البيولوجية والتى أنفرد بها الإنسان عن سائر الحيوانات والسابق الإشارة إليها. بل أن بعض العلماء لا يروا أن الرتب العالية من الـ Spes لديها القدرة على تكوين ثقافة لعدم قدرتها على الكلام واستخدام الرموز والإشارات ونقل العناصر الثقافية لغيرها من الحيوانات باستثناء بعض الاتجاهات العامة والعواطف فى المواقف المعينة وفى غياب لغة الكلام يتم التعلم من الآخرين عن طريق التقليد فقط.

ولعلنا نستطيع أن نتصور ماذا يكون عليه حال الإنسان لو أنه تعلم من الإنسان الآخر عن طريق الملاحظة والتقليد فقط أى بدون الشرح والتعليق. بالتأكيد سوف تكون ثقافته بسيطة آلية، وبما أن القدرة على التقليد فى الحيوانات حتى الراقى منها والقريب الشبه بالإنسان محدودة جداً عنها. بالنسبة للإنسان فأنه يمكن تصور كيف أن الحوانات تصبح عاجزة عن أن تموت ثقافة حتى بمقارنتها بالإنسن الذى لايتكلم ولذى ليس له غة ولا إشارات متفق عليها. لذلك فأن الثقافة هى من مميزات المجتمعات الإنسانية والقريبة من الإنسانية.

وعلى الرغم مما تبديه بعض الحيوانات من ذكاء فى المواقف المعينة وما يظهر عليها من تكيف ذكى لحل مشاكل فردية، وعلى الرغم من أن بعضها تعيش حياة جماعية ولديها القدرة على تعلم بعض أنواع السلوك إلا أنه لايوجد سوى الإنسان (والكائنات الشبيه به والتى تأتى فى الترتيب التطورى قبله مباشرة) هى القادرة على نقل آرائها وأفكارها المعقدة عن طريق اللغة أو الإشارات لغيرها من الجماعات والقادرة على تكوين ثقافة.

وأخيراً إذا ما سلمنا بأن الثقافة بدأت تدريجياً مع الإنسان بحكم ما أمتاز به من صفات بيولوجية فأن السؤال الذى ربما قد يتبادر إلى الذهن هو متى كان الإنسان إنساناً؟ مع الأسف أنه لا من الصعب الإجابة على هذا السؤال نظراً لعدم توافر السجلات وأيضاً المعلومات التى يمكن الاستناد إليها فى هذا الشأن، أن ما يمكن أن يقال فقط. أن أجناس المملكة الحيوانية مرت فى أطوار عديدة إلى أن وصلت لى الإنسان والذى يعتبر أحد أجناس هذه المملكة وأرقاها.

وبترتيب أجناس المملكة الحيوانية يلاحظ أن هناك مجاميع من الحيوانات لتى تقترب أشكالها فى الشبه من الإنسان يلى ذلك فجوة كبيرة ثم ظهور الإنسان. هذه الفجوة الكبيرة تضيق تدريجياً كما توصل علماء الأنثربولوجيا إلى حقائق عن الأجناس التى تقع فى ترتيب ظهورها قبل الإنسان مع ذلك لازالت حلقة التطور غير كاملة وينقصها الكير من الحقائق ولما كان من المعتقد أن الثقافة نشأت منذ زمن بعيد مع الإنسان الذى لايزال غير معروف على وجه التحديد متى وجد فأن الثقافة بدورها لايزال غير معروف على وجه الدقة متى نشأت وإن كان هناك بعض الاستنتاجات غير المؤكدة علمياً والتى تقول أنها نشأت مع أول كائنات حيوانية تقترب شبهاً من الإنسان. من اللازم إذن عمل حصر لمخلفات الثقافة فى كافة العصور الماضية ثم السعى لمعرفة أى مرحلة من مراحل التطور البيولوجى بدأت الثقافة فى الظهور.

أهمية الجماعة الإنسانية فى أكتساب الثقافة

على الرغم من كل الإمكانيات البيولوجية السابق الإشارة إليها والتى ميزت الإنسان عن غيره من سار الحيوانات إلا أن الإنسان لم يكن رغم كل ذلك ليستطيع أن يكون له ثقافة لمجرد وجود هذه الإمكانيات البيولوجية وحدها وبدون أن يكون عضواً فى جماعة إنسانية منها يقتبس مختلف أنواع السلوك. ولعل هذا كان واضحاً

من تعريف Tyior والذى أتضح منه أنها ذلك الجزء المتعلم من السلوك وأنماطاً لسلوك الإنسانى المتعلمة والتى يقتبسها الفرد بحكم كونه عضواً فى المجتمع بمعنى أن الثقافة مكتسبة وليست موروثة كما قد يعتقد البعض. أن وجود اليدين لاتعنى إستطاعة الإنسان أن يمسك ما لم يتعلم من الأخرين كيف يفعل ذلك، ووجود الرجلين والعمود الفقرى والشكل القائم لايعنى أن يستطيع الوقوف ولا المشى على رجليه، ووجود الجهاز الصوتى والمنطقة الكلامية فى المخ لايعنى أن يستطيع الكلام، ووجود المخ الكبير والجهاز العصبى المعقد لايعنى أن يستطيع التفكير أو التنبؤ أو التذكر.

أن كل هذه الأنواع من السلوك يتطلب آداؤها من يعلم الطفل كيف يؤديها فالطفل العادى عند الولادة لايكون له ثقفة بل يكون مجرد كائن آدمى وليس إنساناً، لديه لقدرات البيولوجية الكامنة لكى يكون إنساناً غير أنه لايصبح كذلك إلا إذا نشأ فى جماعة إنسانية تولته بالرعاية والتنشئة الاجتماعية وعمته كيف يسلك وكيف يفكر فى المواقف المختفة، منها يقتبس لكثير من طرق السلوك والتفكير ولاتجاهات، ومنها يتعلم الكثير من المهارات والقدرات واللغة وباختصار عن طريق الحياة فى جماعة إنسانية يصبح إنساناً له شخصيته وله ثقافته.

الفصل الثانى

مكونات وتنظيم الثقافة

مكونات الثقافة

هناك إختلاف فى وجهات نظر العلماء بالنسبة لمكونات الثقافة فالبعض يعتقد أنها تتكون من عناصر معنوية فقط والبعض الآخر يعتقد أنها تتكون من عناصر معنوية وأخرى مادية وسواء كان الشئ معنوياً أو مادياً فأنه يجب أن ينظر إليه على أنه ناتج عن استخدام العقل البشرى فى حل المشاكل أو إشباع مختلف الرغبات والاحتياجات والأشياء معنوية كانت أو مادية لكل منها تاريخ سابق من التطور حتى وصلت إلى ما هى عليه فى الوقت الحاضر لننظر تفصيلاً إلى مكونات الثقافة لأن التعرف على هذه المكونات يعتبر أمراً هاماً للتعرف على خواص الثقافة ووظائفها بل والعمليات الثقافية التى تتم فى المجتمع.

الماديات الثقافية:

يقول ساذرلاند وزملائه أن هناك تأكيد واضح من جانب الكثيرين من علماء الأنثربولوجى على أن الثقافة هى السلوك المتعلم وأنماط السلوك المتعلمة المشتركة والتى تتناقل عن طريق الاتصال من أفراد لآخرين، لكن ماذا عن الأشياء الطبيعية المادية التى يصنعها الإنسان، أو التى تجاهها يسلك طرقاً معينة، أو التى يكسبها معنى معين؟ هل الأشياء المادية مثل الآلات وأيضاً المعدات والأدوات والملابس والمنتجات الزراعية والصناعية على إختلاف أنواعها والشوارع والمساكن والمبانى تعتبر جزءاً من مكونات الثقافة؟ وهل الجبال والأنهار التى يقدسها الإنسان أو يسلك تجاهها سلوكاً معيناً تعتبر أيضاً جزءاً من مكونت الثقافة؟

لايزال هناك فى الحقيقة إنقسام فى الرأى بالنسبة لهذه الأشياء فالبعض ينظر إليها على أنها جزء من مكونات الثقافة والبعض الآخر لايرى أن هذه الماديات فى حد ذاتها جزءاً من الثقافة وأنما الذى يعتبر من الثقافة فيما يتعلق بهذه الأشياء المادية هو المعارف والأفار وطرق الأداء (التكنولوجى) التى أستخدمت فى صنعها أو التى تستخدم فى استعمالاتها والشعور تجاهها وبمعنى آخر مجموع الطرق من السلوك وأنماط السلوك المتعلقة بها وليست الديات فى حد ذاتها. واستناداً إلى الرأى الأخير لاتعتبر الأشياء المادية فى حد ذاتها جزءاً من الثقافة رغم أنها جزءاً من التراث الثقافى الذى ينتقل من جيل لآخر.

ومن هنا كما يعتقد ساذركلاند أن من الأهمية غيجاد مصطلح يعبر عن هذه الأشياء المادية التى تصاحب الثقافة وأن كانت ليست جزءاً منها. وقد تم التعارف على تسميتها بالأشياء الثقافية (Culture Objects, or Artifacts) هذه الأشياء الثقافية تظهر فى الثقافة إما مصاحبة لتكنولوجى معين كفن بناء المساكن أو الكبارى .. الخ أو مصاحبة لمجموعة من العادت والتقاليد التى تتعلق باستخدامات الأشياء أو بأهميتها. على أن أعتبار أى شئ مادى على أنه شئ ثقافى أو عدم أعتباره كذلك مسألة تقريبية إلى الآن وبمعنى آخر ليست كل الأشياء المماية تعتبر أشياء ثقافية.

الأشياء المادية الثقافية إذن هى فقط تلك الأشياء ذات الصلة بسلوك أو نمط من أنماط السلوك لثقافى أى التى تدخل الإنسان بمعارفه وآرائه وأفكاره واتجاهاته وبعمله وفنه وغير ذلك فى صنعها وتحويرها أو تشكيها أو فى استخدامها، أن قيمتها وأهميتها وفائدتها فى أذهان الناس الذين أوجدوها ويستخدموها على النحو التى من أجلها وجدت وقد لا تكون لها أى قيمة ولامعنى ولا فائدة فى نظر أفراد الآخرين. لننظر مثلاً إلى دبلة الخطوبة والتى يستخدمها بعض الناس فى مجتمعات معينة كرمز للأرتباط والعهد بين فردين من جنسين مختلفين على الزواج، هذا الخاتم لو وجد فى ثقافة أخرى لاتستخدمه ربما لايكون له أى معنى ولاقيمة على الإطلاق بل

ربما ينظر الناس إليه على أنه مجرد قطعة من معدن على شكل حلقة لأن معناه الثقافى بعيداً عن أذهانهم وهذا المعنى الثقافى هو الذى يجعل من هذه الحلقة شئ ثقافى له قيمة وأهمية. من كل ما تقدم يبدو واضحاً أن ليس كل شئ مادى فى المجتمع يعتبر شئ ثقافى.

لقد أكد هارى جرنسون أيضاً أن الأشياء المادية فى حد ذاتها لاتعتبر بحال جزء من مكونات الثقافة، فالثقافة لاتشمل فى رأيه سوى المعنويات فى حد ذاتها ممثلة فى المعارف والأفكار وأيضاً الآراء والإتجاهات والفنون والأداب والتكنولوجى وغيرها، هذه المعنويات فى رأيه تظهر سواء فى السلوك أو نتائج السلوك، لكن لا السلوك نفسه ولا نتائجه المادية الملموسة تعتبر جزءاً من الثقافة، فالسلوك فى حد ذاته ليس جزءاً من الثقافة لكنه ثقافى كما هو كيماوى وفسيولوجى ووراثى والنتائج المادية للسلوك أيضاً ليست جزء من الثقافة لكنها أشياء ثقافية. الذى أعطى لها صفة الثقافة هى المعارف والأفكار والتكنولوجى وغير ذلك من المعنويات التى دخلت فى صنعها أو إستعمالها.

ولو اعتبرت الأشياء المادية على أنها جزء من الثقافة لمجرد التدخل فى صنعها أو تشكيلها أو تحويرها لكان من الممكن إذن - أعتبار الإنسان أيضاً على أنه جزء من الثقافة لأنه كالأشياء المادية يتدخل فى تشكيلة وهذا أمر غير جاز. على أن جونسون لايرى ضرراً فى التحدث عن الثقافة على أنها تتكون من اشياء ثقافية artifacts ومن النباتات والحيوانات المستأنسة ولكن بشرط أن يكون معلوماً أنه لايقصد بهذه الأشياء سوى ما تضمنته من معنويات أى معارف وأفكار وفنون وتكنولوجى .. الخ، وفى هذه الحالة يصبح الحديث عن المعنويات كما لو كانت أشياء مادية، ومن ثم لابد من الإحتراس من الوقوع فى خطأ من جراء هذ الغموض.

لقد أستطاع الإنسان أن يصنع اكثير من الأشياء المادية الثقافية والتى أصبح يتمتع بها ويتفاخر ويتباهى بأنتاجها طالعمارات والفيلات الفاخرة والشوارع المرصوفة والمصانع والسيارات والأدوات، المنزلية المختلفة والأجهزة الكهربائية والألكترونية والملابس والمأكلات على إختلاف أنواعها وأصنافها كل هذه وفيرها من سلع مادية ثقافية لم ينتجها الإنسان بالشكل التى هى عليه حالياً إلا بعد أن تجمع لديه الكثير من المعارف والخبرات والكفاءات والقدرات كلما أستطاع الإنسان أن ينتج المزيد من هذه الأشياء ويطورها ويدخل عليها تعديلات وتحسينات كثيرة وكلما أستطاع أن يستغل البيئة الطبيعية وما فيها من مواد خام أكثر وأكثر فى إنتاج مزيد من السلع الثقافية.

والماديات الثقافية تختلف من مجتمع لآخر، فالشخص العادى يستطيع بالملاحظة أن يرى أن الكثير من الماديات لثقافية فى مجتمعه تختلف عن نظيراتها فى المجتمعات الأخرى. فنظرة بسيطة إلى المنتجات الصناعية فى غحدى المحلات التجارية الكبيرة أو إلى المنتجات الصناعية فى إحدى المحلات التجارية الكبيرة أو إلى الشوارع وما فيها من أشكال مختلفة من السيارات والبضائع المستوردة المعروضة على الأرصفة لدى الباعة المتجولون أو إلى السياح بملابسهم الوطنية كل هذه وغيرها كفيلة بأن توضح الأشياء المادية الثقافية تختلف من مجتمع لآخر.

والثقافة الفنية هى تلك التى يتضمن تراثها الثقافى الكثير من المعنويات الثقافية والأشياء المادية والثقافية ومن ثم فأن المجتمعات تسعى إلى رفع مستوى حياة السان فيها عن طريق التقدم العلمى والتكنولوجى وعن طريق استخدام العلم والتكنولوجى فى خدمة المجتمع أى فى إنتاج السلع وتوفير الخدمات التى تشبع رغبات وتقابل إحتياجات الناس وتساعد فى حل ما يعترضهم من مشاكل وتوفر لهم السعادة والفاهية. وعلماء المجتمع وأن كانوا يهتمون بالأشياء الثقافية المادية والمعارف المتعلقة بها إلا أن إهتمامهم ينصب أساسياً على السلوك الاجتماعى

وأنماط هذا السلوك والتى يتكون منها البنيان الاجتماعى للمجتمع، ومن الواضح أن هذا السلوك يتأثر بما لدى الإنسان من معارف وأشياء مادية سواء تلك التى صنعها أو كيفها لاستعمالاته.

المعنويات الثقافية

تضم ثقافة الناس مجموعة كبيرة من المعارف عن العالم الطبيعى والاجتماعى لذى يعيش فيه فأى مجتمع مهما كان بسيطاً لابد وأن يعرف أفراده مجموعة كبيرة من المعارف لكى يستطيعوا البقاء والاستمرار فى الحياة. وليست كل المعارف فى المجتمع مجرد معارف دون ما فائدة منها وإنما غالبيتها معارف لغرض استخدامها بطريقة عملية من أجل البقاء والحياة. من هذه المعارف على سبيل المثال ما يتعلق بكيفية الحصول على الغذاء كيفية الوقاية من الظروف القاسية كالعواصف والأمطار والرياح والحرارة لشديدة، كيفية بناء المساكن، كيفية تربية وتنشئة الأطفال، كيفية إتقاء شر الحيوانات المفترسة والأعداء من الناس، كيفية الوقاية من الأمراض، كيفية العمل وكسب العيش وقت الفراغ والترويح كيفية الحماية الملكية والعبادة وإقامة الأسرة إلى غير ذلك من المعارف العديدة التى تتصل بمختلف نواحى الحياة والتى تنقل من جيل لآخر.

وفى المجتمعات المتقدمة هناك بالطبع كمية أكبر من المعارف العلمية والتكنولوجية لمتقدمة والمعقدة وصلت إلى الكثرة بحيث لا يأمل أى فرد فى أن يعرف سوى جزء صغير منها وإلى جانب المعارف عن العالم الطبيعى والاجتماعى فأن الثقافة لكل مجتمع تتضمن الكثير من الآراء والأفكار والاتجاهات الثقافية عن العالم وهى بذلك تعتبر جزء مهم من أيدلوجية كل مجتمع.

ونحن نتعلم الثقافة من الأخرين كما نتعلمها من الكتب وغيرها من وسائل الإتصال المختلفة. وثقافة الناس يعبر عنها سلوكهم وأنماط سلوكهم المتعلمة بيد أن

هذا السلوك وأنماطه فى حد ذاتها ليست - كما سبق القول - جزءاً من لثقافة. أنها مجرد الوسيلة التى بها يعبر الناس عن ما فى عقولهم من أفكار وآراء وأيضاً إتجاهات وما يشعرون به إزاء بعض ما يدور فى عالمهم الاجتماعى من أوجه نشاط وما يوجد فى عالمهم الطبيعى من بعض الأشياء المادية والمعنويات الثقافية ينقلها الناس بعضهم لبعض أما بطريقة مباشرة أى بالإتصال المباشر أى من خلال العلاقات الإنسانية التى تحدث بين فردين أو أكثر أو من خلال وسائل الإتصال المختلفة كالكتب ووسائل الإعلام المختلفة.

ولو أن المعنويات الثقافية غير ملموسة إلا أنها على جانب كبير جداً من الأهمية أحياناً ما ينظر بعض الناس بإعجاب شديد وفخر زائد إلى بعض الأشياء الثقافية المادية Culture Objects, or artifacts لأنها متجسدة أمامهم السيارات الفاخرة - الطائرات النفاثة - العمارات السكنية الشاهقة المنتجات الصناعية الفاخرة - الآلات والمعدات الأتوماتيكية الأتوماتيكية المعقدة الآلات الحاسبة الألكترونية وغيرها من الأشياء الثقافية العصرية التى تدهش الناس. قليل منهم من يفكر أنه ما كان فى الإمكان إيجاد مثل هذه الأشياء بدون المعارف والأفكار العلمية الأساليب التكنولوجية المتقدمة أى بدون المعنويات الثقافية.

والوقع أنه على قدر ما تقدم التراث الثقافى المعنوى يتوقف مقدار ونوع ومستوى الأشياء المادية والثقافية أى التراث الثقافى المادى فلولا تقدم المعارف الكيماوية والرياضية والهندسية والطبية لما أمكن على سبيل المثال تحويل رمال الصحارى إلى عدسات بصرية طبية ولولا تقدم المعارف الأرضية والجيولوجية والكيماوية والهندسة وغيرها لما أمكن إستخراج البترول والفحم والحديد من باطن الأرض وإنتاج آلاف من السلع الثقافية الأخرى.

والثقافة المعنوية رغم أنها غير ملموسة فأن آثارها بعيدة المدى على حياة الناس فى المجتمع سواء أكانت تظهر مصاحبة لسلع مادية ثقافية أو لأى سلوك ثقافى آخر وعلى سبيل المثال لو أن الثقافة تحرم أكل لحم الخنزير وأن شخصاً متديناً تناول وجبة من الطعام تحتوى على هذا النوع من اللحوم دون أن يعرف ذلك، ولو فرض وعلم بعد أكله مباشرة حقيقة هذا الأمر ربما تضطرب معدته ويسوء هضمه ويسترجع طعامه. كل ذلك من جراء معرفته بتناول شئ محرم ثقافيا. ومن الأمثلة الأخرى أن الإنسان أحياناً ما ينتابه الخجل الشديد وهى ردود أفعال فسيولوجية غير إرادية عندما يوضع فى موقف يسلك فيه سلوكاً يتعارض مع ما عرفته الثقافة على أنه سلوك مقبول أو لائق وسوف نحاول فى هذا المجال شرح بعض أنواع السلوك الثقافى وأنماطه بأعتبارها الطرق التى بها يعبر الناس عن ما تتضمنه ثقافتهم من معنويات أى من معارف وآراء وإتجاهات وآداب وفنون.. الخ.

الغالبية العظمى من السلوك الإنسانى سلوك متعلم (أى سلوك ثقافى) والقليل جداً سلوك غير متعلم. والسلوك المتعلم هو كل م أقتبسه الفرد من الآخرين سواء أكان هذا السلوك مقبولاً أم غير مقبول. فطريقة الأكل والشرب وإرتداء الملابس والمشى والكلام وتحية الأخرين وإلقاء النكت.. الخ كل هذه سلوكاً متعلماً، ليس هذا فقط بل طريقة الشعور فى المواقف المعينة مثل الشعور بالغضب أو بالفرح أو بالحزن أو الألم أو بالأسى كل هذه أيضاً يعبر عنها بطرق مختلفة وفقاً لما تعلمه من الآخرين، وطريقة التفكير أيضاً متعلمة، فكلما يتعلم الإنسان كيف يفكر فى حل مسائل الرياضة فأنه يتعلم كيف يقلق ويخاف على صحته من الأمراض، ويتعلم كيف يفكر فى تجنب نفسه المشاكل التى قد تهدد مستقبله فى عمله أو مهنته ويفكر فى كيف يتجنب الخاطر أو كيف يكون أمنا من شئ يخاف منه إلى غير ذلك وكثيراً ما لا يعرف أنه يتعلم أشياء كثيرة كحب بعض الأشياء وكره البعض الآخر/ واستخدام الألفاظ المهذبة أو الألفاظ البذيئة، والقلق والرضى والطموح وغيرها أيضاً

أمثلة مما نتعلم من الآخرين. وباختصار نحن نتعلم طرق السلوك وطرق التفكير وطرق الشعور فى الموقف المختلفة.

على أن ما يتعلمه الفرد إما أن يتم بطريقة شعورية أو بطريقة لاشعورية من خلال ما يقوم به من نشاط على مدى فترة الحياة وكثيراً ما أشار علماء النفس وغيرهم من العلماء الاجتماعيون إلى أهمية المؤثرات التى تؤثر فى الإنسان بطريقة لاشعورية. هذه المؤثرات التى تؤثر فى الإنسان بطريقة لاشعورية. هذه المؤثرات التى تؤثر فى الإنسان بطريقة لاشعورية. هذه المثرات يصعب تتبع أصولها إلا بواسطة أحد علماء التحليل النفسى المتميزين جداً. وكثيرٌ ما تكون طريقة سلوك الفرد وعلاقته بغيره من الأفراد فى موقف معين ترجع إلى خبرة سابقة فى أعماق نفسه عن شئ أو أشياء حدثت منذ عشرين أو ثلاثين عاماً مضت. وتتم الكثير من التعاليم العادية للناس بطريقة لاشعورية كأن يلاحظ أحد الأفراد بلا قصد شخصاً يؤدى عملاً بطريقة معينة، فيما بعد عندما يوجد فى موقف مشابه يتطلب آداء نفس العمل يجد نفسه لاشعورياً يقوم به بنفس الطريقة التى لاحظها من قبل وهكذا بلنسبة للتفكير أو الشعور فى المواقف المختلفة فالكثير منها يتعلم من الآخرين بطريقة لاشعورية.

ولعل من المعروف أن بعض أنواع السلوك واضح (overt) والبعض الآخر غير واضح (Covert) فيمكن رؤية الناس وهى تؤدى عملها فى المزارع والمصانع والمحلات التجارية، وأيضاً وهى تسير فى الشوارع أو تشترى السلع من الباعة من الأسواق العامة وغير ذلك لكن لبس كل سلوك يمكن أن يكون بهذه الدرجة من الوضوح، فمن الصعب مثلاً أن نرى طريقة تفكير الناس أو ما يفكرون فيه، من الصعب مثلاً أن نرى طريقة تفكير الناس أو ما يفكرون فيه، من الصعب أن نرى حقدهم أو حبهم أو مخاوفهم، وبمعنى آخر يمكن القول أن بعض أنواع السلوك يمكن

رؤيتها بالعين المجردة والبعض الآخر يصعب رؤيته وأن وجدت بعض الأدلة على حدوثه.

والآن نأتى إلى أنماط (Patteras) السلوك المتعلم أى الأنماط السلوكية الثقافية. ما هو المقصود بهذه الأنماط؟ يقول جون كوبر أن طريقة الحياة فى المجتمع تتضمن عدداً لاحصر له من أنواع السلوك المختلفة والتى تمثل ردود الأفعال العادية والمتوقعة لأفراد المجتمع فى المواقف المعينة. ورغماً عن وجود الكثير جداً من الاختلافات لبسيطة فى ردود أفعال مختلف الأفراد أو حتى فى ردود أفعال نفس الأفراد فى الأوقات المختلفة فأن معظم الناس فى المجتمع تستجيب فى مواقف معينة بطرق متشابهة تقريباً مثل هذا التوافق أو التشابه فى السلوك والآراء يكون نمطاً ثقافياً Culture Pattern ويمكن النظر إلى الثقافة فى جملتها على أنها جمع منظم من هذه الأنماط.

فالأنماط الثقافية إذن هى تلك الأنماط من السلوك المتعلم التى تعارف لناس فى المجتمع على اتباعها، فالأفراد فى المجتمع يجدون أن عليهم إتباع الأنماط السائدة فى مجتمعهم وأن لم تكن جميعها فعلى الأقل ما يعتبر منها أساسياً على أن المجتمع عادة ما يتخذ أساليب وطرق مختلفة لحمل أفراده على إتباع أنماطه السلوكية خاصة الأساسى منها. هذا الإجبار يلاحظ بوضوح من خلال عملية التنشئة الاجتماعية للصغار ومن خلال عملية تربية وتوجيه الشباب وأن كان لايبدو بنفس الدرجة من الوضوح بالنسبة للكبار لأن الكبار يحاولون من أنفسهم أن يتكيفوا مع الأنماط السلوكية المتعارف عليها خوفاً من الفقر أو العقاب فيما لو خرجوا عنها أو رغبة فى الاحتفاظ بالمكانة الاجتماعية فى نظر الآخرين أو غير ذلك من المميزات.

وقد كن من نتيجة ضغط المجتمع على أفراده وجماعاته لاتباع أنماطه السلوكية أن بدأ بعض الناس يعتقدون أن ليس لديهم سوى فرص ضئيلة فى إختيار

السلوك الذى يرغبون إتباعه وأنهم مجبرون إلى حد ما لقبول ما يوجد فى مجتمعهم من تقاليد وعادات وقد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة لبعض النواحى مثـل اللغـة والديـن غير أنه بالنسبة لنواحى أخرى كثيرة ليس مـا يحـد مـن حريـة الفـرد فـى أختيـار مـا يروق له أتباعه وإن كن الاختيار محدداً إلى حد كبير بما هو موجود فى ثقافته.

والخلاصة أن الفرد فى المجتمع سوف يكون لديه الحرية الكاملـة فـى إتبـاع السلوك الذى يروق له فى نواحى معينـة، وحريـة غير كاملـة أى مقيدة فـى نواحـى أخرى، وحتمية (أى لا حرية) إتباع سلوك معين فى نواحى معينة، ونتيجة لذلك فـأن الأفراد فى المجتمع لايسلكون سلوكا متجانساً تماماً فـى المواقـف المختلفـة وإنمـا قـد يكون متشابهاً إلى حد كبير فـى بعـض المواقـف ومتشـابهاً إلـى حـد مـا فـى مواقـف أخرى، ومختلفاً فى كثير من المواقف، ويرجع ذلك التفاوت فـى طـرق السـلوك إلـى إختلاف قيم الناس تجاه أنماط السلوك المختلفة فالبعض لايرى أنه من المحتم إتباعها والبعض يرى أن إتباعها مهم إلى حد كبير والبعض يـرى أن لاضـرورة بـالمرة ولا مبرر على الإطلاق للتقيد بأتباعها.

وبين طرفى النقيض أن بين الحتمية والحرية المطلقة توجد درجات متفاوتـة من الأهمية والتى بناء عليها أما أن يتشابه السلوك إلى حد كبير أو يختلـف إلـى حـد كبير أو يقع بين هذا وذلك. ويمكن بسهولة سواء بالملاحظـة العاديـة أو عـن طريـق البحث العلمى أن نقف على مدى تشابهه أو مدى إختـلاف النـاس فـى المجتمـع مـن حيث مدى إتباعهم لأنواع السلوك المختلفة. وفيما يلى وصفـاً لبعض أنـواع السـلوك وأنماط السلوك الثقافى فى المجتمع ومنها الأفعـال غير المحـددة والتقـاليد والعـادات الشعبية والعرف والقوانين والمؤسسات.

السلوك الاختيارى (الأفعال غير المحددة):

هناك أنواع عديدة جداً من الأفعال acts التى يستطيع الفرد أن يقوم بها دون أن يشعر بأى حرج من جراء إختلاف طريقة أدائه لها عن الطريقة التى يتبعها غيره من الأفراد. فعلى سبيل المثال أى فرد مخير تماماً فى أن يتناول الشاى بلبن أو بدون لبن، أو يشرب القهوة بالسكر أو بدون سكر، أو يقرأ الصحف قبل الإفطار أو بعده أو لا يقرأها على الإطلاق أو يسير على الجانب الأيمن أو الأيسر من الطريق أو ينام قليلا بعد الغذء أو لاينام أو يتناول وجبة عشاء خفيفة أو كبيرة إلى غير ذلك من الأفعال العديدة التى يقوم بها حسب رغبته وفقاً لمزاجه لشخصى لادخل للأخرين فيما يفعل فهى أنواع من السلوك لم يضع المجتمع لها تعريف محدد لما يجب أو ما لايجب أن يكون عليه آداؤها، كما أنه لايفرضها على الناس بل ترك للأفراد الحرية الكاملة ليفعلوا ما يشاءون. ورغم حرية التفضيل فهى أفعال عادة مقبولة إجتماعياً.

ومن المفروض أن آداء هذه الأفعال لايتعارض بأى شكل من الأشكال مع حرية الأفراد الأخرين فى المجتمع ولا يتعارض مع رفاهية المجتمع ولا مع ما تعارف عليه من تقاليد وعادات جمعية ولا قوانين وإلا لكان المجتمع تدخل سواء بوسائله الرسمية (القوانين) أو غير الرسمية (التقاليد والعادات الشعبية والعرف) فيما يسمى بالسلوك الحر الاختيارى حتى لايتعارض هذا السلوك ورفاهية المجتمع وأمنه واستقراره.

التقاليد والعادات الشعبية Folkways:

هى الأنماط السلوكية الثقافية التى تعارف الناس على إتباعها والتى توضح الطريقة المقبولة واللائقة فى آداء الأشياء. والعادات الشعبية تتضمن مجموعة كبيرة من طرق السلوك والتفكير والشعور المتبعة فى المأكل والملبس وفى نظام العمل

وفى تحية الأخرين وفى الترويح والترفيه وتربية الأطفال وفى التعاون فى حالة الأزمات والكوارث وفى الأحتفال بكافة المناسبات الاجتماعية وفى الأفراح والمآتم وفى البيع والشراء وفى صناعة مختلف السلع وآداء مختلف الخدمات وبعض التقاليد والعادات الشعبية تمتد جذورها إلى الماضى البعيد بحيث تكاد تكون أشياء أصيلة من مكونات ثقافة الناس وليست أشياء مصطنعة وأن كان البعض الآخر ليست ذات عمق بعيد فى التراث الاجتماعى كغيرها.

ولقد نشأت هذه الأنواع من السلوك تدريجياً وبمحض الصدفة ونتيجة للخبرة وتنتقل عادة دون تفكير أو قصد من جيل إلى آخر فالتقاليد والعادات الشعبية نادراً ما تكون نتيجة عمل مقصود مخطط له مقدماً بطريقة شعورية حتى ولو كانت تظهر كذلك للأجيال التى تتبعها وربما قدراً ضئيلاً منها يتم شعورياً وبعد تفكير وتخطيط لكن الغالبية العظمى يتعاملون مع بعضهم البعض وينشأ نتيجة لعلاقاتهم المتبادلة الكثيرة من أوجه النشاط والتى خلالها يتبعون لاشعورياً طرقاً من السلوك تبدو لهم وكأنها مناسبة فى المواقف المعينة أو تبدو وكأنها حلول سهلة لما قد يواجهونه من مشاكل ويتناقل الناس هذه الأنواع من السلوك وبعد فترة طويلة من الزمن تصبح ذلك التراث الاجتماعى الذى يعتزون به ويحرصون على أتباعه.

أول من استخدم المصطلح folkways هو عالم المجتمع William G.Summer فى ١٩٠٦ وكان يقصد به مجموعة التقاليد والعادات لجماعية أى الأنماط السلوكية الجماعية التى تعارف الناس على إتباعها بغض النظر عن مدى وجوب أو حتمية أتباعها ولقد سيز Sumner بين الـ flokway التى تعتبر مهمة أساسية لرفاهية الجماعة ويتحتم إتباعها وبين تلك التى لايتحتم بالضرورة بل يستحسن إتباعها. وأطلق على الأولى اسم العرف mores وعلى الثانية Folkway وبمعنى آخر فأنه كان يرى أن mores هو ذلك الجزء الملزم أو الإجبارى من folkway على أن الاستخدامات لحديثة للفظين تميل إلى الفصل بينهما وعدم تداخلها

وقصر معنى المصطلح flokways على التقاليد والعادات الجماعية غير الملزمة أى التى لايتحتم إتباعها، وقصر معنى المصطلح mores على التقاليد والعادات الجمعية الملزمة والإجبارية أى التى يتحتم إتباعها.

ويود الكثيرون الوقوف على أصل التقاليد والعادات الشعبية وكيف نشأت، لما فى ذلك أحياناً من طرافة غير أن أصولها كما يقول Sumner تائهة فى الغموض الذى يكتنف نشأة وتطور الثقافة بأجمعها. فعلى سبيل المثال من الذى بدأ عادة السلام باليدين لتحية صديق أو تحية بالإشارة باليد من بعيد أو الربت على الكتف أو من الذى بدأ عادة لتصفيق باليدين، ومن الذى بدأ عادة لبس بدلة رسمية لحضور حفلة عشاء أو لبس ملابس سوداء للتعبير عن الحزن وبيضاء للتعبير عن الفرح؟ من الذى بدأ نظام الموازين والمكاييل والمقاييس والنقود؟ كل هذه الأنواع من السلوك وغيرها تعتبر ملزمات مريحة ربما نشأت بطريق الصدفة.

يقول ساذرلاند وزميله أنه فى بعض القبائل يرتدى الأفراد فى حفلات الرقص ملابس (جونيلات) مصنوعة من القش بطريقة معينة ويتسائل من الذى بدأ هل رجل أو أمرأة جلس يفكر كيف يزيد من سعادة عشيرته وانتهى إلى تصميم هذا الزى؟ فى الغالب لم يحدث ذلك وكل ما حدث هو أن أحداً بدت له هذه الفكرة بطريق الصدفة فصنع (جونيلا) على هذا النحو فأعجب بها الآخرون وقلدوه فى ذلك فأصبح بذلك تقليداً وعادة شعبية من الذى بدأ لبس الشورت عند المباراة فى كرة التنس؟ لا احد يعرف على وجه الدقة، ربما شدة الحرارة فى أحد الأيام وشجاعة مفاجئة غير عادية هى التى دفعت أحد الانجليز غير المعروفين ليظهر فى مباراة لتنس مرتدياً هذا الزى فقلده الآخرون فأصبح بذلك تقليداً أو عادة شعبية.

وفى المجتمع المصرى توجد الكثير من التقاليد والعادات الشعبية التى يصعب الوقوف بدقة على أصولها، من الذى بدأ الاحتفالات الشعبية فى المواسم

المختلفة وشراء الحلوى وتناول أنواع معينة من الطعمة فى هذه المناسبات؟ ومن الذى بدأ عادة إقامة المأتم ثلاث ليالى أو ليلة واحدة فى بعض الأماكن فى حالة الوفاة؟ من الذى بدأ عادة تقبيل الرجال بعضهم لبعض أو النساء بعضهن لبعض كطريقة للتحية والتعبير عن الحب والتقدير؟ كل هذه وغيرها من التقاليد الشعبية يتبعها الأفراد على الرغم من عدم معرفتهم أسباب ذلك، ولا يستطيع أحد أن يفسر أسباب شعور الفرد بالرغبة الملحة أحياناً لتناول اطعمة معينة فى المواسم والأعياد مع انها موجودة فى كل يوم ولم يفكر فى الأيام السابقة فى تناولها.

لا يستطيع أحد أن يفسر أسباب شعوره بالخجل عندما يذهب للعزاء بملابس زاهية الألوان بدلاً من ملابس داكنة أو سوداء، ليس هناك فى الحقيقة تفسير منطقى لهذه الأنواع وغيرها من السلوك ـ سوى ان الانسان يعتقد أنها الطرق الملائمة والمناسبة والمتوقعة فى المواقف المعينة والذى تعارف الناس على اتباعها رغم ان هذا السلوك المتشابه ليس اجبارياً، والأفراد لا يرغبون فى أن يونوا شاذين فى سلوكهم عن بقية الأفراد الاخرين فى مجتمعهم بل على النقيض يشعرون براحة نفسية باتباعهم المتعارف عليه من طرق السلوك ولذا فغنه على الرغم من أن التقاليد والعادات الشعبية هى أنواع من السلوك غير الاجبارى أى الاختيارى إلا أن الأفراد فى المجتمع عادة ما يشعرون بالرضى والامتنان من اتباعهم لها وهذا هو السر فى تمسك الناس بها.

على ان التقاليد والعادات الشعبية كأنماط ثقافية ليست ثابتة وإنما يطرأ عليها تغيرات من آن لآخر، لقد كانت العادات والتقاليد الشعبية إلى عهد قريب تقضى أن يقف الرجال والشباب ويتركوا مقاعدهم للنساء الواقفات فى المركبات العامة غير انهم حالياً لا يفعلون ذلك فى معظم الأحيان بسبب تغير الاتجاهات نحو النساء إذ أصبح الرجال ينظرون إلى النساء على انهم أما عاملات فعليهن أن يتحملن متاعب

الحياة مثل ما يتحمل الرجال ما دمن قد قبلن الخروج للعمل وأما ربات بيوت وهن لسن متعبات بحكم أنهن لا يعملن فلا ضير من وقوفهن.

حالياً قلة من الرجال هم الذين يقفون لمرأة حامل أو تصطحب أطفالها أو شيخ عجوز أو شخص مريض أو يبدو متعباً ومنهكاً، أما الشباب من الذكور والإناث فأنهم غالباً لا يشعرون عادة بأن من واجبهم الوقوف لأحد بل أنه حتى إذا تصادف وكان لدى أحدهم شعور بأن من واجبه الوقوف لترك مقعده لرجل كبير أو امرأة فإنه يخاف أن يفعل ذلك حتى لا يكون موضع سخرية وتعليق ونقد من زملائه من الشبان والشابات.

وكما أن بعضاً من التقاليد والعادات الشعبية تأخذ طريقها فى الزوال فأن البعض ياخذ طريقه فى الظهور، إلى عهد قريب كان ينظر إلى تدخين النساء على أنه عمل غير أخلاقى وغير مقبول بالمرة. حالياً ينظر إليه البعض على أنه فعل اختيارى مقبول ولا عيب فيه وإن كان يجب أن لا يحدث فى الأماكن العامة والبعض الآخر يرى أنه فعل غير لائق وإن كان يمكن التسامح فى حدوثه فى أى مكان وإلى عهد ليس ببعيد كانت الأمهات لا تقر استعمال احمر الشفاة ولا طلاء الأظافر ولا موضات تسريحات الشعر وكلها كما هو معروف أمور مقبولة حالياً إلى حد كبير.

والتقاليد والعادات الشعبية تختلف من مجتمع لآخر فكل مجتمع له طرق سلوكية وتفكيره وشعوره إلىتعارف أفراده وجماعاته عليها والتى تعتبر وفقاً للقيم السائدة بثقافته من أعز ما الديه من تراث اجتماعى، والعادات الشعبية فى أى مجتمع ذات صلة بقيمة الثقافية فإن المجتمع يعمل على المحافظة عليها واتباعها مهما كانت تبدو غريبة أو شاذة أو غير منطقية فى نظر الفراد فى المجتمعات الأخرى، فالإنجليز مثلا لا يجدون أى غرابة فى قيادة السيارات ولا القيادة فى الجانب الأيسر

من الطريق بينما فى مجتمعات أخرى يبدو ذلك السلوك غريباً ولا يعتبر بحال سلوكاً مريحاً.

فى بعض المجتمعات لا يجد الأفراد عيباً أو ضرراً من شد اليدين وهوها بقوة عند التحية أو التقبيل زيادة فى التعبير عن الترحيب بينما لا يشعر الأمريكيون مثلا أن هناك حتى ضرورة للتحية باليدين عند اللقاء فى بعض الأحيان ويكتفون بالإشارة عن طريق هز الرأس أو بعض الكلمات للتعبير عن التحية، وباختصار يمكن القول أن التقاليد والعادات الشعبية بأى مجتمع أن هى إلا ذلك الجزء من مجموعة العادات الجماعية المتعارف عليها والتى تبدو فى نظر الناس وكأنها الطريقة المريحة والصحيحة والمقبولة والسليمة لفعل الأشياء ومن ثم فهى الشئ المتوقع من كل فرد فى المجتمع والواجب اتباعها.

ولا يفرض المجتمع تقاليده وعاداته الشعبية على أفراده بحكم القانون بل عن طريق الضبط الاجتماعى ممثلاً فى اتجاهات الناس وسلوكهم إزاء بعضهم البعض فالتقدير والثناء والقبول والاحترام هو المكافئة لمن يتبع التقاليد والعادات الشعبية السائدة والازدراء وايضاً الاستهتزاء والاحتقار وعدم القبول هو عقاب من يخالفها. فالطفل الذى يتبع التقاليد والعادات الشعبية فيحى الضيوف ويسلم عليهم يكافئ بابتسامة وكلمات تعليق ومديح أما إذا ابتعد وتجهم أو أقترف سلوكاً غير لائق فإنه يعاقب بكلمات تانيب من أبيه أو أمه وإذا سلك الشاب أو الرجل السلوك الذى يتفق مع التقاليد والعادات الشعبية فإنه يلقى احتراماً وتقديراً ويحتل مكانة عالية فى نظر الآخرين أما إذا تصرف تصرفاً لا يتفق مع التقاليد والعادات الشعبية ينظر غليه باستغراب أو بازدراء أو احتقار بل قد يتعرض لنقد جارح فى بعض المواقف، كل هذه الأنواع من القوى الاجتماعية غير الرسمية التى يضغط بواسطتها المجتمع على أفراده وجماعاته لاتباع تقاليده وعاداته للشعبية.

لنأخذ مثالاً على ذلك التقاليد والعادات الشعبية المتعلقة بالزى الجامعى من السلوك المتعارف عليه أن طلبة وطالبات الجامعة يرتدون ملابس معينة تتسم عادة باللياقة والحشمة وتتناسب فى نفس الوقت مع كونهم شباب فى مرحلة التعليم، كل فرد فى المحيط الجامعى فى تصوره توقعات ما يجب أن يكون عليه هذا النمط من السلوك الخاص بإنتقاء الملابس وأنواعها وزيها لكن ماذا يحدث لو أن أحد الطلبة حضر إلى قاعة المحاضرات مرتدياً Overall أو شورت وماذا يحدث لو أن إحدى الطالبات حضرت المحاضرة مرتدية جونيلا قصيرة جداً أو طويلة أو ضيقة جداً أو حذاء ذو كعب عالى جداً ـ او مستخدمة أنواعاً من مساحيق التجميل بطريقة صارخة، سوف لا يقوم أى فرد عادة بإخراج أى هؤلاء الطلبة أو الطالبات من قاعة المحاضرات نتيجة هذا السلوك.

ليس معنى هذا أنهم لم يعاقبوا على تصرفاتهم غير اللائقة يتفاوت العقاب عادة حسب درجة الانحراف عن السلوك المتوقع اتباعه، ربما يقتصر على نظرات الاستغراب التى ترتسم على وجوه الطلبة الآخرين وقد تتعداها إلى نظرات الاستهزاء أو الازدراء أو التحقي التى تعنى عدم الرضا، وقد تتعداها إلى ابعد من ذلك إلى القاء بعض كلمات النقد اللاذعة كل هذه تمثل أنواعاً من العقاب إلا أنه رغماً عن ذلك لايفكر عادة أحد فى أن سلوكهم وصل إلى حد إن يعتبر خرقاً للقيم الأخلاقية ولا يفكر أحد فى ضرورة أخذ اجراء رسمى لعقابهم وعموماً لا يرغب الأفراد فى ارتداء ملابس غير مناسبة ولو انهم فى نفس الوقت لا يرون أن مخالفة ذلك فى إحدى المناسبات أمراً خطيراً.

على أن كل مخالفة للتقاليد والعادات الشعبية السائدة تعنى أن الفرد ليس مقتنعاً فى سلوكه مع السلوك التى تعارفت عليه الجماعة التى ينتمى اليها وهذا بدوره قد يؤثر على سلوك الجماعة غزائه وقد يعانى الفرد من جراء ذلك الانحراف عن النمط من السلوك المتعارف عليه لجماعته "وعموماً فإن رغبة الأفراد فى أن يكونوا

عاديين ومقبولين لدى الآخرين هى الدوافع التى يحفزهم إلى اتباع التقـاليد والعـادات الشـعبية السـائدة، علـى ان هنـاك قلـة مـن الأفـراد الذيـن يتعمــدون مخالفــة التقــاليد والعادات الشعبية وهؤلاء لا يتأثرون كثيراً من جـراء سـلوك الآخريـن تجـاهم، أنهـم يفعلـون ذلـك عـادة بقصـد الشـهرة وحسـب الظهـور أمـام الآخريـن بمظهـر الأفــراد المستقلين فى تفكيرهم أو غير المنقادين لغيرهم أو ذوى ـ الشجاعة الكافية لاتباع مـا يرونه من صـواب حتى ولو خالفوا غيرهم فى ذلك، وعموماً تلك حالات شـاذة قليلـة الحدوث.

الموضات والتقاليع Fastions and Fads

هى أنماط سلوكية انتقاليـة تنتشـر عـادة فـى المجتمعـات الحضريـة المتقدمـة حيث يوجد نظام طبقى مرن يسمح بانتقال الأفراد مـن طبقـة اجتماعيـة لأخـرى فـى مثل هذه المجتمعات كثيراً ما يحكم على الفراد من مظهرهم الخارجى. والأغنياء من أفراد المجتمع هم الذين عادة يبؤن فى اتباع الموضات الجديدة إلا أنه بعـد فـترة مـن الزمن تنتقل الموضات إلى افراد الطبقة المتوسـطة، والطبقـات الفقـيرة فـى المنـاطق الحضرية لا تهتم كثيراً بالموضات أما أفراد المجتمعات الريفية فقلمـا يعرفـون شـيئاً عن الموضات ويرجع ذلك إلى شدة تمسكهم بالعرف والتقاليد والعادات الشعبية وقلـة إتصـالاتهم بالمنـاطق الحضريـة وهـى المراكز التـى تنشـأ فيهـا وتنتشـر منهـا عـادة الموضات الجديدة.

ولو أن الموضة لفظ يرتبط فى أذهان الكثـيرين بـالتغيرات التـى تطـرأ علـى أزياء الملابس من حيث تصميمها وطريقـة حياكتهـا إلا أنهـا تتعلـق بـالتغيرات التـى تطرأ على اشياء أخرى مثل طريقة تصفيف الشعر، صناعة واستخدام الحلى، تنسيق وتنظيم المسكن، طريقة صناعة واستخدام بعض المنتجات، عمل ديكورات المسـاكن أو المحال العامة على أنه يجب دائماً ان نتذكر أن الموضات كأنمـاط سـلوكية ثقافيـة

انتقالية أن هى إلا تعبيرات عن المعارف والآراء والأفكار وأيضاً اقتبسها الإنسان من غيره بحكم كونه عضواً فى المجتمع.

وإذا كانت الموضات عادة ما ترتبط فى أذهان الناس بالأشياء - العادية فإن حقيقة الأمر هى أنها معنويات تظهر فى صورة أشياء مادية ثقافية والموضات من أنماط السلوك الثقافية الانتقالية التى لا تدوم طويلاً خاصة فى المجتمعات الحضرية سريعة التغير.

أما التقاليع فهى ذلك النوع من الموضات التى تتغير بسرعة جداً، وهى عادة تلك الأنماط السلوكية الثقافية التى تبدو شاذة وغريبة وغير منطقية وملفتة للنظر، والتقاليع لها عادة جاذبية قوية خاصة لطائفة الشباب، ومن أمثلة التقاليع السائدة حالياً اطالة السوالف لدى الشباب، ارتداء البنات للبنطلونات ضيقة أو نظارات كبيرة فاقعة الألوان أو التزين بطريقة صارخة أو تصفيف الشعر بطريقة غريبة أو عجيبة إلى غير ذلك من أنواع السلوك الغريب الملفت للنظر مثل هذه التقاليع تظهر عادة فى المجتمعات الحضرية غير أنها سرعان ما تختفى بعد فترة وجيزة لتظهر غيرها. وكثيراً ما يتعرض الأفراد الذين يتبعون بعض هذه التقاليع لنقد شديد من جانب بعض افراد المجتمع خاصة كبار السن المحافظين والشديدى التمسك بالتقاليد والعادات الشعبية ولاعرف، إذ أن ذلك فى رأيهم مظهراً من مظاهر الانحلال الخلقى والانحراف عن المثل العليا للرجولة والإنوثة الحقة، على ان هناك بعضاً آخر من أفراد المجتمع لا يبالى ولا يكترث لمثل هذه التقاليع بل أن ينظر إليها على أنها أنماط سلوكية تستهدف مجرد لفت النظر ولا تستند على عقائد راسخة ومن ثم فسوف تزول بعد فترة وجيزة وهذا ما يحدث فعلاً.

العرف Mores

العرف هو ذلك النوع من التقاليد والعادات الجماعية (Group Customs) التى يتحتم على الفراد فى المجتمع الالتزام بها. أنه يتضمن طرق السلوك والتفكير والشعور التى تعتبر أساسية وحيوية وهامة بالنسبة لأفراد المجتمع وليس مجرد الأشياء المقبولة أو المريحة أو المتوقعة، كما هو الحال بالنسبة للتقاليد والعادات الشعبية، والعرف يوضح الصواب والخطأ كما يوضح الأخلاقى وغير الأخلاقى وفقاً للقيم السائدة بالمجتمع ومن ثم فإن له جوانبه الإيجابية وجوانبه السلبية ومن أمثلة النواحى الإيجابية للعرف تلك الشياء الواجب اتباعها كضرورة الوقوف أثناء تحية اعلم، ضرورة ارتداء ملابس، ضرورة الولاء للوطن وبالأخص فى أوقات الحروب، ضرورة أن يعول الزوج زوجته وأولاده وكبار السن من أبويه إلى غير ذلك.

ومن أمثلة النواحى السلبية للعرف تلك المحرمات Tabbos مثل عدم الزواج بأمرأة متزوجة من شخص آخر قبل أن يتم طلاقها منه، عدم الزواج من الأقارب المحرمين مثل الأمهات والأخوات والعمات والخالات أو غيرهم حسب مقتضيات العرف السائد، عدم القتل والزنى والسرقة أو محاولة قلب نظام الحكم بالقوة إلى غير ذلك من الأشياء الكثيرة التى ينهى عنها العرف.

والعرف وثيق الصلة بالقيم السائدة بالثقافة، وبما أن القيم الثقافية متعمقة فى نفوس الفراد فإن الحال كذلك بالنسبة للعرف فهو متأصل فى أعماق نفوس الناس إلى حد أن كل ما يتعلق بـه أحياناً لا يناقش بل يقبل بلا تفكير وعادة بطريقة لا شعورية، فالعرف يحدد الخطأ والصواب أو الأخلاقى وغير الأخلاقى لكن أحياناً دون توضيح الأسباب أو المبررات، فى حالة السؤال عن أسباب حتمية السلوك بطريقة معينة أو آداء أفعال بطريقة معينة تكون الإجابة عادة أن ذلك هو ما يجب ان يكون، لماذا؟ لأن ذلك ما يقتضيه العرف السائد.

والأفراد بالمجتمع يتبعون العرف السائد حتى ولو لم يعرفوا أسباب ذلك، إذا سئل مثلاً شخص لماذا يحى العلم عندما يمر أمامه فى استعراض لا يعرف عادة الإجابة على ذلك، لا يعرف أن العلم كرمز يمثل وحدة الجماعة ولا يعرف لماذا وحدة الجماعة أمر هام وحيوى بالنسبة للمجتمع، ربما يقول أنه يفعل ذلك لأنه شخص وطنى، أو لأن كل شخص عاقل لابد وأن يفعل ذلك، أو لأن باقى الأفراد يفعلون ذلك، وكلها إجابات قد تكون بعيدة عن الأسباب الحقيقية.

والعرف مثل التقاليد والعادات الشعبية - يختلف من مجتمع لآخر، فى بعض الثقافات يعتبر قتل الأطفال من الإناث والكبار من الشيوخ والعجزة عملاً أخلاقياً لا غبار عليه بينما فى ثقافات أخرى يعتبر عملاً مشيناً محرماً غاية التحريم، ويعتبر أكل لحوم البشر فى بعض الثقافات عملاً أخلاقياً بل أنه فى بعض هذه الثقافات يندهش الأفراد من سلوك الرجل العصرى فى الحروب عندما يموت أعدائه وترمى جثثهم دون الاستفادة من لحومها، وحتى بالنسبة للزواج من الأقارب المحرمات والذى يعتبر اجراءاً محرماً فى العالم اجمع تقريباً كان عملاً أخلاقياً فى بعض المجتمعات تحت ظروف معينة كما حدث فى وقت معين فى مصر أيام الفراعنة.

وعلى الرغم من أن العرف شأنه شأن التقاليد والعادات الشعبية يختلف من مجتمع آخر إلا أن الاختلافات فى التقاليد والعادات - الشعبية عادة ما تكون فى نظر افراد مجتمع آخر شئ عجيب أو مفرح أو مدهش كما يظهر ذلك بوضوح من طريقة سلوك وشعور السياح عند ملاحظتهم بعض التقاليد والعادات الشعبية فى المجتمعات التى يزورونا، أما الاختلافات فى العرف فأنها عادة تكون مفجعة ومزعجة للأفراد الذين لا تتضمن ثقافاتهم مثل هذا النمط من السلوك أ التفكير أو الشعور.

فالسائحة الأجنبية فى مصر مثلاً قد يبهرها منظر موكب من مواكب الاحتفالات الدينية ولكن يزعجها أن تعرف أن الزوج المصرى المسلم يستطيع أن يتزوج أربعة نساء فى وقت واحد، والسائحة التى تزور أحد القبائل البدائية قد يبهرها منظر الحلقان التى تتدلى من أنوف النساء أو منظر النساء الحاملات لأطفالهن على ظهورهن وكلها من التقاليد والعادات الشعبية ولكن يزعجها معرفة أن المراسيم الجنائزية فى هذه القبيلة تقضى بأن تحرق الزوجة نفسها عند تشيع جنازة زوجها كتعبير عن الحب والولاء له، أو أنه ممنوع عليها إلى الأبد أن تتزوج ثانية بعد وفاة زوجها.

وإذا كان العرف هو إنماط السلوك والتفكير والشعور التى يتحتم على الأفراد فى المجتمع اتباعها فما هى القوة التى بواسطتها بضغط على الأفراد فى المجتمع على افراده لاتباع هذه الأنماط الثقافية؟ الحقيقة أن هذه القوة هى نفس القوة التى تضطر الناس إلى اتباع التقاليد والعادات الشعبية والتى تتمثل فى التقدير والثناء والاحترام والقبول من جانب أفراد المجتمع لمن يتبع العرف السائد والاستهزاء والاحتقار وأيضاً الازدراء والانعزال والابتعاد والنقد الشديد كعقاب لم يخالفه.

ولعل أهم فارق بين القوى الضاغطة لتنفيذ العرف وتلك الضاغطة لتنفيذ التقاليد والعادات الشعبية هو أن الأول تستخدم بروح عاطفية قوية لأن العرف وأن كان يستند إلى القيم السائدة فى المجتمع شأنه فى ذلك شان التقاليد والعادات الشعبية إلا أنه أكثر ارتباطاً بالقيم وبذا أكثر ترسبها فى اعماق نقوس الناس عن التقاليد والعادات الشعبية ومن ثم فإن العقاب الذى يتعرض له الأفراد الذين يخالفون العرف السائد لا شك أقصى وأشد من العقاب الذى يتعرض له من يخالفون التقاليد والعادات الشعبية. أن عقاب من يقتل أو يسرق أو يعتدى على ملكية الآخرين أو أى من حقوقهم لا شك أشد من عقاب من يرتدى مثلاً قميصاً وبنطلوناً فى مناسبة معينة تستدعى أن يكون مرتدياً بدلة كاملة.

على أنه يجب أن يكون دائماً واضحاً أن أجبار الناس فى المجتمع على اتباع نمط معين من السلوك أمر وثيق الصلة بالقيم السائدة فالعرف هـو الأنمـاط السـلوكية التى يعتقد المجتمع فى ظل قيمه السائدة فى وقت معين أنهـا ضروريـة الاتبـاع فلـو ضعفت تلك القيم أو تغيرت لأصبح من المؤكد أن تطرأ تغيرات على مدى جبرية أو حتمية اتباع تلك الأنماط السلوكية، على أن جون كوبر يعتقد أن الأفراد والجماعـات فى المجتمع هى التى تجبر بعضها اتباع نمط أو أنماط من السلوك وأنـه لا يجـب أن يوضع الفرد والثقافة كل فى جانب بحيث يبدو كما لو أن الثقافة تأمر الناس وتجبرهم على آداء ما لا يرغبون آدائه.

فـى الحقيقـة مـن الصعب فصـل الثقافـة عـن النـاس فـى أى مجتمـع فالنـاس أعضاء يشاركون فى الثقافة ويقومون بأعمال وأفعال هى فى جملتها مكونات الثقافة، ويميل كوبر إلى الاعتقاد بأن الأفراد وأيضاً الجماعات فـى المجتمـع وليست الثقافـة هم الذين يجبرون الناس على اتباع نمط سلوكى معين وعلى ذلك يرى أنه من ألوفق الكلام على الاجبار الاجتماعى وليس الاجبار الثقافى.

وبعض انماط السلوك الثقافى التى يتضمنها العرف تصاغ فى قوانين ويحاكم رسمياً من يخالفها كما فى حالة القتل والزنـى والسرقة وخيانـة الوطـن وغير ذلـك، غير ان البعض الآخر من الأنماط السلوكية التـى يتضمنهـا العـرف أيضـاً والتـى لـم تصل إلى حد أن تصـاغ فـى قوانيـن رسـمية يعتبر أيضـاً مراعاتها أمـر ضـرورى وحتمى بل أنه فى بعض الأحيان كثيراً مـا يحـرص الفرد علـى اتبـاع بعـض أنمـاط السلوك التى يتضمنها العرف غير المصاغ فى قوانين أكثر من حرصـه علـى اتبـاع بعض أنماط السلوك التى يتضمنها العرف غير المصاغ فى قوانين أكثر من حرصـه على اتباع بعض انماط السـلوك التـى يتضمنهـا العـرف المصـاغ فـى قوانيـن وعلـى سبيل المثال يقضى العرف أن يكون الطبيب أميناً علـى مرضـاه، فـإذا خـان الطبيـب هذه الأمانة فإن العقاب غير الرسمى فى هـذه الحالـة ممثـلاً فـى سـوء سـمعته يكـون

عادة أقسى وأشد من العقاب العادى الذى قد يفرضه تطبيق عرف معين مهما كان مقدار الغرامة المادية.

والفرد العاقل فى المجتمع عادة غير مستعد لأن يفقد سمعته على أنه مواطن ذو ولاء لمجتمعه أو عامل أمين فى عمله أو زوج مخلص أو ابن بار مطيع، والغالبية العظمى من يخالفون العرف السائد فى المجتمع يمرون بخبرة الشعور بالذنب وتأنيب الضمير، وينتابهم عادة الكسوف والخجل وتنحط سمعتهم نتيجة كثرة كلام الآخرين عنهم ونقدهم لهم وأحياناً ما يصل الحال إلى حد افتضاح أمرهم عن طريق وسائل الاعلام المختلفة التى قد ترى فى خروجهم عن العرف السائد شئ بالغ الخطورة.

والعرف - مثل التقاليد والعادات الشعبية - يتغير من وقت لآخر وإن كانت التغيرات التى تطرأ على العرف عادة تحدث ببطئ شديد وعلى مر فترة طويلة من الزمن أكثر منه بالنسبة للتقاليد والعادات الشعبية، وصعوبة إدخال تغيرات على العرف السائد ترجع إلى شدة ارتباطه بالقيم السائدة بالثقافة وتلك الخيرة كما سبق القول راسخة متعمقة فى عقول الناس يصعب اقتلاعها وتغييرها بسهولة لكن رغم ذلك فالعرف يتغير، من الأمثلة على ذلك: كان تدخين المرأة فى وقت من الأوقات يعتبر فى نظر الكثيرين من الناس عملاً غير أخلاقى وسلوكاً غير مقبول بالمرة، حالياً فى الكثير من المجتمعات الأخرى أصبح مجرد عمل اختيارى حر.

عدم استعمال موانع الحمل كان عرفاً قوياً لدى الكاثوليك تسانده كل القيم الدينية ومع ذلك فإن الاحصاءات الرسمية فى بعض الدول تشير إلى أن الكثوليك بدأوا استعمال موانع الحمل بمعنى انتقال السلوك من سلوك محرم إلى سلوك مسموح أى من عرف إلى تقاليد وعادات شعبية، فى كثير من المجتمعات الاحتفاظ بالبكارة لحين الزواج لا يزال عرفاً ونمطاً مثالياً غير أن البحوث أثبتت أن النمط

الحقيقى يختلف كثيراً عن النمط المثالى، العبودية كانت فى وقت معين فيما مضى عرفاً فى بعض المجتمعات غير أنها حالياً لم تعد كذلك بل اصبحت عملاً غير أخلاقى، فى الماضى كان ينظر إلى ارتداء ملابس البحر على انه فعل غير اخلاقى وحاليا يعتبر فعلاً من الأفعال الاختيارية.

هذه الأمثلة وغيرها توضح بجلاء كيف أن العرف السائد فى مجتمع معين قد تتغير بعض أنماطه السلوكية فتصبح مجرد تقاليد وعادات شعبية بل وقد تتحول إلى مجرد سلوك فردى اختيارى، على انه قد يحدث العكس تماماً فقد يتحول سلوك فردى اختيارى إذا ما أتبعه أفراد المجتمع وأصبح سلوكاً متكرراً متعارف عليه إلى تقاليد وعادات شعبية أى يصبح الطريقة السليمة فى نظر الناس لفعل الأشياء وبذلك يصبح السلوك المتوقع الذى يجب على أفراد المجتمع مراعاة اتباعه (أى تقليداً) وبمرور الزمن إذا ما أظهر الناس فى المجتمع ما يؤكد أهمية هذا السلوك وحتمية اتباعه والمحافظة عليه وإذا ما دافعوا عنه بشدة وتمسكوا به فإنه يتحول والأمر كذلك من مجرد كونه تقليداً وعادة شعبية إلى كونه عرفاً ملزماً.

ولتوضيح التغيرات التى تطرأ على انواع السلوك المتعلم وأنماطه حاول جون كوبر وضع أنواع السلوك المتعلم وأنماطه على ما يسمى بالـContinuum فى أحد جوانبه يوجد ما يسمى بالأفعال غير المحددة أو ما أسميناه هنا بالسلوك الحر الاختيارى ويوجد فى الجانب الآخر العرف اما فى الوسط فتوجد التقاليد والعادات الشعبية على النحو الموضح أدناه والذى منه يتبين ان السلوك الاختيارى أى الفعل غير المحدد لا يتحول فجأة إلى عرف كما لا يتحول العرف فجأة إلى سلوك اختيارى بل يحدث ذلك تدريجياً وعلى مر فترة زمنية يتوقف مداها على نوع السلوك وظروف كل مجتمع، وخلال هذا التحول يتغير موقع السلوك أو نمطه على الـContinum.

ولما كان العرف والتقاليد والعادات الشعبية والسلوك الاختيارى (الأفعال غير المحددة) كلها مصطلحات معنوية حدودها متداخلة وليست فى واقع وحقيقة الأمر ذات حدود واضحة كما نتخيلها أو نصورها فإنه لا غرابة إذا ما كان من الصعب تحديد موقع أى سلوك أو نمط من انماط السلوك بدقة على الـ Continuum خصوصاً وأنه كما سبق القول - فى المجتمع سريع التغير وقد يعتبره بعض الأفراد والجماعات على أنه عرف قد يعتبره أفراد وجماعات أخرى على أنه تقاليد وعادات شعبية، بل وقد يعتبره أخرون على أنه لا يوجد أى وضع نهائى أو ثابت لأنواع السلوك وأنماطها على هذا الـ Continuum كما سبق القول فقد يكون أحد الأفعال فى وقت معين حتمى أى عرف ثم يتحول إلى مجرد فعل جماعى مقبول أى تقليد ثم يتحول إلى فعل فردى حر اختيارى. والتاريخ الاخلاقى ملئ بالكثير من الأمثلة التى توضح مثل هذه التغيرات.

← mores →	← Folkways →	← Undefined acts→
العرف	التقاليد والعادات الشعبية	الأفعال غير المحددة

على أن التغيرات فى العرف لا تتم عادة بالسهولة التى قد يتصورها البعض ذلك لأن العرف كما سبق القول مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقيم الناس واتجاهاتهم، والتغيرات فى القيم والاتجاهات بين أفراد المجتمع وجماعاته كثيراً ما يصاحبها صراعات ومنازعات مريرة خاصة إذا كان بالمجتمع جماعات من ثقافات مختلفة أو عناصر (races) مختلفة، وعلى سبيل المثال فى الولايات المتحدة الأمريكية يعتبر بعض الناس أن اختلاط السكان البيض بالسكان السود عمل غير أخلاقى لكنهم فى نفس الوقت يعتبرون أن أحترام القوانين الفدرالية عمل أخلاقى وحتمى وضرورى، وعندما تحتم القوانين الفدرالية اختلاط التلاميذ البيض بالتلاميذ السود فى المدارس هنا يواجه الفرد صراع نتيجة للتضارب فى القيم التى يستند إليها العرف ربما لا تحل هذه المشكلة إلا بتفسيرها فى ضوء عرف آخر يستند إلى قيم جديدة تبدو أخلاقية فى نظر الناس وليكن عرف دينى مثلاً.

هكذا يصبح كل تغيير في ثقافة الناس في المجتمع مشكلة أمام الأفراد والجماعات أما أن يتبعوا القديم أو الجديد من أنماط السلوك المتغيرة، ومما يزيد من المشكلة تعقيداً أنه في المجتمع الحضري التي تتغير فيه القيم بسرعة يتعذر أحياناً معرفة ما إذا كانت بعض أنماط السلوك لا تزال ملزمة (أي عرفاً) أم انها أصبحت مجرد أنماط مقبولة ومريحة أي أنواع من السلوك المتوقع اى تقاليد وعادات شعبية، وبالمثل قد لا يعرف الأفراد ما إذا كانت بعض التقاليد وأيضاً العادات الشعبية لا تزال كذلك أم انها أصبحت عرف أو أصبحت في حكم السلوك الاختياري الحر، ومن ثم لا يجد الأفراد أنفسهم في حيرة من أمر بعض أنواع السلوك وأنماطه فالبعض يلتزم بها باعتبارها عرفاً ويحاول فرضها على الآخرين، والبعض الآخر يعتبرها مجرد تقليداً أو عادة ويتوقع اتباع الآخرين لها، والبعض الآخر قد يعتبرها سلوكاً اختيارياً غير ملزم ولا بالضرورة متوقع.

وأكثر أفراد المجتمع عادة حيرة من أمر الأنماط السلوكية المتغيرة هم الشباب خاصة في بعض المجتمعات الحضرية التي لم يعد بها الكثير من العرف والتقاليد والعادات الشعبية المتفق عليها كما كان الحال في الماضي، ومن ثم فإن الشباب حالياً يجد نفسه في حيرة بين ما هو صواب وما هو خطأ وبين ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي.

ومما يزيد من المشكلة تعقيداً أن العرف والتقاليد والعادات الشعبية تختلف من طبقة اجتماعية لأخرى، هذا بالإضافة إلى أن الانتقال الطبقي والاتصال بالجماعات الأخرى ووسائل الاعلام ونوع المنطقة التي يعيش فيها الفرد كلها عوامل قد تكون ذات آثار هامة في هذا الشأن.

على أنه رغم ذلك كله فإنه لا يزال هناك حتى فى هذه المجتمعات الحضرية سريعة التغير بعض أنماط السلوك الثقافى الملزمة أى العرف الذى يتحتم اتباعه مثل حتمية احترام الأنظمة السياسية والدينية والأسرية والاقتصادية وغيرها بالمجتمع.

على ان الحال يختلف بعض الشئ فى المجتمعات الريفية حيث التغيرات فى قيم الناس تحدث ببطئ شديد ومن ثم فإن سلوكهم وأنماط سلوكهم لا تتغير بسرعة وبمعنى آخر فإن العرف والتقاليد والعادات الشعبية تظل فترة طويلة من الزمن دون أن يطرأ عليها تغيرات جوهرية وبالتالى لا تظهر فى مثل تلك المجتمعات تلك الاختلافات الكثيرة فى أنواع السلوك وأنماطه التى توجد فى المناطق الحضرية ومن ثم فإن سكان المجتمعات الريفية لا يجدون عادة صعوبة فى اختيار النمط المناسب من السلوك فى الوقت المعين.

القوانين:

عندما توضع المعايير الأخلاقية المنظمة لسلوك الناس فى المجتمع فى صورة مكتوبة محدد وتقام لها الهيئات التى تشرف على تنفيذ الناس لها ومعاقبتهم على مخالفتها فإنها تسعى فى هذه الحالة بالقوانين، فى الكثير من المجتمعات الصغيرة البسيطة ذات الجماعات المتشابهة لا تزال التقاليد والعادات الشعبية والعرف هى القوى المنظمة لسلوك الناس والمحددة لما يجب وما لا يجب أن يكون بالنسبة لمختلف نواحى الحياة. فى مثل هذه المجتمعات لا يوجد حاجة إلى قوانين مكتوبة، غير أنه فى المجتمعات الكبيرة المعقدة التى تضم جماعات ذات عرف مختلف يصبح وجود القوانين التى تنسق بين سلوك هذه الجماعات أمر حتمياً حتى يمكن للمجتمع أن يؤدى وظائفه دون نشوب صراعات ومنازعات بين الأفراد الأمر اذلى يهدد سلامة المجتمع وأمنه واستقراراه.

وتختلف القوانين عن العرف من عدة نواحى هى:

١- أن القوانين تسن عمداً أى عن قصد وبطريقة شعورية، أما العرف فإن جزءاً كبيراً منه أو غالبيته يتأتى لا شعورياً على مر فترة طويلة من الزمن ومن ثم يبدو وكأنه شئ نابع من الإنسان وليس من صنع الإنسان كما هو الحال بالنسبة للقوانين.

٢- القوانين لها الصفة المحددة القاطعة غير المرنة فهى تصاغ وتكتب بألفاظ معينة وفى مواد محددة تنص على عقوبات معينة إلى غير ذلك، أما العرف فليس له هذه الصفة القاطعة غير المرنة وليس مكتوباً ولا ينص على عقوبات محددة كما هو الحال فى القوانين.

٣- القوانين تنفذ بطريقة رسمية عن طريق هيئات معينة مثل البوليس والمحاكم والسجون وتتفاوت عقوباتها من الغرامات البسيطة إلى الحكم بالاعدام لمن يخالفها، أما العرف فإنه لا توجد هيئة رسمية مسئولة عن تنفيذه أى لا ينفذ رسمياً وإنما ينفذ عن طريق القوى الاجتماعية الممثلة فى الضبط الاجتماعى اى قوة الرأى العام للناس فى المجتمع.

على أنه رغماً عن الاختلافات فإن هناك علاقة وثيقة بين القوانين والعرف فالكثير من القوانين خاصة فى الماضى كانت علافا مقنن والكثير من القوانين لا تزال كذلك أى قوانين تنفذ العف ومن أمثلة ذلك القوانين الخاصة بعدم زواج المسلم بأكثر من أربعة نساء فى وقت واحد بعدم زواج المسلم بأكثر من أربعة نساء فى وقت واحد ولا بالزواج من المحرمات من النساء ولا بزواج ـ المسلمة من غير المسلم والقوانين الخاصة بالقتل والزنا بالإكراه والسرقة والاعتداء على أموال الآخرين وغيرها، كلها فى نفس الوقت عرف هام صيغ فى صورة قوانين، وليس معنى هذا أن كل قانون يستند إلى عرف سائد.

هناك قوانين كثيرة غير متفقة مع العرف من حيث النشأة ولا وجهة النظر، أنها شرعت لمقابلة احتياجات معينة بالمجتمع هذا يبدو بصورة واضحـة خاصـة فـى المجتمعات التى تتطور بسرعة فـالكثير مـن الاختراعات الماديـة والمعنويـة تطلبت تنظيم سلوك الأفراد والجماعات ازاء ما ترتب عليها من تغـيرات فـى المجتمـع، لقد خلقت أوضاعاً جديدة لم تكـن موجـودة قبـلاً وبالتـالى لـم يكـن لهـا عـرف ولا تقـاليد وعادات شعبية من قبل تنظيمها ومن أمثلـة ذلـك اخـتراع السكك الحديديـة والطـرق المرصوفـة والطـائرات والراديـو والتليفـون والتليفزيـون هـذه وغيرهـا تطلبـت سـن قوانين لتنظيم استخدام هذه المترعات.

ومن الملاحظ أن القوانين التى تستند فـى تشـريعها علـى العرف السـائد أو على الأقل لا تتعارض معه تكون أكثر اتباعاً واحتراماً مـن جـانب النـاس مـن تلـك التى لا تقـوم علـى أو تتعـارض مـع عـرف سـائد، ومـن امثلـة ذلـك قوانيـن الـزواج والطلاق والسرقة والقتل يلاحظ أنها أكثر اتباعـاً مـن جـانب النـاس لنهـا تقـول علـى اساس العرف الدينى، بينما قوانين المرور مثلاً يخالفها الكثيرون من النـاس لأنهـا لا تقوم على عرف سائد بينهم، ومن الأمثلة الأخرى علـى ذلـك أيضـاً فإنـه فـى بعـض المجتمعات الغربية قد ضغط بعـض السـماعات علـى الحكومـة المحليـة لسـن بعـض التشريعات التى تتعارض مع العرف السائد فمثلاً قوانين منـع بيـع وتعـاطى الخمـور والتى فى بعض المناطق بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة جـاءت نتيجـة ضغـط بعـض الجماعات الدينية، هذه القوانين كثيراً ما يخالفهـا النـاس لأنهـا تتعـارض مـع العـرف السائد الذى يبيح تعاطيها.

على أنه يجب أن يلاحظ أن هنـاك بعـض الاسـتثناءات لتلـك القـاعدة العامـة فمثلاً قانون الجنايات قد ينص على أن القاتل يقتل وهذا يتفق تماماً مع العرف الدينى إلا أنه ربما لا يحكم على القاتل ويكتفى بالسجن لعدة سنوات إذا علم أن القـاتل كـان فى موقف الدفاع عن النفس، أو أن القـاتل ضبـط القتيـل متلبسـاً بجريمـة الزنـا مـع

زوجته الأمر الذى أثار شعوره وأدى به إلى ارتكاب الجريمة عندما يراعى القاضى كل هذه الجوانب الإنسانية فى الموقف فقد يخفف من حكم الاعدام على الجانى رغم ان العرف يساند مبدأ من قتل عمداً يقتل، وعموماً فالمشتغلون بالتشريعات القانونية وبالقضاء يعلمون جيداً أن أكثر القوانين فعالية هى تلك التى تمتد جذورها فن التقاليد والعادات الشعبية والعرف السائد بالمجتمع أى النابعة عنها وعلى ذلك فأنهم يتحاشون ما أمكن سن القوانين التى تتعارض معها ويفضلون الانتظار حتى يأتى الوقت المناسب الذى يصبح فيه العرف هو القوى الضاغطة والمطالبة بسن القانون.

وبعض القوانين تسن عندما يصبح العرف السائد عاجزاً عن أن يعالج مشاكل معينة بالمجتمع فمثلاً يقضى العرف الدينى أن على كل مسلم أن يخرج الزكاة ويتصدق على الفقراء والمساكين ذلك لأن الأغنياء يتقاعسون عن اخراج الزكاة وعت التصدق على الفقراء ومن ثم يجد المجتمع نفسه مضطراً إلى سن قوانين الضرائب للحصول على الأموال اللازمة من ذوى الدخول العالية وسن قوانين الضمان الاجتماعى لتنظيم عملية مساعدة الفقراء والمحتاجين. والقوانين كثيراً ما تكون وسيلة للإصلاح الاجتماعى، فمثلاً تركيز ملكية الأراضى الزراعية فى مصر فى أيدى عدد قليل من الملاك الزراعيين فى وجود ملايين من المزارعين المعدمين خلق مشكلة اجتماعية واقتصادية تطلبت وضع سياسة اصلاحية كان مؤداها سن قوانين الاصلاح الزراعى الخاصة بإعادة توزيع الملكية وتحديد قيمة ايجار الفدان من الأراضى الزراعية وتحديد حد أدنى لأجر العامل الزراعى.

ومن الأمثلة الأخرى للوظيفة الاصلاحية للقوانين أنه فى بعض المجتمعات قد يختلف النمط الحقيقى من السلوك كثيراً عن النمط المثالى. الآمريكيون كثيراً ما يتحدثون عن تمسكهم بالعدالة وأيضاً المساواة فى الفرص وعن الديموقراطية إلى غير ذلك مما يمكن أن يطلق عليه بالأنماط المثالية من طرق التفكير، لكن السلوك الحقيقى السائد لا يتفق مع السلوك المثالى أى مع يجب أن يكون.

سن القوانين فى هذه الحالة يساعد على التقريب بين النمط الحقيقى والنمط المثالى من السلوك فالقوانين الفدرالية التى تنمو على المساواة فى فرص التعليم والعمل لكل مواطن بغض النظر عن العنصر والدين أو غير ذلك حتى لو لم تطبق كما يجب فهى تساعد على الأقل فى إثارة الشعور بمد مخالفة الناس لما يجب أن يكون الأمر الذى قد يؤدى إلى تأنيب الضمير ـ لدى على الأقل بعض الناس ـ ويساعد فى الأمد الطويل على التقريب بين ما هو كائن وما يجب أن يكون وهكذا تصبح القوانين وسيلة هامة لأحداث تغير اجتماعى مرغوب فيه فى المجتمع.

ومن الجدير بالإشارة أن عملية سن أى قانون جديد أو تعديل قانون قائم يتطلب اجراءات عديدة وطويلة قبل أن يوضع القانون موضع التنفيذ، ومن ثم فإن القوانين لا تتغير بسرعة بل يسرى مفعولها لعشرات السنين، وربما خلال هذه الفترة تحدث تغيرات فى لاعرف والتقاليد والعادات الشعبية التى كانت فى وقت معين تتفق مع أحد القوانين ومع ذلك يظل القانون قائماً إلى أن يأتى الوقت الذى يتحتم فيه تعديله أو الغائه تحت ضغط العرف والتقاليد والعادات الشعبية الجديدة، ومن هنا يمكن تفسير ظاهرة وجود بعض القوانين رغم عدم سريان مفعولها أى رغم عدم تطبيقها. أنها تكون فى أغلب الأحيان أصبحت بحكم العرف والتقاليد والعادات الشعبية الجديدة أو بحكم تغير الظروف التى أوجدتها لم تعد ذات موضوع أى لم يعد المجتمع فى حاجة اليها إلا أنه لم يقم بعد بألغائها أو تعديلها.

المؤسسات:

يعرف بعض الاجتماعيون المؤسسة على انها 'مجموعة متداخلة ومترابطة من العادات والتقاليد الشعبية والعرف والقوانين والتى تتركز حول آداء وظيفة أو مجموعة من الوظائف (كالتعليم و الصناعة وتوزيع السلع...الخ) ويرى الكثيرون من علماء المجتمع أن المؤسسات الاجتماعية الرئيسية هى الزواج والأسرة والتعليم

والنظام الاقتصادى، والحكومة، والدين والنظام الأخلاقى، وإلى جانب هذه المؤسسات الخمسة الرئيسية يضيف البعض أحياناً مؤسسات أخرى ثانوية مثل النظام الترويجى والنظام الجمالى والفنى والتعبيرى والمؤسسات الخمسة الرئيسية وثيقة الصلة بمقابلة الاحتياجات الأساسية للإنسان ككائن بيولوجى يعيش فى جماعة انسانية، وعلى ذلك فأن كل منها يمثل مجموعة من التقاليد والعادات الشعبية والعرف وأيضاً القوانين التى نظمت ونسقت بشكل يحقق مقابلة احتياج أو أكثر من الاحتياجات الأساسية للإنسان، لنأخذ الزواج والأسرة والتعليم كأمثلة لتوضيح ذلك.

هناك دوافع جنسية لدى الإنسان ككائن بيولوجى ـ هذه الدوافع تقابل عن طريق التوالف الذى يؤدى إلى انجاب الأطفال وإن كان للأطفال أهمية لبقاء المجتمع الإنسان واستمراه، إلا أن الإنسان يرعاهم وينشئهم بدافع مقابلة احتياجاته للمحبة وإلا من الاقتصادى والاجتماعى، بسبب كل ذلك نشأ نظام الزواج لمقابلة هذه الاحتياجات البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية ولكى يكون الزواج والأسرة وسيلة فعالة لتحقيق هذه الأغراض فقد نظمت فى ضوء مجموعة من التقاليد والعادات والعرف والقوانين والتى بدونها ما كان من الممكن تحقيق الأهداف المرجوة.

من أمثلة التقاليد والعادات الشعبية التى يتضمنهاى عادة الزواج فى بعض المجتمعات الموافقة من جانب الفراد الراغبين فى الزواج (أو أسرهم) على اتمامه وتقديم دبلة الخطوبة واشهار الخطوبة والزيارات المتكررة وتقديم الهدايا فى المناسبات المختلفة إلى غير ذلك ومن أمثلة العرف المحافظة على البكارة والولاء والاخلاص بعد الزواج واحترام الزوج والزوجة كل لحقوق الآخر ومراعاة الوفاء لمسئولياتهما ازاء الأطفال، ومن أمثلة القوانين التى قامت على اسس مساندة العرف اشهار الزواج عن طريق الاحتفال الرسمى المعروف بعقد القران، وعدم الزواج بأمرأة متزوجة حتى تطلق وتحريم الزواج من الأقارب المحرمات وقوانين الطلاق

والنفقة والقوانين الخاصة بعدم الزواج قبل سن معينة إلى غير ذلك من مجموعة القوانين التى تسمى عادة بقوانين الأحوال الشخصية.

كل هذه التقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين تكون نسيجاً متنافساً هدفه اقامة البنيان الأسرى الذى يخدم ويقابل احتياجات الانسان البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وبدون هذا التنسيق الهادف يصعب أن يتم الزواج وأن تقوم الأسرة بوظائفها، لأو ان الاختلاط الجنسى مباح دون أية شروط أو قيود لربما تنافس وتنازع وتصارع أفراد المجتمع خلال محاولاتهم اشباع رغباتهم الجنسية ولما لقى المواليد من الأطفال من يربيهم وينشئهم ولا النساء من يحميهن ويرعاهم ولما لقى الكبار من يعولهم عند العجز والشيخوخة والمرض ولما استطاع المجتمع الانسانى أن يحرز تقدماً فى ظل هذه الأوضاع غيرة المستقرة، ولكن عن طريق تنظيم سلوك الأفراد وفقاً لمجموعة من التقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين المتعارف عليها والتى تحدد عقاب من يخالفها ومكافئة من يتبعها أمكن تنظيم الزواج وإقامة الأسرة كمؤسسة اجتماعية رئيسية وهامة فى المجتمع.

والتعليم كمثل آخر من أمثلة المؤسسات الاجتماعية له أيضاً اهدافه المحددة أى وظائفه التى يسعى لتحقيقها سواء أكان تعليماً رسمياً أو غير رسمى، ولهأفراده الذين يتمثلون فى المدرسين والأساتذة والطلبة وسائر العاملين الآخرين، وله امكانياته من معدات وأجهزة ومعامل وفصول ومكتبات وخلافه، والنشاط التعليمى ينظمه ويحكمه التقاليد والعادات الشعبية والعرف فى بعض المجتمعات بالإضافة إلى القوانين فى مجتمعات أخرى، هذه القوى الرسمية وغير الرسمية تحدد الأنماط السلوكية الواجب اتباعها، ودور أو أدوار ومسئوليات وواجبات وحقوق كل فرد من أفراد المؤسسة وعرقته بالآخرين، فهى توضح علاقة الأستاذ بالطالب، والطالب بزميله وعلاقى الجميع بالفراد المسئولين عن النواحى الإدارية وغيرها كما توضح

المكافئات لمن يحفظ على الأنماط السلوكية الواجب اتباعها والجزاءات لمن يخالفها كل ذلك لتحقيق العملية التعليمية.

على أن بعض الاجتماعيين يميلوا ـ كما سبق أن أوضحنا ـ إلى اعتبار بعض الأنماط السلوكية المنظمة فى اطار مؤسسى (أى ذات الدرجة العالية من التنظيم والتحديد وعدم المرونة) لمقابلة احتياجات ورغبات ثانوية على انها أيضاً مؤسسة، ومن أمثلة ذلك المؤسسات الصحفية، والترويجية والصحية وغيرها حيث يتصف كل منها ببعض ما للمؤسسات الاجتماعية الرئيسية من صفات. وجدير بالذكر أن المؤسسة الاجتماعية قد تنشأ وتنمو وتطور تدريجياً على مر فترة زمنية طويلة كأستجابة لاحتياجات الإنسان دون تخطيط مقصود، أو قد تنشأ عن قصد أى بتخطيط مسبق لتحقيق احتياجات أو اشباع رغبات معينة.

ومن أمثلة النوع الأول المؤسسات الاجتماعية الخمسة الرئيسية السابق الاشارة اليها. ومن امثلة النوع الثانى الكثير من المؤسسات الثانوية التى توجد فى المجتمعات المتقدمة ذات الثقافات المركبة مثل لمؤسسات الصحية والانتقالية والائتمانية وغيرها. والمجتمعات المتطورة تنشئ من آن لآخر العديد من مثل هذه المؤسسات لمقابلة احتياجات ومستلزمات الحياة العصرية.

وينظر Biesenz إلىالمؤسسة على انها لم تتضمن مفهوم concept وبناء (structure) فأما المفهوم فيدور حول احتياج أو احتياجات معينة تسعى لمؤسسة لتحقيقها، أما البناء فيشمل ثلاثة أشياء هى:

١- الأفراد العاملين بالمؤسسة.

٢- الأجهزة وكافة الإمكانيات التى تستملها.

٣- الأساليب والقواعد التى تتبعها فمثلاً المؤسسة الطبية هدفها يدور حول علاج المرضى أفرادها هم الأطباء والممرضين و الممرضات وعمال المعامل وسائر

العاملين الآخرين وأدواتها وأجهزتها وامكانياتها هى المستشفى بكل ما فيها من أسرة وحجرات عمليات وأجهزة ومعامل...الخ، وأساليبها وقواعدها تتمثل فى العرف والقوانين التى تحدد أدوار ومسئوليات وواجبات وحقوق كل فرد فى المؤسسة كما وتحدد أخلاقيات المهنة ايضاً.

فالطبيب لا يكفى أن يتعلم المهارات فقط وإنما أيضاً ألاقيات المهنة، والممرضات يتعلمن أيضاً التقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين التى تنظم سلوكهن تجاه الأطباء وتجاه المرضى وسائر العاملين وأحياناً ما يطلق على افراد المؤسسة بل وأيضاً أفراد أى جماعة منظمة تسعى لتحقيق هدف مشترك.. اسم هيئة Asscciation ومن ثم يجب عدم الخلط بين لفظ مؤسسة ولفظ هيئة.

وتختلف المؤسسات بعضها عن بعض حسب الوظيفة والنمط فوظائف المؤسسات الخمسة الرئيسية هى وظائف اقتصادية وتعليمية ودينية وأسرية وحكومية وهذه كما يقول ساذرلاند تمثل النواحى الهامة للبناء الاجتماعى، على أنه عند النظر إلى حقيقة كل وظيفة من هذه الوظائف العامة نجد أنها تتضمن أنواعاً من الوظائف المعينة المحددة فهناك على سبيل المثال وظائف تعليمية وأنماط تعليمية مختلفة، هناك مدارس حضانة ومدارس ابتدائية واعدادية وثانوية وتجارية وزراعية ومدارس خاصة ومعاهد عليا وجامعات كما أن هناك بعض المؤسسات التعليمية التى لا يطلق عليها لفظ مدرسة مثل تلك الأجهزة التى تمنع برامج التدريب أثناء الخدمة.

وعلى ذلك فمن المستحيل عند الكلام على المؤسسات ان نشير اليها بالجمع وليس بالمفرد فنقول مثلاً المؤسسات الاقتصادية أو التعليمية أو الدينية أو الحكومية. وتختلف المؤسسات فى درجة تعقيدها فمنها ما هو شديد التعقيد ومنها ما هو بسيط ذلك لأن أنماط السلوك الانسانى يمكن أن تكون معقدة جداً كما هو الحال فى الحكومة الرمركزية او بسيطاً كما هو الحال فى مؤسسة تعليمية أو دينية كما

وتتفاوت المؤسسات فى مدى رسميتها فبعضها على درجة عالية من الرسمية والبعض على درجة بسيطة من الرسمية والمهم أن نفهم بأن كل مؤسسة هى نسيج متداخل مترابط من أنماط السلوك المحددة والمستقرة بدرجة كافية تجعلها أكثر دواماً وبقاء من مؤسسيها.

العقـــائـــد:

لعل من أهم ما تتضمنه الثقافة تلك المعنويات الثقافية التى يطلق عليها بالعقائد (Beliefs) وهى ذلك الشطر من المعارف المشتركة التى يتفق الناس عليها ويؤمنوا بها ففى كل ثقافة يعتقد الناس عليها ويؤمنوا بها ففى كل ثقافة يعتقد الناس فى صحة وحقيقة اشياء معينة وعلى سبيل المثال فى بعض المجتمعات ـ خاصة البدائية ـ يعتقد الناس أن من أسباب بعض المراض التى تنتابهم وجود روح شريرة فى جسم المريض ولذا فأنه لأجل شفائه لابد من طرد هذه الروح الشريرة بمختلف التعاويز والتراتيل والأدعية لأنهم يؤمنون بجدوى وفائدة هذه الأفعال.

والمعارف التى تتضمنها العقائد على الرغم من عدم امكان اثبات مدى صحتها بالبحث العلمى إلا انها شانها شان المعارف العلمية تدخل ضمن مكونات الثقافة بل أنه أحياناً ما يختلط بعض عناصر تلك المعارف العقائدية بالمعارف العلمية إلى الحد الذى يصعب فصلها عن بعضها أو إلى الحد الذى يرى على الأقل أن من الأهمية تلازمهما. ففى المجتمعات الغربية على الرغم من الإيمان بالعلم والطرق العلمية فى علاج الأمراض كأستخدام مختلف العقاقير الطبية التى يصفها الأطباء لمرضاهم إلا انه كثيراً ما يصاحب العلاج الطبى بعض الصلوات والأدعية التى يقوم بها القساوسة لمن يتردد عليهم من المرضى.

ولكل مجتمع عقائده فى مجموعة ما يتفق عليه أفراد المجتمع من أنه صدق وحق فى نظرهم، ولو حدث وتزعزعت بعض عقائد الناس لكان فى ذلك خطر على ترابط وتكامل ثقافتهم إذ يعنى هذا تضارب وتناقض أفعالهم وأفكارهم وذلك بدوره يهدد أمنهم واستقراراهم فالنظام العقائدى مهم فى كل مجتمع اياً كان نوع العقائد السائدة وبصرف النظر عن مدى أمكان اثبات صحتها أو عدم صحتها فأى نظام عقائدى يعتبر مهماً لمن يؤمنون به حتى وإن بدى غير ذلك للإراد فى المجتمعات الآخرى ذات الثقافات المختلفة.

القيم:

من العناصر الثقافية المعنوية الهامة التى تتكون منها أيضاً الثقافة تلك المعنويات التى يطلق عليها بالقيم (Values) والقيم من المعنويات التى يصعب تحديدها بالضبط كما ويصعب فصلها عن الاتجاهات إلا من الناحية التحليلية البحتة، وكثيراً ما يخلط البعض بين القيم والأنماط السلوكية الجماعية المثالية المشتركة وهى ما يطلق عليها بـ Norms مع أن كل منهما مختلف عن الآخر فالقيم هى القواعد أو الأسس التى فى ظلها يجرى تبرير وتفسير الـNorms لنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك: من الأنماط السلوكية المثالية الجماعية المشتركة فى المجتمع (أى الNorms) أن الناس لا تسرق، لماذا؟ لأن الأمانة وهى أحد القيم الاجتماعية الدينية تتعارض مع السرقة ولا تحض على اقترافها، ولماذا يكون الإنسان أميناً؟ لأن الله وعد الذين يلتزمون بالأمانة خيراً فى الدنيا والآخرة ووعد الذين لا يلتزمونها جزءاً وعقاباً.

ومن الأمثلة الأخرى التى توضح العلاقة بين النماط السلوكية المثالية الجماعة المشتركة أى Norms أن الناس لا تختلط جنسياً إلا فى اطار نظام الزواج المتعارف عليه فى المجتمع، القيمة الاجتماعية التى تساند ذلك النمط وتبرره وتفسره هى العفة، و جدير بالذكر أن الناس لا تستطيع عادة التهجم على القيم السائدة وترى

أن لابد من مساندتها ولو شفوياً على الأقل حتى وأن لـم يتبعـون النمـط مـن السـلوك الذى يتمشى معها، ذلك لأن الهجـوم علـى القيـم السـائدة يعتـبر تهديـداً أكـبر وأعظـم للكيان المجتمع من الانحراف عن النمط السلوكى المثالى، وعلى سبيل المثال الدعوة إلى عدم العفة أصعب بكثير من ارتكاب الزنا.

والقيم الاجتماعية السائدة بأى مجتمع بعضها أساسى والآخر ثانوى فأما القيم الأساسية فهى تلك القيم التى يتقبلها أفراد المجتمع دون أدنى شـك أو تـردد أو تفكير إذ عادة تبدو وكأنها أشياء طبيعية ومن ثم يتقبلونها كما يتقبلون الغذاء أنها تلـك القيـم التى تحتل مكاناً عاطفيـاً قويـاً فـى نفوسـهم والتـى يضعونهـا فـى مسـتوى عـالى مـن الأهمية فى ضوئها يحددون اهدافهم الأساسية ويبررون ويفسرون أفعـالهم ووسـائلهم لتحقيق تلك الأهداف وعلـى سـبيل المثـال تعتـبر العدالـة الاجتماعيـة قيمـة مـن القيـم الاجتماعيـة الأساسـية التـى تـبرر وتفسـر أسـباب تشــريع وتنفيـذ قـانون الاصــلاح الزراعى. على أنه يوجد فى المجتمع العديد جداً من القيم الثانوية مثل حق الناس فى الاحتفاظ بأراضيهم أو حقهم فى العل والمساواة فى الأجر فى حالة آداء نفس العمـل، أو حرية الانتقال من مكان لآخر... الخ وجدير بالإشارة أنه أحياناً ما يضحـى بقيمـة ثانوية فى سبيل قيمة أساسية.

وعلى سبيل المثال فى حالـة تطبيـق قـانون الاصـلاح الزراعـى والاسـتيلاء على أراضى بعض كبار الملاك فى مثل هـذه الحالـة يضحـى بالقيمـة الثـانوي وهـى حق الناس فى الاحتفاظ بأراضيهم فى سبيل قيمة أساسية أهـم منهـا بالنسـبة للمجتمـع ككل وهى العدالة الاجتماعية وغنى عن الذكر أن القيمة الثانويـة يحكـم عليهـا دائمـاً فى ضوء القيم الثانوية مع القيـم الرئيسـية وإذا مـا تعـارضت فإنـه عـادة مـا يضحـى بالأولى فى سبيل المحافظة على الأخيرة.

والأفراد فى كل المجتمعات وإن كانوا يتفقون مع بعضهم على قيم أساسية إلا أنهم كثيراً ما يختلفون فى قيمهم الثانوية وهى تلك القيم التى تحكم قراراتهم الفردية المتعلقة بأهدافهم الشخصية وغاياتهم التى يسعون إلى تحقيقها فى حياتهم اليومية، بعض الأفراد يعطون قيمة عالية للمكاسب المادية، آخرون للنواحى الروحية المتعلقة بالعبادة، آخرون للنواحى الترويحية والترفيهية، كل من هؤلاء يكيف ويعدل من سلوكه أى أفعاله ووسائله لتتمشى وفقاً للقيم التى يتبناها.

وكما أن المجتمع يضحى فى بعض الأحيان بقيم فى سبيل قيم أخرى فإن الفرد قد يجد نفسه أيضاً فى بعض المواقف التى يتحتم عليه فيها اختيار واحد من نوعين من القيم ـ فمثلاً لو الإنسان مدعواً فى حفل عشاء ولم يستحسن ما دار فى هذا الحفل وقضى فيه وقتاً غير طيب، تقتضى الأمانة أن يقول لمضيفيه أنه يأس لأنه لم يستمتع بالحفل، غير أن اللطف والذوق يتطلب أن يشكر مضيفيه على الوقت الطيب الذى قضاه فى الحفل، كلا من الأمانة واللطف والذوق نوعين من القيم التى يجب على الفرد أن يختار احداهما وفى لاعادة سوف يضحى بواحدة فى سبيل الأخرى.

ولو أنه من الصعوبة كما أوضحنا تحديد القيم بصفة قاطع إلا أنه من الممكن على القل الاستدلال عليها أى التعرف عليها من سياق سلوك الناس وأفكارهم أى أفعالهم وأقوالهم، فعلى سبيل المثال فى مجتمع يستخدم النقود قد يكون من الممكن اتخاذ سلوك الناس الاستهلاكى أى مقدار ما ينفقوه على مختلف السلع والخدمات كأحد المؤشرات للحكم على القيم المختلفة التى يعطيها الناس لهذه الأشياء، فلو أنهم أنفقوا نسبة عالية من نقودهم على المسكن أو المأكل أو الملبس أو لاتعليم أو الترويج أو المكيفات أو النواحى الجمالية أو غيرها فإن ذلك يدل على انهم يعطون هذه الناحية المعينة قيمة عالية بمقارنتها بالنواحى الأخرى التى ينفق عليها نسباً أقل.

على أنه يمكن أيضاً الاستدلال على قيم الناس من أقوالهم أى من أحاديثهم التى يدلون بها تعبيراً عن أفكارهم وارائهم ووجهات نظرهم ومن السباب التى يدلون بها لتبرير تصرفاتهم أآ أفعالهم. هذه الطريقة من طرق التعرف على القيم ليست فى الواقع سهلة ولا دقيقة كالطريقة السابقة ذلك لأن الناس عادة لا يمارسون ما يعظونه أى لا يقولون ما يعبر عن شعورهم الحقيقى. وعموماً حتى ولو لم يصرح الناس بعبارات واضحة ع ما يجول فى أفكارهم من آراء فإن قيمهم قد يمكن استنتاج بعضها من سياق الموضوعات التى يتحمسون لها أو يثيرون نحوها جدلاً ونقاشاً حامياً أو تلك التى يدافعون عنا بحرارة أو يعارضونها بشدة.

على انه يمكن أيضاً الاستدلال على بعض قيم الناس فى المجتمع من واقع ما يكتبون فى صحافتهم أو يعرضونه من فنون سواء من أدبهم وشعرهم ورسمهم وتصويرهم ونحتهم أو من فنونهم المسرحية أو السينمائية او غيرها أو ما يتمسكون به من تقاليد وعادات شعبية كذلك فإنه من استعراض تاريخهم يمكن الاحساس بالنواحى التى يؤكدون أهميتها ويحافظون عليها ويعتزون ويفخرون بها من وصفهم للحوادث أو الأشياء أو الأشخاص أن يكون نظام التقدير والعقاب المتبع فى المجتمع أحد المؤشرات الهامة للتعرف على القيم الاجتماعية السائدة به، لو أن المجتمع مثلاً يمنح الجوائز للمتفوقين فى العلوم والفنون لكان هذا معناه أنه يعطى قيمة عالية للعلم والفن، ولو ان المجتمع يعاقب بشدة من يرتكب جريمة السرقة والزنا فأن هذا يعنى أنه يعطى قيمة عالية للأمانة والعفة ولو أنه يعاقب بشدة من يخالف تعاليم المرور فأن هذا يعنى أنه يعطى قيمة للنظام واحترام القانون، وهكذا يتبين أنه من الممكن استشفاف قيم الناس من مختلف افعالهم وأقوالهم.

وأخيراً لعله يبدو من الأهمية أن نشير إلى وظيفة النظام القيمى بالمجتمع، يقول بيزانز أن النظام القيمى يؤدى وظيفتين هامتين أحداهما أنه يربط أجزاء الثقافة بعضها ببعض ويوحد بينها ويجعلها تبدو غير متناقضة ويبررها أى يجعلها منطقية

مقبولة فى عقول أفرادها ويشير إلى أن أهمية هذه الوظيفة وصلت إلى درجة أن أحد الاجتماعيين عرف المجتمع أو المجتمع المحلى على أنه جماعة من الأفراد يعتنقون نفس القيم وتسعى نحو تحقيق نفس الأهداف، أما الوظيفة الثانية فهى أن القيم تمد الأفراد بغرض أى معنى للحياة فبدلاً من أن ينظر الناس إلى افعالهم على أنها محاولات لإشباع دوافعهم ثم اختبار مدى اهمية الدوافع فأنهم يفكرون فى أفعالهم على انها محاولات لتحقيق أهداف أى غايات فى حد ذاتها، وتلك الأشياء التى تعتبر ذات قيمة اجتماعية عالية فى نظر الناس تصبح أهداف لأفرادها وتمدهم بسبب ومعنى وغرض للبقاء.

ويسود فى كل مجتمع مجموعة من القيم الاجتماعية التى قد تتشابه أو تختلف عن القيم السائدة فى مجتمع آخر، ونظراً لأن القيم الاجتماعية ذات صلة وثيقة بأعماق مشاعر الناس فأنها تميل نحو البقاء والاستمرار، إلا أنها رغم ذلك تتغير بمرور الزمن وأن كانت تلك التغيرات لا تحدث عادة بسرعة وقد يؤدى اختلاف الجماعات ذات الثقافات المختلفة داخل المجتمع الواحد إلى نشوب الصراعات والمنازعات بينهما فبعض الدول التى تتصارع وتتنازع وتقوم بينها الحروب الباردة والساخنة إنما يمكن أن يعزى بعض اسباب ذلك إلى اختلاف قيمها وبالمثل فأن الصراعات والمنازات التى تنشأ بين الجماعات من السكان البيض والسود فى بعض المجتمعات إنما تعزى أيضاً إلى وجود فروق فى قيم هذه الجماعات.

ليس هذا فحسب بل أنه أحياناً ما تؤدى التغيرات التى تطرأ على القيم فى المجتمع إلى احداث صراعات فى داخل شخصية الفرد عندما يواجه بقيم جديدة لا تتفق والقيم التى يتبناها منذ امد طويل عملية التكيف فى هذه الحالة عادة صعبة وشاقة بالنسبة لكبار السن من الأفراد، تلك الظاهرة تبدو واضحة خاصة بالنسبة للآباء وأيضاً الأمهات الذين تتنازعهم صراعات بين القديم والجديد من القيم وأنماط

السلوك عندما يروا أن بناتهم وأبنائهم يصرون على اتباع أنماط جديدة من السلوك بحجة أنها تتمشى مع الموضة أو الحياة العصرية.

الأساطير: (Myth)

عندما تتداخل وتترابط مجموعة من العقائد والقيم فى نسيج يحمل فى طياته مجموعة الأفكار التى يؤمن بها الناس ويعيشون فى ظلها فإن هذا النسيج يسمى بالأسطورة. وفى كل مجتمع يوجد عادة مجموعة من الأساطير ويقول هارى جونسون أن الساطير الدينية هى عقائد تتعلق بالحوادث فوق الطبيعية والتى يفترض حدوثها فى وقت معين، هذه العقائد من وظائفها العامة أنها تكمل النسق من الأفكار المتعلقة بالنظام فوق الطبيعى وفرض العقيدة فيه، معظم الأساطير من شأنها أن تتناول أصول الأشياء كأصل الآلهة أو العالم أو الثقافة أو أى ناحية من النواحى الطبيعية، بعض الأساطير أن هى إلا قصص تتعلق بالمعجزات الآلهية التى أختص بها الأنبياء والرسل والأسطورة كمصطلح تكنيكى لا تتضمن شيئاً يتعلق بالصدق أو القيم الاخلاقية للعقيدة وأنه من الصعب اثبات مدى صحتهما علمياً.

والنظام الأسطورى فى رأى بيزانز ليس من شأنه أن يفسر كيف وجدت الأشياء وكيف اصبحت كما هى عليه فحسب بل ويبرر وجودها كما أنه لا يحمل آمالاً لحياة أفضل فى المستقبل سواء فى الدنيا أو الآخرة، أنه يبرر ضبط النفس والتضحية والصبر ويعطى الثقة والأمل ويشجع على مواصلة العمل لتحقيق الأهداف، ومن أمثلة الساطير فى رأيه الشيوعية والديمواقراطية والحرية..الخ وكلما كان المجتمع مترابطا ومتماسكاً ومتحداً، وهناك بعض الأساطير المهمة وهى تلك الأساطير التى تقوم على لاعقائد والقيم الهامة والأساسية فى المجتمع كما أن هناك بعض الأساطير الأقل أهمية وهى تلك التى تنسج من العقائد والقيم الثانوية.

الرموز والاحتفالات والطقوس:

كثيراً ما يعبر عن بعض العقائد والقيم التى تتضمنها ثقافة المجتمع برموز (Symbols) معينة لها معانى عميقة فى نفوس الناس وعلى سبيل المثال فى الثقافة الروسية تعتبر جثة لينين رمزاً للثورة الشيوعية، وفى الثقافة الانجليزية تعتبر الملكة رمزاً للقيم والتقاليد البريطانية وفى الثقافة اليابانية يعتبر الامبراطور رمزاً لقيم الشرف التى يعتز بها اليابانيون وعلم كل دولة أن هو إلا رمزاً للولاء لها يحمل فى نفوس أفرادها الكثير من المشاعر العاطفية، والاحتفالات (Cermonies) هى أحد الوسائل التى بها يتم التعبير عن مثل هذه الرموز، والاحتفال هو إجراء رسمى وقور يتأثر المشترك فيه تأثيراً كبيراً بأهمية المناسبة.

ويتضمن الاحتفال عادة ضمن ما يتضمن مجموعة من الأفعال الرمزية (Symbolic) المتناسقة التى تتكرر كلما احتفل بنفس المناسبة، تلك الأفعال الرمزية تسمى بالطقوس (Ceremonies) هذه الأفعال تضفى جواً من الوقار والهيبة وتثير العواطف وتجعل الفرد يشارك الجمع - بلا مجهود وبدون قصد - بأفعاله وأفكاره وعواطفه التى تبدو مناسبة وصحيحة وضرورية فى المناسبة المعينة والاحتفال بكل اجراءاته يؤثر على مشاعر الأفراد وعواطفهم حتى ولو لم يكونوا مدركين للأسباب، والمنطق وراء كل فعل أو حدث، انهم يتأثرون بالجو العام للماسبة الكبيرة.

وجدير بالإشارة أن هناك كثير من المعنويات (abstracts) التى يتيسر أدراك معناها عن طريق مختلف الاحتفالات والاجراءات والطقوس المصاحبة لها. فالدولة يسهل تقريب مفهومها إلى أذهان الناس من خلال الاحتفال بتنصيب رئيسها، والقانون من خلال بروتوكول المحكمة، والله من خلال الاحتفالات بالمناسبات الدينية المختلفة.

الفصل الثالث

تنظيم الثقافة

يتضح من كل ما تقدم أن الثقافة تتضمن مجموعة من التقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين والأشياء المادية المتصلة بها، وقد لجأ علماء الأنثروبولوجي عند تحليلهم لمكونات الثقافة إلى تسمية أصغر عنصر من عناصرها بالسمة الثقافية Cultural trait والسمة الثقافية قد تكون عنصر ثقافي معنوى كتقليد من التقاليد مثل المصافحة باليد أو التحية بهز الرأس او عنصر ثقافي مادى مثل كرافتة أو زرار، وعندما تدخل عدد من السمات الثقافية مع بعضها أى تتصل وتترابط مع بعضها وتكون شيئاً آخر له معنى وله غرض فإنه يطلق على هذا الشئ الآخر بالمركب الثقافى Cultural Complex.

ومجموعة من المركبات الثقافية التى تدور حول اهتمام او هدف عام مشترك منه تشتق معناها قد تتجمع لتكون ما يسمى بالنمط الثقافى Cultural, Pattern ولو أن بعض الاجتماعيين لا يرغبون فى استخدام لفظ نمط ثقافى إلا بالنسبة للأنماط الرئيسية الثقافية مثل النمط الاقتصادى والنمط الأسرى والنمط الدينى.. الخ وفيما يلى بعض الأمثلة لكيفية تنظيم السمات الثقافية فى مركبات وأنماط ثقافية.

السيارة كموكب ثقافى تتكون من سمات ثقافية مادية عديدة مثل الاطارات وعجلة القيادة والبنزين والمقاعد والزجاج وكل جزء من الموتور إلى غير ذلك على ان هذه السمات المادية مرتبطة بسمات ثقافية معنوية أخرى تتمثل فى كل معرفة أو رأى أو فكرة أو اتجاه أو مهارة أو خبرة أيا كانت تكون قد دخلت فى صنع لسيارة أو استخدامها على ان السيارة كمركب ثقافى تتناسق مع مركبات ثقافية أرى مثل الطرق واشارات المرور وقواعد وقوانين المرور، ورجال المرور ومدارس قيادة

السيارات ومحطات البنزين ومحطات تصليح وصيانة السيارات ونوادى السيارات وغيرها لتكون فى مجموعها ما يمكن أن يمثل نمطاً ثقافياً خاصاً بالإنتقال.

ومن الأمثلة الأخرى خاتم الزواج وفستان الزفاف الأبيض والسيارة المزينة بالأشرطة الملونة ورش الملح أو الأرز وارسال بطاقات الدعوة والشربات والحلويات والهدايا الزغاريد كل هذه وغيرها تمثل سمات ثقافية مادية ومعنوية تكون فى المجتمع الحضرى مركب ثقافى هدفه زفاف العروس هذا المركب إلى جانب مركبات اخرى مثل اعداد منزل الزوجية وتنظيم ورعاية البيت وانجاب الأطفال وتربيتهم وغيرها من المركبات ذات المعانى المتصلة ببعضها تكون نمطاً ثقافياً خاصاً بالزواج والحياة الأسرية، وغنى عن البيان انه لا يشترط أن تتضمن كل حالات الزواج نفس العناصر الثقافية ولا نفس المركبات الثقافية فكل زواج يتضمن مجموعة السمات والمركبات الثقافية التى لها معنى فى نظر الناس الذين يشتركون فى مفاهيمهم أى صورة عقلية مشتركة لما يعتبر سلوك او أنماط سلوكية مثالية بالنسبة لعملية الزواج.

من كل ما تقدم يبدو واضحاً أن أى سمة ثقافية مادية أو معنوية لا معنى لها وفائدة منها وحدها أنها تشتق معناها وفائدتها من ارتباطها بسمات أخرى فإذا انتفى هذا الارتباط قد لا يصبح لأى من هذه السمات المنفردة أى معنى أو فائدة فى ضوء الثقافة السائدة فالسمات الثقافية تشتق معناها من التكامل فى مركبات ونفس الشئ يمكن أن يقال بالنسبة للمركبات الثقافية التى تتناسق بدورها فى اطار أنماط ثقافية، وليس معنى ما تقدم أن كل عنصر ثقافى فى أى ثقافة متصل ومترابط تماماً مع كافة العناصر الأخرى بل القصد فقط أن يكون واضحاً أنه من الطبيعى أن لم يكن من الضرورى أن تكون السمات الثقافية (أى العناصر الثقافية) مترابطة ما دامت لا تشتق أهميتها ولا معناها ولا فائدتها إلا م خلال علاقتها بغيرها من السمات الثقافية الأخرى.

ولعل من أهم مشاكل التغير الاجتماعي سواء بالنسبة للأفراد أو الجماعات هو كيف يمكن ادخال تغييرات على بعض العناصر الثقافية دون الإخلال بالعناصر الأخرى العديدة ذات الصلة بها، على أننا نود أن نشير إلىأن وجهات النظر إزاء تنظيم الثقافة فى مركبات أو أنماط قد تختلف من ثقافة لأخرى وتبعاً لوجهات نظر مختلف الأشخاص فقد ينظر البعض فى ثقافة لأخرى وتبعاً لوجهات نظر مختلف الأشخاص فقد ينظر البعض الآخر إليها فى ثقافة أخرى على أنها مركب ثقافى وحتى فى نفس الثقافة الواحدة كثيراً ما تتفاوت آراء الأفراد إزاء ما يعتبرونه سمة أو مركباً أو نمطاً ثقافياً.

وأخيراً نود أن نشير إلى أن مجموع السمات والمركبات وأيضاً النماط والعقائد والقيم والاتجاهات الثقافية المتناسقة والمترابطة والمتكاملة بطريقة معينة تعطى للثقافة فى كل مجتمع خصائص تميزها عن غيرها من الثقافات فى المجتمعات الخرى وكما أن للفرد طابعه (Character) المميز له والذى تحدده صفاته الشخصية فإن لكل مجتمع طابعه (Etho) الذى تحدده مجموعة الصفات المنتشرة فى كل جزء من أجزاء ثقافته.

وقد يكون من السهل نسبياً أن يوصف طابع أى مجتمع إذا ما كان هناك صفة رئيسية تتحكم فى خصائصه مثل الدين أو الشيوعية أو الرأسمالية أو الأشتراكية حيث تكون هذه الصفة هى العامل الرئيسى والقوى الفعالة التى حولها تدور كثير من ألفعال التى تستهدف احداث التكامل (Integration) فى المجتمع أما فى حالة وجود مجموعة من الصفات أى القوى المتضاربة المؤثرة فى ثقافة المجتمع فإنه يصعب بذلك تحديد طابعه.

وثقافة المجتمع أما أن يغلب عليها الطابع المقدس Sacred أو المتطور Secular أو تكون بين هذا وذلك، فالثقافة المقدسة هى تلك التى تنتظم معظم

عناصرها حول مجموعة من العقائد الدينية، مثل هذه الثقافة تكون عادة مستقرة ومحافظة وقليلة التغير وتمنح تقاليدها وعاداتها الشعبية والعرف السائد بها اجابات وتفسيرات محددة وصارمة لمعظم ما يدور فيها من أوجه نشاط فأى شئ يحدث له دوافعه وتفسيراته الدينية وأى انحراف عن الأنماط السلوكية التقليدية المتعارف عليها يتعرض مرتكبه عادة لعقاب شديد أما الثقافية المتطورة فعلى النقيض من ذلك، فيها يقيم كل شئ. ويحكم عليه من وجهة نظر فوائده وهى ثقافة ليست متغيرة فحسب بل أن التغيير شئ مرغوب فيه ويسعى دائماً إلى إحداثه. وينظر إليه عادة على أنه مظهر من مظاهر التقديم.

فى المجتمعات المتطورة يعتقد كثيراً فى أهمية وفائدة العلم والأساليب العلمية فى تفسير الظواهر وفى إيجاد حلول للمشاكل هناك إعتقاد فى أن الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم ومن ثم فأن الأومر يتطلب أن يسعى الناس إلى خدمة أنفسهم بدلاً من الرضى والقنوع بما يعتقدونه قضاءاً وقدراً. وجدير بالذكر أن الكثير من المجتمعات حول العالم كانت حتى القرن الرابع عشر تسودها ثقافات مقدسة إلا أنه منذ ذلك الوقت أخذت بعض تلك الثقافات فى التحول إلى ثقافات متطورة. وعلى الرغم من هذا التحول فأنها لاتزال تحتفظ بالكثير من العناصر المقدسة. فإلى جانب الاعتقاد بالعلم والأساليب العلمية يوجد الاعتقاد بالكثير من القيم والعقائد الدينية وانتهاج السلوك لذى يتمشى معها.

الفصل الرابع

خواص ووظائف الثقافة

بعد أن تناولنا وصف مكونات الثقافة يجدر توضيح بعض خواصها ووظائفها الأساسية كما يجدر الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين الثقافات. ونحن فى هذا المجال لانعنى ثقافة أو مجموعة من الثقافات بعينها وإنما نعنى الثقافة أو الثقافات بصفة عامة.

خواص الثقافة:

١- من الخواص الهامة للثقافة أنها تتعلم وتقتبس من الآخرين بمعنى أنها ليست أشياء موروثة ولا غريزية كما قد يعتقد البعض خطأ أى أنها تنتقل اجتماعياً من جيل إلى آخر، فالفرد يتعلم من غيره من الأفراد فى المجتمع الكثير من الأفعال والأفكار وطرق الشعور كيف يفكر وكيف يسلك وكيف يشعر فى حالات الفرح والحزن والخجل والغضب وغيرها من المواقف، كما ويتعلم الكثير من التعاليم الدينية وأنواع السلوك الدينى الواجب إتباعها فى المساجد أو الكنائس أنه يتعلم المعايير الأخلاقية إزاء ما يعتبر حسناً أو غير حسن جميل أو قبيح، خطأ أو صواباً إلى غير ذلك. والكثير من السلوك الثقافى يتعلم فى السنين الأولى من الحياة.

٢- تعتبر اللغة من أهم خصائص الثقافة وهى فى نفس الوقت من مكوناتها المعنوية. واللغة وسيلة هامة من وسائل الاتصال الثقافى والتى بدونها يصعب نقل الثقافة من أفراد إلى آخرين. هناك مئات من اللغات واللهجات لناس فى المجتمعات المختلفة حول العالم واللغة هى النظام لتعبيرى لمجموعة من الرموز Symbals التى أنتجها أو توصل إليها الإنسان والتى لها معانى محددة فى كل

مجتمع، وهى سلوك اجتماعى مشترك بين متكلم أو كاتب ومستمع أو قارئ أى تتضمن اتصال أثنين أو أكثر من الناس. وحتى لو كان الإنسان يقرأ كتاباً لمؤلف فأن هذه القراءة تعنى اتصال أو انتقال الأفكار من شخص لآخر. وللغة استخدامات شتى منها الكلام أى الحديث مع الآخرين، ومنها الكتبة وبواسطتها يعبر الإنسان عن ما يجول فى عقله من أفكار ومعارف أو يشير إلى مختلف الأشياء أو يعبر عن شعوره فى المواقف المختلفة. بالطبع ليست كل عملية نقل للآراء والأفكار تتطلب كلمات إذ قد يمكن بدون كلمة تقال أن يفهم الإنسان ما يقصده إنسان آخر وقد يستطيع الإنسان أن يحرج شخص أو يجعله يشعر بالخجل لشديد دون كلمة وحدة غير أنه من الجائز أن يحدث سوء فهم ولبس كبيرين أو خطأ أو عدم دقة أثناء عمليات نقل الأفكار بدون كلمات، فالإنسان لايرى ولايسمع ولايشم الأفكار بطريقة مباشرة وإنما يتعرف عليها عن طريق التعبير عنها باللغة أو ما يتفق عليه من علامات أو إشارات معينة.

واللغة وسيلة هامة لفهم الثقافة والمجتمع والشخصية وعن طريقها يستطيع الإنسان أن يوضع علاقته بالآخرين. فكلمات مثل الأب أو الزوج أو الزوجة أو الإبن أو العدو أو الواعظ كلها ألفاظ لها معنى محدد بالنسبة للأفراد التى تقوم بينهم علاقة اجتماعية كما أن العلاقات الاجتماعية المركبة والمعقدة تبنى على أساس هذه التعاريف الكلامية. وبفضل اللغة المكتوبة إستطاع الإنسان والمجتمع أن يجمع ويخزن ويحتفظ بثقافته ويخلق مدنيات عريقة. وكل لغة تضم آلاف الألفاظ التى تعكس الخبرات المشتركة للناس واهتماماتهم وتاريخهم ولما كانت خبرات الناس واهتماماتهم تتفاوت من ثقافة لأخرى فأنه لاغرابة إذا كانت الألفاظ التى تتضمنها كل لغة مختلفة من حيث العدد والمعنى.

فثقافة الأعراب فى الصحارى مليئة بالألفاظ المتعلقة بالجمال والخيام والرحيل والكرم والطقس والرمال وغيرها، وثقافة المجتمع الإنجليزى مثلاً مليئة

بالألفاظ ذات الصلة بالبحار والسفن والطقس والصيد وغيرها. ونظراً لأن اللغة فى أى ثقافة هى انعكاس لخبرات الناس واهتماماتهم ونظراً لأن خبرات الناس واهتماماتهم حتى داخل المجتمع تتفاوت من منطقة لأخرى ومن طبقة اجتماعية لأخرى فأنه لا غرابة إذا ما تفاوت الناس فيما يلمون به من الألفاظ التى تضمها لغتهم. فكل جماعة من الناس لهم خبرات واهتمامات مشتركة أو متشابهة يتكلمون نفس اللغة تقريباً. وليس هناك عادة من الأفراد من يستطيعون الإلمام بكل ما تتضمنه لغتهم من الألفاظ ذات معانى مختلفة.

وكل لغة تقدم للطفل الذى يتعلم ثقافة مجتمعه طريقة جاهزة ومميزة للنظر للنظر إلى الأشياء الموجودة فى الكون الطبيعى والاجتماعى الذى يعيش فيه وذلك من خلال الكثير من المصطلحات والمسميات لمختلف الأشياء المادية والمعنوية. فمثلاً الطالب كمصطلح كلمة تعزل وتوضح صفة من الصفات الشخصية التى يشترك فيها الشخص مع أشخاص آخرين رغم أن مجموعة الطلبة يختلفون عن بعضهم البعض فسيولوجيا وذكائياً وشكلياً بل وحسب صفات أخرى عديدة. وبعض المصطلحات اللغوية كثيراً ما تعنى أكثر من مجرد الدلالة على معنى لشئ معين، كثيراً ما يكون لها إلى جانب ذلك معنى عاطفى أو تاريخى.

وعلى سبيل المثال لفظ الأم أو البيت أو الديمقراطية كل هذه المصطلحات لها مفهوم ومعنى أكثر من المعنى الحرفى للكلمة. وجدير بالذكر أن بعض الناس كثيراً ما يلتبس عليهم معنى بعض المصطلحات وعلى سبيل المثال يميل البعض إلى التفكير فى بعض المعنويات وكأنها أشياء مادية. ولقد سبق أن أشرنا إلى ذلك عند الحديث على الثقافة كمصطلح من المصطلحات التى يحدث إزائها مثل هذا اللبس الأمر الذى يجعل علماء المجتمع يحرصون عند الكلام على الثقافة إلى تأكيد معنوية مضمون هذا المصطلح الذى يعتبر استخدامه مفيداً للغاية فى فهم السلوك انسانى والأنماط السلوكية الثقافية.

على أن هناك أشياء وأفعال وأحداث وصفات كثيرة تعمل كعلامات أو إشارات Signs لشئ آخر، هذه العلامات عندما يكون هناك اتفاق بين الناس على معناها فأنها تكون لغة للتفاهم. فاللون الأحمر لإشارة المرور معناه أن على السائق أن يقف منعاً للخطر والمؤشر الدال على قرب نفاذ البنزين من السيارة معناه أن على السائق أن يسرع فى تزويد السيارة بالبنزين. ولعلنا جميعاً نعرف أن هناك إشارات كثيرة لها معانى معروفة لدى الناس فتجهم الوجه معناه الغضب، والابتسامة معناها الرضا أو السرور. وهناك إشارات كثيرة تعنى الألم وأخرى تعنى الحزن كما فى حالة لبس كرافته أو رداء أسود وأخرى تعنى الفرح كما فى حالة إرتداء الملابس البيضاء المزينة.

والعلامات أو الإشارات (Signs) نوعين نوع يشتق معناه من موقف طبيعى معين وتسمى Natural Signs كما هو فى حالة تجهم الوجه فى موقف مثير للغضب أو انفراج السريرة فى موقف يبعث على السرور أما النوع الآخر فهى تلك العلاقات التى يتفق الناس على معنى موحد مشترك إزائها بمحض اختيارهم وتسمى Conventional من أمثلة هذه العلامات التلويح للآخرين باليد لعلامة الانصراف والإشارة بأصبع اليد فى إتجاه معين تعنى أنظر هنا، وهناك حركات كثيرة يمكن تأديتها باليدين تمثل علامات مفهومة (أى لغة مفهومة) كما هو الحال بين الصم والبكم. أفراد بعض القبائل البدائية يستخدمون الكثير من هذه الإشارات المعروف معناها لهم.

وليس بالضرورة أن تكون العلامات المستخدمة فى ثقافة معينة لها نفس المعنى - أن وجدت - فى ثقافة أخرى. وعلى سبيل المثال هز الرأس إلى أسفل قد يكون فى ثقافة ما علامة الموافقة وفى ثقافة أخرى علامة الرفض أى عدم الموافقة، والثعبان قد يكون فى ثقافة ما علامة الشر وفى ثقافة أخرى علامة الخصوبة. وهكذا

تختلف معانى العلامات من ثقافة لأخرى لأنها كما سبق أن أوضحنا اتفاق اختيارى مشترك بين جماعة من الناس مفهومها واضح محدد بالنسبة لهم.

ولئن كانت العلامات كما تبين من كل ما تقدم وسيلة من وسائل التفاهم والاتصال إلا أن اللغة المنطوقة أفضل من لغة العلامات لأن اللغة المطوقة يمكن عمل رموز كثيرة جداً ومختلفة منها للتعبير عن مختلف الأشياء بطرق أدق سواء عند وصف طبيعتها أو نوعها أو غير ذلك، كما أن اللغة المنطوقة يمكن استخدامها فى الظلام مع تحرير الأيدى والعينين لأعمال أخرى. واللغة المنطوقة لم تأتى فجأة بل حدثت تدريجياً وربما على مر آلاف من السنين من التور التى خلالها تمت عمليات كثيرة تحولت فيها الأصوات التى تعنى وترمز إلى أشياء معينة إلى كلمات ثم ربط الكلمات فى جمل لها معنى معين. وكلما توصل الإنسان إلى كلمات جديدة أحلها محل الإشارات المستخدمة فى التفاهم حيث تؤدى المعنى بطريقة أدق وأوضح على أن العلامات Signs لاتزال مستخدمة إلى جانب اللغة المنطوقة كلمة التفاهم.

٣- الصفة الثالثة والهامة من صفات الثقافة أنها تتكون من المعنويات الممثلة فى مجموعة الأفكار والآراء التى توجد فى عقول الناس وليست السلوك الفعلى بكل تعبيراته ف المجتمع. أنها مجموعة المفاهيم المشتركة عن ما يعتقد أنه أصح أو أنسب طرق التفكير والشعور والقول والفعل فى المواقف المعينة. هذه المفاهيم المشتركة هى ما عبر عنها قبلاً بالتقاليد والعادات الجماعية المثالية Social Norms أو الأنماط المثالية Ideal Patterns ولو أن هذه الأنماط المثالية قد تختلف أحياناً عن الأنماط الحقيقية Real Patterns أى المتبعة فعلاً.

الثقافة تعطى معنى وتلصق قيماً للأشياء والأفعال وتوضح أهميتها بالنسبة للسلوك الإنسانى ولو أن كثيراً من السلوك المرئى قد لاتعبر تعبيراً واضحاً عن الثقافة، فالسائح قد يرى الشخص الذى يصلى يركع ويسجد ويقف لكه لايستطيع أن

يرى القيم الدينية التى خلف هذ السلوك الثقافى وبالتالى قد لايستطيع أن يفسر ما يراه التفسير الواضح الصحيح، ربما يعتقد أن ما يقوم به الشخص هو نوع من النشاط الرياضى وليس نوع من السلوك الدينى.

ولقد سبق أن أكدنا أن الماديات الثقافية هى ناتج من نواتج الثقافة وليست أجزاء منها فالثقافة هى التى تعطيها معانى وقيم ولقد دلل جون بيزانز على ذلك بقوله أنه لو فرض وأن حربا بالجراثيم أبادت كل فرد فى مجتمع ما تراه فقط الأشياء المادية الثقافية كالمسكن والمصانع والملابس ولمأكولات والأدوات والمعدات وكافة الأجهزة وكافة المنتجات لانستطيع القول ـ حتى ولو أن أشخاصاً آخرين أخذوا هذه الأشياء ـ أن الثقافة التى كانت موجودة لاتزال باقية. ذلك لأن معانى الأشياء والقيم لمرتبطة وأنماط السلوكية المصاحبة لها كالمهارات السلوكية المصاحبة لها كالمهارات والاتجاهات والقدرات والأفكار والمعارف والتقاليد والعادات والعرف الخاص بالناس الذين يحملون هذه الثقافة ذهبت معهم ربما فقط نستطيع أن نتعرف على بعض نواحى ثقافتهم من الأشياء المادية التى تركوها أو من كتاباتهم المسجلة وهذا ما يفعله علماء الأركيولوجى فى محاولاتهم للتعرف على الثقافات القديمة عن طريق دراسة ما تركه الناس من أشياء مادية إلا أنه من المحتمل أن يحدث خطأ فى تفسير أسباب وجود هذه الماديات الثقافية لأن القيم المرتبطة بها والنمط من السلوك الذى كان مصاحباً لها غير معروف على وجه الدقة.

٤- تتصف الثقافة بأنها تلك العادات المشتركة لجماعة الاجتماعية. وأفراد الجماعة سواء أكانوا المجتمع بأكمله أو جماعة صغيرة منه كطبقة اجتماعية أو جماعة عنصرية او سكان منطقة جغرافية يشتركون اجتماعياً فى ثقافتهم. وكما أن للمجتمع لعام ثقافة مشتركة فقد يكون لبعض الجماعات لصغيرة داخلة ثقافات مميزة يطلق عليها Sub-Cultures والثقافة كما سبق ان أوضحنا تتكون من

عناصر كثيرة جداً وليس فى قدرة أى فرد فى المجتمع أن يلم بكل ما يوجد بثقافته من مكونات وإنما يشترك فيها بقدر كبير أو قليل على أنه مهما كان الشخص ملماً بكثير من المعرفة ولديه العديد من المهارات والقدرات فأن كل ذلك لايعد وان يكون شطراً ضئيلاً جداً مما تتضمنه ثقافته من عناصر مختلفة.

لايوجد أى فرد فى المجتمع فى استطاعته مثلاً أن يلم بكل لمعارف التى لدى الأدباء والموسيقيين والعلماء والأطباء وربات البيوت والسباكين والحدادين والنجارين والمزارعين والصناع والتجار وجامعى القمامة وغيرهم من الجماعات فى المجتمع. حقيقة أنه فى المجتمعات البدائية قد يكون الشخص قادراً على أن يلم بشطر كبير نسبياً من مكونات ثقافته البسيطة إلا أن ذلك غير ممكن بالمرة فى المجتمعات المتقدمة ذات الثقافات المعقدة والتى تتضمن عناصر كثيرة جداً يتعذر على الفرد أن يعرف إلا شطر ضئيل جداً منها.

ويمكن تقسيم العناصر الثقافية التى يشترك فيها أفراد المجتمع إلى نوعين أحدهما عام والآخر خاص. فأما العناصر الثقافية العامة فتتمثل فى تلك العادات والتقاليد الاجتماعية المشتركة كالمفاهيم وردود الأفعال العاطفية والقيم الاجتماعية الأساسية والأنماط النموذجية للعلاقات الاجتماعية (Social Norms) ومن أمثلتها اللغة والعقائد الدينية ونظام الزواج وحقوق لملكية والحرية وأيضاً الديمقراطية وغيرها من العناصر الثقافية الكثيرة التى يشترك فيها كافة أفراد المجتمع، أما العناصر الثقافية الخاصة فهى تلك العناصر التى تشترك فيها جماعات معينة فالأطباء لهم ثقافتهم الخاصة وكذلك المحامين والفنانين والعلماء والعمال.

وبالمثل فأن الجماعات فى الطبقات الاجتماعية المختلفة والجماعات فى بعض المناطق الجغرافية المحلية لهم أيضاً ثقافاتهم الخاصة. والعناصر الثقافية الخاصة تتضمن مجموعة المعارف والمهارات والقدرات التى يتمتع بها فقط الأفراد

الذين ينتمون إلى جماعة معينة. وكما يشترك أفراد المجتمع عناصر ثقفتهم العامة فأن أفراد جماعة معينة يشتركون ويتقاسمون عناصر ثقافتهم الخاصة وكلا النوعين من العناصر الثقافية العامة والخاصة مقبولة فى المجتمع طالما أنها تتمشى مع العرف والتقاليد والعادات لشعبية وأيضاً القوانين لسائدة به.

وجدير بالذكر أن المجتمعات المتقدمة ذات الثقافة المعقدة لديها الكثير من العناصر الثقافية التى يطلق عليها عادة بالعناصر البديلة أو الاختيارية. ومن أمثلة العناصر الثقافية البديلة الأشياء المتعلقة بطرق الانتقال فالشخص فى المجتمع العصرى الذى يرغب فى الانتقال من مكان لآخر يجد أمامه أشياء ثقافية كثيرة يختار من بينها ما يريد فأما يستخدم القطار أو السيارة أو الطائرة أو الدواب أو غير ذلك. وبالمثل يمكن أن يقال أنه لشغل وقت فراغه قد يختار واحداً أو أكثر من الطرق العديدة التى تمنحها ثقافته فقد يفضل قراءة كتاب أو الذهاب إلى السينما أو المسرح أو سماعه موسيقى أو ممارسة رياضة معينة إلى غير ذلك من أوجه النشاط الثقافى الاختيارى.

المجتمعات البسيطة لديها قلة من هذه العناصر البديلة أو الاختيارية. وربما يكون ذلك ولو جزئياً أحد الأسباب التى تجعل الأفراد فى المجتمعات ذات الثقافة البسيطة يشتركون بدرجات أكبر فى ثقافتهم أى يتشبعون بدرجة أكبر بما فى ثقافتهم من عناصر ثقافية على عكس الحال فى المجتمعات ذات الثقافات المعقدة حيث لايلم حتى أكثر الأفراد تعليماً إلا بشطر ضئيل جداً مما فى ثقافتهم من عناصر ثقافية.

٥- من خواص الثقافة أنه يمكن الاحتفاظ بأى من عناصرها وتجميعها وأنه رغم أنها مستمرة ومستقرة فهى فى نفس الوقت متغيرة فالثقافة ليست من صنع فرد ولا مجموعة من الأفراد ولا جيل من الأجيال فالثقافة المعاصرة فى أى مجتمع هى ذلك التراث الذى تناقله الناس والذى ربما يرجع بعض عناصره إلى ما قبل

التاريخ. فعلى سبيل المثال يقال أن استخدام النار واستخدام الحجارة كآلات لقطع الأشياء ترجع إلى حوالى مليون عام قبل مولد المسيح، وبعض العناصر الأخرى مثل الإقامة فى الكهوف ودفن الموتى واستخدام خشب الأشجار فى صنع مختلف الأشياء والرسم والزخرفة واختراع العملية الدائرة والروافع واستخدام المسارب المائية وتطوير وسائل الصيد والقنص كلها وغيرها حدثت قبل بداية التاريخ الميلادى بأكثر من عشرة آلاف عام. ويقال أن الإنسان بدأ ممارسة الزراعة واستئناس الحيوانات منذ حوالى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد.

والانتقال من مرحلة الصيد والقنص وجمع الثمار البدائية من الغابات إلى مرحلة الزراعة يعتبر من أهم التطورات الاقتصادية والاجتماعية فى تاريخ الحياة البشرية ذلك أن الإنسان بدأ يقيم بصفة دائمة فى مجتمعات محلية ويكون علاقات اجتماعية دائمة ومنتظمة بغيره من الناس وبدأ يشعر بالأمن والاستقرار الاقتصادى والاجتماعى وأصبح فى قدرته إنتاج وفرة من الغذاء وتخزين الزائد من حاجته إلى وقت الشدة. وبعد أن أستقر الإنسان فى أماكن معينة بعد فترة طويلة من التنقل والترحال، وبعد أن شعر بالأمن الاقتصادى والاطمئنان الاجتماعى حول جزءاً من مجهوداته إلى خلق عناصر ثقافية مختلفة فبعض العناصر الثقافية كصهر المعادن والحروف الهجائية والقراءة والحساب والفلك والكثير من العقائد الدينية والنظم الاجتماعية والخلقية والفنون التقليدية بل والخرافات ترجع إلى أبعد مما يفكر الإنسان.

ويرجع السبب فى استمرار بعض العناصر الثقافية منذ آلاف السنين إلى الوقت الحاضر هو أنها تنتقل من جيل لآخر فالأباء ينقلون إلى أبنائهم ما توصلوا إليه من عناصر ثقافية مع لتأكيد بأهمية بعضها. ومن ثم فأن العناصر الثقافية خاصة التى لابديل لها تستمر فى البقاء حيث يجد الإنسان عادة راحة وطمأنينة فى إتباع الأساليب التقليدية فى آداء الأشياء ويميل إلى مقاومة الجديد منها ويعزف عن التغيير

خاصة كلما كبر فى السن ورغم استمرار الثقافة فأن مكوناتها يطرأ عليها تغيرات باستمرار، تلك التغيرات قد تكون قليلة وبسيطة كما هو الحال فى المجتمعات البدائية المنعزلة أو قد تكون كبيرة كما هو الحال فى المجتمعات العصرية المعقدة والمتطورة ففى هذا النوع الأخير من المجتمعات تكاد تختلف ثقافة كل جديد عن سابقه اختلافات كبيرة.

٦- وأخيراً لعل من الأهمية أن نشير إلى ما سبق أن أوضحناه من أن الثقافة ليست مجرد مجموعة من العناصر الثقافية المعنوية والمادية المرتبطة بها. قد يكون من السهل لغرض الدراسة تصوير الثقافة على هذا النحو غير أن حقيقة الأمر غير ذلك أن هذه العناصر منظمة فى صورة مركبات وأنماط ثقافية لتحقيق أغراض أى وظائف معينة على أن الشئ الذى يجب أن نضيفه فى هذا المجال هو أن الثقافة تميل إلى التكامل (Integration) أى بمعنى أن العناصر الثقافية سواء فى صورة مركبات أو أنماط تميل إلى أن تتكيف مع بعضها على أن هذا التكيف قليلاً ما يكون تاماً ومن ثم فأنه كثيراً ما تحدث الخلافات والمنازعات والمصادمات بين مكونات الثقافة خاصة وأن بعضها سريع التغير عن البعض الآخر الأمر الذى يخل بالتوازن الذى قد يتوصل إليه فى وقت معين.

والتكامل والاستقرار الثقافى مسألة نسبية ذلك لأن وجود الخلافات والصراعات والمنازعات شئ لابد منه فى كل ثقافة وأن كان أمراً غير مرغوب فيه. أن كل ما يهم أن لايجب أن تصل درجة هضم الخلافات والصراعات والمنازعات إلى الحد الذى يحدث حالة كبيرة من عدم التكامل أى حالة شديدة من التفكك وعدم التنظيم. ولحسن الحظ أن بكل ثقافة من القيم والعقائد والأيدلوجيات والتقاليد والعادات ما يساعد على تماسك الثقافة وتكاملها ومن ثم يمكن القول أن من خواص الثقافة أنها منظمة ومتكاملة.

وظائف الثقافة:

تخدم الثقافة لإنسان والمجتمع عن طريق آدائها لعديد من الوظائف الهامة والتى من بينها ما يلى:

١- تقدم الثقافة للإنسان تعرفاً لما يوجد فى بيئته الاجتماعية والطبيعية من أشياء معنوية ومادية ووصفاً محدداً لطرق السلوك والتفكير والشعور التى يجب إتباعها فى المواقف المختلفة، فالإنسان عند الولادة يكون مجرد كائن بيولوجى لايدرى شيئاً عن ما يحيط به من أشياء غير أنه عن طريق الجماعات الإنسانية المحيطة به يبدأ فى التعرف على الأشياء كما عرفته وحددتها ثقافة وإذا ما سأل أى فرد عن أسباب يلوك أو فعل معين أو طريقة تفكير أو شعور معينة تكون الإجابة عادة أن ذلك ما يجب أن يكون أو أن ذلك هو السلوك أو الفعل أو الطريقة المقبولة والمتوقعة. فالثقافة تقدم للمشتركين فيها تعاريف جاهزة لمعنى الأشياء والأفعال فهى تحدد ما يعتبر طبيعى أو غير طبيعى، منطقى أو غير منطقى، أخلاقى أو غير أخلاقى، مهم أو غير مهم، جميل أو قبيح، حسن أو غير حسن، كل هذه وغيرها من التعاريف يشتق من الثقافة السائدة.

وكل ثقافة لها تعاريفها الخاصة بالأشياء والأفعال، وليس بالضرورة أن ك ما يعتبر طبيعى أو مهم أو جميل أو حسن أو أخلاقى فى ثقافة معينة يعتبر كذلك فى ثقافة أخرى على أن الثقافة تقدم للإنسان فى نفس الوقت تفسيرات عن أصل الأشياء مثل أصل الإنسان أو أصل الكون ودور الإنسان فيه. هذه التفسيرات قد تكون خرافية أو نصف علمية أو علمية. على أنه أياً كان نوع هذه التفسيرات فهى تجيب على تساؤلات الأفراد إزاء ما يحيط بهم من أشياء أو يدور حولهم من أفعال.

ولما كان الإنسان عادة يتقبل معظم تعاريف ثقافته وتعاليمها فأنه كثيراً ما يشعر بما يسمى براحة الضمير فى حالة إتباعه لها وتأنيب الضمير فى حالة مخالفته

اياها. والضمير ليس شئ فطرى وإنما هو شعور وإحساس ثقافى إزاء ما تعارفت عليه الجماعة الإنسانية على أنه صواب أو خطأ فالقيم والمعايير الجماعية عندما تصبح جزءاً من التفكير العقلى للإنسان ومن شخصيته فأن مخالفتها تكون مصحوبة بشئ من الخجل أو الشعور بالذنب أو الألم النفسى حتى لو حاول الإنسان أن يتلمس بعض المبررات لانحرافه عنها. والضمير من القوى المعنوية الكبيرة التى تسيطر على سلوك الإنسان والتى تجعله يقوم أو لايقوم بسلوك أو أفعال معينة.

وعلى سبيل المثال فى بعض الثقافات العلاقات الجنسية قبل الزواج لايصاحبها تأنيب للضمير على عكس الحال فى ثقافات أخرى والأفراد فى بعض الثقافات تؤنبهم ضمائرهم إذا تناولوا أطعمة معينة أو تناولوها فى أيام هى فيها محرمة، وفى الكثير من الثقافات يجد الأفراد أن ضمائرهم عادة ما تؤنبهم إذا قتلوا و سرقوا أو كذبوا أو أعتدوا على أعراض الأخرين، ومن لم يفعل منهم ما يتعارض مع تعاليم ثقافته يشعر عادة برضى نفسى وراحة ضمير. ومن كل ما تقدم يتضح أن الثقافة تقوم بوظيفة تعريف الإنسان بما يوجد فى مجتمعه من معنويات وماديات وتوضيح ما يجب وما لايجب من طرق سلوك وتفكير وشعور فى المواقف المختلفة وبذا فهى تساعد الإنسان على أن يتكيف مع ظروف بيئته لاجتماعية والطبيعية.

٢- تساعد الثقافة لإنسان على أن يقابل احتياجاته ورغباته من السلع والخدمات وتعمل على زيادة استمتاعه منها. فالإنسان ككائن بيولوجى يحتاج إلى أشياء كثيرة كالطعام والشراب والملبس وإلى إشباع ورغباته الجنسية وغير ذلك. ولايعرف الطفل كيف ومتى وأين يستطيع أن يشبع احتياجاته ورغباته كما أنه ليس فى إستطاعته أن يشق طريقه فى إكتشاف الطرق الكفيلة بمقابلة هذه الاحتياجات والرغبات. تقوم الثقافة بهذه المهمة فهى تقدم للطفل الأنماط الثقافية أى الطرق المقبولة والمتعارف عليها من السلوك والتفكير والشعور التى فى ظلها يستطيع أن يقابل احتياجاته ويشبع رغباته، فالثقافة توضح له أنواع الأغذية التى

يتناولها والتى لايتناولها، أنواع المشروبات التى يتعاطاها والتى لايتعاطاها أنواع الملابس التى يرتديها والطريقة المقبولة لمقابلة وإشباع رغباته الجنسية وغيرها من الرغبات الأخرى العديدة. كل ذلك يتم عن طريق التعليم والتلقين.

الإنسان يتعلم ويقتبس من الأباء والأمهات وغيرهم من الجماعات الإنسانية التى يشترك فى عضويتها ما فى ثقافته من أساليب وطرق لمقابلة احتياجاته ورغباته. واللغة هى أحد الوسائل التى عن طريقها يعلم الأباء والأمهات أبنائهم كيفية مقابلة احتياجاتهم ورغباتهم وكما أنها الوسيلة التى بها يعبر الأطفال عن شعورهم بالنسبة لما يحتاجون إليه من أشياء. عملية التعليم والتعلم هذه بالنسبة للأحتياجات والرغبات عملية معقدة جداً ولكنها تتم تدريجياً من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية.

على أن الثقافة لاتساعد فقط على إشباع احتياجاته ورغباته ولكنها تعمل على زيادة سعادته واستمتاعه عن طريق بناء وخلق مجموعة من التقاليد والعادات والقيم والعقائد والظروف والمناسبات التى تساعد على ذلك. لم يعد ذلك الإنسان مثلاً ليكتفى بأن يقابل احتياجاته البيولوجية للغذاء بأن يقتلع النباتات من الأرض ويتناولها كما هى وإنما يجرى عليها عادة الكثير من عمليات الإعداد التى يصل بعضها أحياناً إلى درجة علية من التعقيد بحيث تتغير شكل السلعة الغذائية كثيراً عن شكلها الأصلى، كما لايكتفى بمجرد تناوله للغذاء بعد إتمام إعداده وإنما يهتم بطريقة تقديمه وبكيفية تناوله بل وبطريقة الجلوس أثناء تناوله. أخترع فى بعض لثقافات لكل ذلك أدوات الأعداد من أفران وثلاجات وأدوات منزلية عديدة كما أخترع الموائد وأدواتها وتفنن فى إعداد وتزين حجرات الطعام كل هذه الأشياء الثقافية تستهدف زيادة الاستمتاع بالغذاء على أنه فى بعض الثقافات الأخرى تتم زيادة الاستمتاع بالغذاء من خلال الاحتفالات بالمناسبات المختلفة أو الصيام ثم الإفطار أو غير ذلك من التقاليد والعادات الشعبية.

وما يقال عن الغذاء يمكن أن يقال منه عن الكساء، لم يعد الإنسان يرتدى الملابس لمجرد العفه أو إتقاء شر البرد وإلا كانت أشياء كثيرة وبسيطة تصلح لتحقيق ذلك رغبة الإنسان فى الاستمتاع بالملبس جعلته يتفنن فى صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والمنسوجات الصناعية بل وحباً منه فى إستمرار الاستمتاع وزيادته أخترع الموضات التى تتغير من أن لأخر والتى حولت عملية الكساء إلى عملية ذات قيمة اجتماعية وسعادة للإنسان.

لقد ابتعدت الملابس فى بعض الثقافات كثيراً عن ان تكون مجرد أكسبه مقابلة احتياج بيولوجى إلى كونها أشياء ثقافية يفخر بها الإنسان ويشعر بالسعادة لارتدائها. بعض الأكسية لاتكاد تقى برداً ولا حراً ولاتتمشى موضتها مع ما يرجى من العفة ومع ذلك فهى تشبع رغبة وسعادة لمن يرتديها. بالمثل يمكن أن يقال أن لثقافة ربما تفرض قيوداً على العلاقات الجنسية بين الأفراد بما خلقته من الأنماط الثقافية (تقاليد وعادات شعبية وعرف وقوانين) المصاحبة لكيفية وطريقة إشباع هذه الرغبة البيولوجية لتزيد من شعور لأفراد بالحاجة إلى إشباع هذه الرغبة ومن استمتاعهم عند مقابلتها.

على أن الثقافة كثيراً ما يتعدى دورها خلق الأنماط لثقافية التى تساعد على إشباع احتياجاته ورغباته وزيادة استمتاعه إلى استمرار خلق الشعور لديه بالحاجة إلى الكثير من السلع والخدمات الجديدة. هذه الاحتياجات والرغبات قد لا تكون ضرورية من الناحية البيولوجية كالاحتياجات إلى الغذاء والكساء والمأوى وما شابهها ومع ذلك فأن الإنسان خاصة فى الثقافات المتقدمة والمتطورة وبالأخص فى المجتمعات الحضرية - كثيراً ما يشعر بأهميتها وضرورة مقابلتها. انظر مثلاً إلى إحتياج بعض الرجال إلى تدخين السجاير أو تناول بعض المشروبات وانظر إلى إحتياج النساء إلى أدوات الزينة وإلى إشباع النواحى الجمالية سوف يتبين أن هذه الاحتياجات والكثير مما يشابهها تعتبر مهمة فى ظل الثقافة السائدة.

وجدير بالذكر أن الكثير من الأفراد فى المجتمع أحياناً ما يشعرون بحاجة قوية لإشباع رغبة مثل إمتلاك سيارة أو منزل عصرى أو جهاز تليفزيون و تقلد منصب إدارى أو تحقيق نجاح فى العمل أو جمع ثروة أو غير ذلك من الاحتياجات ربما الكثير منهم يشعر باحتياج بيولوجى مثل إشباع الرغبة الجنسية. والثقافة هى التى تعمل على خلق هذا الشعور القوى أحياناً والخاص بهذه الاحتياجات والرغبات غير البيولوجية. لم يشعر الكثير من الأجداد بالحاجة الملحة لإمتلاك الكثير من السلع والرغبة فى الحصول على الكثير من الخدمات التى تحس بها الأجيال الحاضرة ذلك لأن ثقافتهم لم تكن فيها مثل هذه السلع والخدمات أو لم تكن لتعطيها قيماً عالية كما هو الحال فى الثقافة المعاصرة حيث قد يشعر الفرد أنه بائس وفقير لعدم قدرته على امتلاك بعض الأشياء الثقافية التى كانت تعتبر فيما مضى من الكماليات إلا أنها أصبحت حالياً فى ظل الثقافة السائدة من الضروريات.

٣- تعطى الثقافة للحياة معنى وللوجود وغرض معين فالإنسان عن طريق ما يقتبس من القيم وما يتبنى من الأهداف يصبح لديه آمال وتطلعات يسعى إلى تحقيقها ومن أجلها يعيش ويستمتع بالحياة حقيقة أن الناس فى كل ثقافة يختلفون فى قيمهم وفى اهتماماتهم وفى آمالهم وتطلعاتهم إلا أن وجود هذه المعنويات الثقافية رغم اختلافها هى التى تعطى للحياة الإنسانية والوجود معنى ذات قيمة وأهمية. ففى بعض الثقافات قد يتركز نشاط واهتمامات الناس حول ملكية السلع المادية أو تجميع الثروات، وفى ثقافات أخرى حول النواحى الروحية والدينية لغرض الخلاص والغفران، وفى ثقافات أخرى حول اللهو والمرح والاستمتاع بكل لحظة فى الحياة ومع ذلك فالكل يشعر أن ليست للحياة معنى بدون ما يقومون به من أوجه نشاط.

٤- تقوم الثقافة بدور هام فى إكساب الأفراد الكثير من الصفات الشخصية التى تمكنهم من أن يتكيفوا لظروف المجتمع الذى يعيشون فيه. وكل ثقافة لديها

وسائلها الخاصة فى تدريب الأفراد على القيام بمختلف الأدوار واحتلال المكانات الاجتماعية إذ تضع توصيفاً لما يجب أن يتوافر من صفات شخصية لدى الأفراد على اختلاف منهم وأعمارهم وأجناسهم فتعرف مثلاً من هو المزارع الناجح؟ من هى ربة البيت الناجحة؟ من هو الزوج المثالى؟ من هو المواطن الصالح؟ الصفات الشخصية لكل هؤلاء وغيرهم تتوقف على المفاهيم والقيم السائدة المعينة. والثقافة إلى جانب ذلك تؤثر على اهتمامات الفرد وتحدد ذوقه وكيفية إدراك للأشياء بصفة عامة كما وأنها توجه وتقود عواطفه نحو المتعارف عليه من الشعور فى المواقف المعينة بل أنها تحدد الطريقة التى يسلكها الإنسان فى التعبير عن عواطفه وكما تحدد إلى درجة كبيرة آمال الإنسان وتطلعاته فأنها تحدد أيضاً مخاوفه ومن ثم فأنها تلعب دوراً هاماً فى تشكيل شخصيته.

ولقد شبه بعض العلماء العلاقة بين الثقافة والشخصية بالعلاقة بين الغذاء وجسم الإنسان الإنسان فلو أن الغذاء غير صحى أو فقير فى عناصره فأن ذلك يسفر لا محالة عن جسم هزيل تهدده أبسط الأمراض أما إذا كان غذاءاً صحياً متكامل العناصر فسوف يؤدى إلى تكوين جسم قوى ذو قدرة على مقاومة الأمراض. فالثقافة كالمحلول الغذائى بالنسبة للشخصية إذا كانت عناصرها فقيرة فأنها تؤدى إلى خلق شخصيات هزيلة ضعيفة الإرادة وإذا كانت عناصرها غنية فأنها تؤدى إلى خلق شخصيات قوية ذلك لأن الثقافات الغنية بعناصرها تمنح فرصاً وتحديات وخبرات أكثر من الثقافات الفقيرة على أن هذا لتشبيه لايجب أن يعنى سوى أن الثقافة تعتبر عاملاً هاماً من حيث مدى تأثيرها على شخصية الأفراد فى المجتمع لكن الأفراد ليسو مسلوبى الإرادة أى فى الموقف السلبى الذى تملى فيه الثقافة كل خواص شخصياتهم دون أن يكون لهم أى دخل فى ذلك.

الحقيقة أن الأفراد يقع عليهم عبء ودور هام فى تشكيل شخصياتهم أى فى إكسابها خواص وصفات معينة فالثقافة مهما كانت غنية فى عناصرها إذا لم يستغل

الإنسان فرصة وجود هذه العناصر ويستفيد منها فأن غناها بالعناصر الثقافية يصبح قليل الفائدة بالنسبة للشخصية بالضبط مثل الشخص الذى يوجد فى حوزته الكثير من العناصر الغذائية المفيدة غير أنه لا يعرف كيف يستفيد منها ويركن إلى إتباع نمط غذائى من عناصر محدودة فقيرة فى قيمتها الغذائية، مثل هذا الشخص يكون قد أضاع على نفسه فرصة كان من الممكن أن يستغلها لصالحه. فالإنسان ذو العقل الراجح المتزن هو الذى يلجأ إلى الاستفادة بكل ما تمنحه ثقافته من فرص وتحديات وخبرات ومعارف ولا يهمل شيئاً قد يكون فيه ما يمنحه بعض المميزات الشخصية.

على أن هناك عوامل أخرى عدا الثقافة لها أيضاً آثارها على شخصية الأفراد وليس أدل على ذلك من أن الأفراد فى المجتمع يختلفون فى صفاتهم رغم اشتراكهم فى ثقافة واحدة. ولقد حاول بعض العلماء الوقوف على مدى تأثير الثقافة المشتركة على خلق أنواع مختلفة من الشخصيات وتبين لهم أن الثقافة رغم تأثيرها القوى على شخصية الأفراد لمشتركين فيها إلا أن هذا التأثير لا يعنى خلق شخصيات متشابهة تماماً فى خواصها فالثقافية ليست كالختم الذى يدع الأفراد بصفات واحدة متماثلة فليس كل الأفراد فى المجتمع ينهلون من عناصر ثقافتهم المشتركة بنفس المقدار بل أنهم رغم إشتراكهم فى ثقافة واحدة يختلفون فيما يتعرضون له من جوانب الثقافة أى فيما يلمون به من عناصر فالبعض يقتبس عناصر فقيرة والبعض يقتبس عناصر غنية ذات قيمة عالية ومن ثم لابد من وجود الفروق فى شخصيات الأفراد.

ليس هذا فحسب بل أن خبرات لحياة تتفاوت من فرد لآخر هذا بالإضافة إلى عدم إمكان إغفال أثر العوامل البولوجية على شخصية الأفراد فالأخوة والأخوات فى الأسرة الواحدة قد يختلفون كثيراً عن بعضهم رغم اشتراكهم فى ثقافة واحدة وفى خبرات متشابهة وخلاصة القول أن الثقافة من وظائفها الهامة أنها تعمل على إكساب الأفراد الصفات الشخصية التى تجعلهم مواطنين قادرين على أن يقوموا

بأدوار معينة ويحتلوا مكانات اجتماعية معينة ويتكيفوا للظروف الاجتماعية المحيطة بهم وأنه بقدر ما تستطيع الثقافة أن تمنحه من فرص وتحديات بقدر مـا يتمتـع أفـراد المجتمع من صفات شخصية.

٥- تقوم الثقافة بوظيفة هامة للإنسان والمجتمع عن طريق كونها عاملاً من عوامـل الضبط الاجتماعى إذ تعطى للناس شعور بالانتماء وتربطهم مـع بعض كجماعـة مميزة عن غيرها من الجماعات وتزيد من إحساسهم وشـعورهم بـالأمن وبمعنـى آخر تعمل على كفالة الأمن والطمأنينة للأفراد ووحدة بقاء المجتمع والثقافة تحقق كـل ذلـك عـن طريـق تقديـم الأنمـاط المقبولـة لسـلوك الأفـراد والجماعـات فـى المجتمع، وتقديم الوسائل التى بواسطها يتعلم الأفـراد والجماعـات فـى المجتمـع، وتقديم الوسائل التى بواسـطتها يتعلـم الأفـراد كيـف يسـلكون وفقـاً لهـذه الأنمـاط، ومنح الوسائل التى بها تفرض وتنفذ الأنماط المعارف عليهـا. فأمـا الأنمـاط التـى تقدمهـا الثقافـة فتتمثـل فـى مجموعـة التقـاليد والعـادات الشـعبية والعــرف، وأمـا الوسائل التى يتعلم بواسطتها الأفراد كيف يسلكوا وفقـاً لهـذه الأنمـاط فتتمثـل فـى عملية التنشئة الاجتماعية وأما الوسائل التى بها تفرض وتنفذ الأنماط فتتمثـل فـى الضبط الاجتماعى والقوانين والتـى يعبر أحيانـاً عـن مـدى إتباعهـا بـالجوائز أى الحوافز التشجيعية أو العقوبات.

والضبط الاجتماعى ما هو إلا القوة المعنوية غير الرسمية المستندة إلى قـوة الرأى العام للناس والتـى تقـوم علـى أسـاس التوقعـات المتبادلـة لسـلوك الأفـراد فـى المجتمع. فعندما يسلك الأفراد سلوكاً غير متوقع فأن الـرأى العـام للنـاس ممثـلاً فـى الاستياء من هذا السلوك غير المتوقع يكون فى حد ذاتـه قـوة رادعـة لحمـل الأفـراد على عدم الانحراف عن السلوك المتوقع. والضبط الاجتماعى مثـل القوانيـن يختلـف من مجتمع لآخر فكل مجتمع له وسائله الخاصة التى بواسطتها يفـرض علـى أفـراده إتباعه أنماطه السلوكية الجماعية المشتركة. ومن الجدير بالذكر أنــه فـى المجتمعـات

البدائية ذات الثقافات البسيطة يكاد يكون معظم السلوك الإنسانى نمطاً أو شبه نمط بمعنى أن معظم مواقف الحياة معرفة وما على الأفراد إلا أن يتبعوا السلوك المتعارف عليه فى المواقف الهامة فقط هى المنمطة بينما معظم السلوك حر واختيارى إلى حد كبير.

على أن وجود ضبط اجتماعى فى كل مجتمع يجب ألا يعنى أن الأفراد ليسوا أحراراً ذلك لأن الضبط الاجتماعى لايتعارض مع الحرية بل على العكس يساندها ويعمل على تحقيقها فطالما أن الإنسان لابد وأن يعيش فى مجتمع وأن هذا المجتمع لا يمكن أن ينتسب ويستقيم الأمر فيه بدون نظام فأن الضبط الاجتماعى يصبح والأمر كذلك عاملاً هاماً لحماية الفرد واستقراره وليس للحد من حريته. أن الثقافة بتميطها لأنواع من الحياة إنما تخدم الإنسان والمجتمع فقد حررت الإنسان من جهد التفكير فى كيف يسلك فى المواقف المختلفة وبذا أطلقت طاقاته لتحقيق الكثير من الأشياء الأخرى التى زادت من استمتاعه من الحياة.

هذا فضلاً عن أن الثقافة بتنميطها لسلوك الأفراد والجماعات فى المجتمع فى المواقف المختلفة خاصة فى المواقف الهامة إنما ساعدت بذلك على القدرة على التنبؤ بسلوك الآخرين مما جعل فى إمكان الأفراد والجماعات القيام بوظائفهم فى يسر وسهولة دون احتكاكات كثيرة أو تعارض، وبمعنى آخر أن الضبط لذى تمارسه الثقافة على سلوك الأفراد فى المجتمع كان من شأنه أن ساعد على ادخار الكثير من المجهودات التى كان يمكن أن تضيع فى المنازعات والتى أصبحت توجه لأعمال بناءة مفيدة تلك هى باختصار بعض الوظائف الهامة التى تقوم بها الثقافة للإنسان وللمجتمع وما من شك أنه بدون هذه الوظائف ما كان ليستطيع الفرد أن يعيش إلا كما تعيش الحيوانات غير الإنسانية لتستطيع أن تبقى متماسكة تؤدى وظائفها للإنسان وللبشرية عامة.

الفصل الرابع

أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات

أن من يستعرض مكونات المئات من الثقافات الموجودة حول العالم ويحاول مقارنتها ببعضها ببعض سوف يتبين له أن الثقافات تتشابه فى بعض النواحى وتختلف فى نواحى أخرى وفيما يلى سوف نحاول أن نوضح أوجه الشبه والخلاف بين الثقافات وأسبابها.

أوجه التشابه بين الثقافات:

على الرغم من أن السلوك الإنسانى وأنماطه الثقافية من تقاليد وعادات شعبية وعرف وقوانين ومؤسسات تختلف من ثقافة لأخرى إلا أن كافة الثقافات حول العالم أظهرت بعض المتشابهات فى نواحى كثيرة منها:

١- وجود نظام اقتصادى يتمثل فى مجموعة من المعارف والعقائد والأساليب التى تتعلق بعمليات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك للسلع والخدمات والتى تتصل بكيفية كسب لعيش ونظام توزيع حقوق الملكية وغيرها من الشئون الاقتصادية بصفة عامة.

٢- وجود نظام اجتماعى يتمثل فى مجموعة الحقوق والواجبات والمسئوليات التى تنظم العلاقات الجنسية والحياة الزوجية والأسرية وتربية ورعاية الأطفال. كما وتتمثل فى مجموعة السلوك المتوقع من الأفراد والتى عادة ما تتفاوت حسب أعمارهم وجنسهم. لا يوجد مجتمع فيه الأفراد أحراراً حرية مطلقة فى كافة سلوكهم ولكن هناك دائماً قيود ممثلة على الأقل فى مجموعة من المحرمات ومجموعة من السلوك المتوقع إتباعه أو عدم إتباعه وفقاً للتقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين السائدة.

٣- تتضمن كل الثقافات نظام عقائدى يتمثل فى مجموعة من الآراء والأفكار وطرق السلوك ذات الصلة بما هو مقدس أو دينى. فى ضوء هذا النظام العقائدى

ـ أياً كان نوعه ـ تفسر طبيعة الكون ومكان الإنسان فيه ويعرف الصواب والخطأ والأخلاقى وغير الأخلاقى والدين وهو أحد عناصر هذا لنظام يتكون من مجموعة العقائد والأساليب التى تتصل بعلاقة الإنسان بقوى فوق العادة Superna tural power والتى وأن كانت غير معروفة على وجه التحديد إلا أن الناس فى كافة الثقافات تسلك وتفكر وتشعر تجاهها بطرق معينة.

٤- يوجد فى كل ثقافة نظام حكم يتمثل فى مجموعة القواعد التى تنظم العلاقة بين الأفراد والجماعات فى المجتمع وبين المجتمع وغيره من المجتمعات الأخرى. هذه القواعد تتضمن عادة التقاليد وأيضاً العادات الشعبية والعرف فى بعض المجتمعات بالإضافة إلى القوانين فى مجتمعات أخرى والتى فى ظلها يفصل فى المشاكل بين الناس أو تنظيم حياتهم بما يساعد على رفاهيتهم وحمايتهم من اعتداءات الأخرين.

٥- يوجد فى كل ثقافة لغة وأن لم تكن بالضرورة لغة مكتوبة واللغة أحد العناصر الثقافية الهامة. وجود الرموز الأصلية أمر ضرورى لوجود الثقافة صلاً، فاللغة ـ كما سبق القول ـ هى الوسيلة الإتصالية الأساسية والتى عن طريقها تنقل الأفكار والأراء والمعارف ولعقائد من فرد لآخر، كما يوجد فى كل ثقافة نظام تعليمى سواء أكان هذا النظام رسمياً أو عرفياً، عن طريق هذا النظام تنقل المعارف والآراء والأفكار والمعتقدات من جيل إلى جيل وتكتسب المهارات والخبرات الثقافية. كما وأنه فى كل ثقافة يوجد مجموعة من المعارف التى تعتبر فى نظر الناس صحيحة وحقيقية ومجموعة من الأساليب المعينة فى أداء الأشياء (تكنولوجى) من أمثلة ذلك أساليب استغلال الموارد الطبيعية سواء فى الحصول على الغذاء أو الكساء أو غيره من الاحتياجات والأساليب المتبعة فى صنع مختلف الأشياء المادية الثقافية.

٦- يوجد فى كل الثقافات مجموعة من الفنون فالإنسان فى مختلف الثقافات يحاول تصوير المواقف والتعبير عن النواحى الجمالية عن طريق مختلف الأفعال كالرسم والنحت والموسيقى والدراما والأدب وغيرها من الفنون التى تتضمن

الكثير من أوجه النشاط التى يشبع أداؤها أو إنتاجها رغبة عند الشخص التى أنتجها أو الأفراد الذين يشاهدونها، كما ويوجد فى كل ثقافة نظام ترويحى _ هذا النظام يتضمن أوجه لنشاط التى من شأنها إدخال السرور على الناس وزيادة استمتاعهم بوقت فراغهم.

لقد أوضح ساذرلاند أن Georage, Murdak عدد الكثير من أنواع السلوك الإنسانى الثقافى المشابهة فى مختلف المجتمعات والتى منها: التصنيف حسب الأعمار والنشاط الرياضى والتوقيت الزمنى وتنظيم المجتمع وتقسيم لعمل والعمل التعاونى والتعليم والأخلاق والتقاليد والطقوس الدينية والشعائر الجنائزية والعادات الشعبية وأعياد الأسرة وإشعال النار والألعاب لمختلفة والإشارات واللغة والأتيكيت والرقص والموسيقى والحب والتحية والتزاور والكرم وإعطاء الهدايا والحظ والخرافات والسحر والإقامة فى مساكن ومواعيد تناول الطعام والمأكولات المحرمة والصحة العامة والتدريب على النظافة والاستحمام والتزين وموضات الشعر والأدوية وعادات الحمل والولادة، والعناية بالمولودة والأسماء الشخصية والزواج وتحريم الزواج من الأقارب والعفة عند الزواج وعادات البلوغ والتحديدات الخاصة بالعلاقات الجنسية والحكومة والقانون وحقوق الملكية وقوانين الميراث والتفرقة الطبقية والتجارة وصنع الآلات.

تلك هى بعض نواحى الشبه بين الثقافات. على أن أوجه الشبه هذه لاتعنى أن الثقافات متشابهة تماماً فى كافة ما أشرنا إليه أو غيره وإنما تعنى فقط أنه يو فى كل الثقافات أشياء متقاربة أو على جانب كبير من الشبه بصفة عامة وليس تفصيلاً. وتعزى أسباب المتشابهات خاصة الرئيسية منها إلى التشابه فى الاحتياجات البيولوجية والاجتماعية والنفسية الضرورية للإنسان، فأى إنسان فى أى مجتمع يتشابه مع سائر الكائنات البشرية الأخرى فى خواص البيولوجية وطبقته الاجتماعية

ومقوماته النفسية وفى خبرات الحياة الأساسية ومن هنا نشأت نواحى التشابه فى الثقافات كانعكاس للاحتياجات الإنسانية المتشابهة.

أوجه الاختلاف بين الثقافات:

عندما يتعرض الأفراد لثقافات أجنبية لا يسعهم لأول وهلة إلا أن يدركوا بعضاً من الاختلافات التى تبدو واضحة بين ثقافتهم والثقافات اتى يتعرضون لها، غير أنه فى حقيقة الأمر هناك العديد جداً من أوجه الاختلاف بين الثقافات الكثيرة الموجودة على سطح الأرض وفيما يلى أمثلة منها:

١- على الرغم من أن الجنس البشرى فى كل مجتمع يتكون من ذكور وإناث وأنه يتم بين هؤلاء عملية تناسل وهى عملية بيولوجية إلا أن الزواج والأسرة تنظمها تقاليد وعادات وعرف وأحياناً قوانين تختلف من ثقافة لثقافة وعلى سبيل المثال فى بعض الثقافات العلاقات الجنسية مسموح بها قبل لزواج بينما فى ثقافات أخرى محرمة على غير المتزوجين، وبينما اختيار الشريك فى بعض الثقافات يتم عن طريق الأباء بون رؤية الرجل للمرأة حيث تختفى الإناث عن أعين الرجال بمجرد بلوغهن سن المراهقة نجد فى ثقافات أخرى يتم الأختيار بعد فترة حب عن طريق الرجل للمرأة والمرأة مباشرة، وبينما فى بعض ثقافات أخرى لا يراعى مثل ذلك التقليد.

فى بعض الثقافات تشترى النساء بالمال أو بالممتلكات أو بالعمل لدى أهلهن ولا يحدث ذلك فى بعض الثقافات الأخرى، فى بعض الثقافات يتزوج الرجل من امرأة واحدة فقط فى وقت واحد ولا يحق له تطليقها وفى بعض الثقافات يتزوج الرجل من امرأة واحدة ويحق لها الطلاق وفى ثقافات أخرى يحق للرجل الزواج بأكثر من امرأة وفى ثقافات أخرى يحق للمرأة الزواج بأكثر من رجل وفى بعض الثقافات تتركز السلطة فى يد الزوج بينما فى ثقافات أخرى تتركز فى يد الزوجة

وفى ثقافات أخرى تكون السلطة مشتركة بين الزوج والزوجة إلى غير ذلك من نواحى الاختلافات سواء فى العلاقات الجنسية أو الزواج أو البناء الأسرى.

٢- يتفاوت السلوك الإنسانى المتعلق بمقابلته الاحتياجات الاقتصادية من ثقافة لأخرى. فى بعض الثقافات يشتق الإنسان احتياجاته من الغذاء والكساء والمأوى من البيئة التى يعيش فيها مباشرة أى دون تدخل كبير من جانب الأفراد الآخرين فى إحداث تغيرات كبيرة فى شكل السلع المتحصل عليها فعلى سبيل المثال ينتزع من الأرض بعض النباتات ويجمع من الأشجار بعض الفواكه أو يصطاد بعض الأسماك والحيوانات ويستخدمها فى غذائه ويجمع بعض الأعشاب أو ألياف النباتات ويصنع منها ملبسه ويقطع بعض الأشجار ويصنع من أخشابها كوخاً أو عشه، وبمعنى آخر فأن صلته بالطبيعة واعتماده عليها كبيرة ومبشرة.

وعلى النقيض من ذلك فى ثقافات أخرى أصبح الإنسان بعيداً جداً عن البيئة الطبيعية التى منها يحصل على غذئه وكسائه وكثيراً ما تتعرض تلك الأغذية والأكسية لعمليات تصنيع عديدة تغير كثيراً من شكلها إلى حد أن الفرد لم يعد يعرف شكل النباتات التى تقدم له ثمارها فى صورة أغذية معلبة ولا شكل النباتات أو الحيوانات أو المواد التى تصنع منها أنسجة الملابس الذى يرتديها أما العادات الغذائية فهى أيضاً كثيرة ومتنوعة ففى بعض الثقافات يكره الناس تناوله أنواع معينة من الأغذية مثل القواقع والضفادع وفى ثقافات أخرى يحرم على الناس تناول بعض الأغذية مثل لحوم البقر والخنازير، وهكذا يختلف الناس فيما يأكلون وفى طريقة طهى وتقديم الأغذية.

يسود فى بعض الثقافات النظام الاقتصادى الرأسمالى وفى الأخرى النظام الشيوعى وفى أخرى النظام الأشتراكى وفى بعض الثقافات يتنافس الناس على العمل والإدخار وتكوين الثروات وفى ثقافات أخرى يميل الناس إلى التعاون

والتضامن والعمل الجماعى المشترك، وفى ثقافات أخرى يبغض الناس العمل إلا ما هو ضرورى منه ويميلون إلى راحة البال وبذل أقل مجهود إنسانى جسمانى أو عقلى فى أى ناحية من نواحى النشاط الاقتصادى قانعين بأقل الدخول راضين بمستوى معيشتهم المنخفض أخذين فى اعتبارهم قيماً عالية لنواحى أخرى من النشاط كالنشاط الدينى أو الترويحى. على أن كل الأنظمة الاقتصادية تبدو طبيعية لمن يتبعوها وتحقق وظائفها بطريقة مرضية إلى حد ما من وجهة نظرهم وإن كن ذلك ليس بنفس الدرجة من الكفاءة لإشباع احتياجات الأفراد الأساسية كما يجب.

٣- تختلف الثقافات فى نظام الحكم السائد بكل منها ففى بعض الثقافات البسيطة يعتبر الضبط الاجتماعى (أى قوة الرأى العام للناس) ممثلاً ف العرف والتقاليد والعادات الشعبية هو القوى المنظمة لسلوك الأفراد فى المجتمع والتى تجبرهم على إتباع ما هو صواب وسليم وتجنب ما هو خطأ أو محرم وفى ثقافات أخرى لا يعتبر العرف والتقاليد والعادات الشعبية كافية للسيطرة على الأفراد والجماعات ومن ثم يوجد أيضاً القوانين التى تحدد الجزاء والعقاب لمن ينحرف عن الأنماط السلوكية الواجب إتباعها والتى تحدد المكافآت لمن يتبعها ولتنفيذ هذه القوانين وجد البوليس وأقيمت المحاكم والسجون.

على أن الثقافات لا تختلف فقط فى الطريقة التى تتبعها فى ممارسة الضغط على أفرادها لإتباع الأنماط السلوكية المتعارف على صحتها أو قبولها وإنما تختلف أيضاً من حيث هيكل نظام الحكم فيها فقد يكون الحاكم فى بعض المجتمعات رئيس القبيلة كما هو الحال فى المجتمعات البدائية، فى مجتمعات أخرى شخص يلقب بالملك أو بالرئيس المنتخب، وفى بعض المجتمعات مجموعة من الأفراد المنتخبين الذين يتعاونون فى الحكم. فى بعض المجتمعات لا توجد أجهزة تشريعية رسمية، بينما توجد العديد من الأجهزة المختلفة فى بعض المجتمعات كالبرلمان أو الكونجرس و مجلس الشعب وما يشابهها. فى بعض المجتمعات لا توجد أجهزة

تنفيذية رسمية بينما فى البعض الآخر توجد الوزارات المختلفة والمؤسسات والمصالح العديدة، فى بعض المجتمعات يتبع النظام الديمقراطى فى إدارة شئون المجتمع بينما فى مجتمعات أخرى يسود النظام الديكتاتورى وبين هذين النظامين توجد أنظمة أخرى.

٤- تختلف العقائد الدينية من ثقافة لأخرى فالناس فى بعض الثقافات يقدسون مختلف الأشياء فمنهم من يقدس النباتات أو الحيوانات أو الأنهار أو الجبال أو الرياح أو الكواكب ومنهم من يقدس أفراد أخرين من الكبار أو المجاذيب ومنهم من يقدس الأجداد أو الموتى من الأفراد. الحقيقة أنه على مر الزمن فى مختلف الثقافات قدس الإنسان أشياء كثيرة جداً، فى ثقافات أخرى يدور نشاط الناس الدينى حول عبادة قوة يعتقدون أنها كبيرة جداً (فوق العادية) وأنها المسيطرة على الكون والمسيرة له. عقائد الناس وقيمهم الدينية والأخلاقية وما يعتبرونه صواب أو خطأ، أخلاقى أو غير أخلاقى يختلف أيضاً من ثقافة لأخرى.

فى بعض الثقافات يعتبر الرقص وإشعال النيران ودق الطبول من الطقوس الدينية بينما فى ثقافات توجد الموسيقى الكنيسة والتراتيل والصلاة وهكذا يقوم الناس فى مختلف الثقافات بمختلف أنواع السلوك الدينى. البعض يصوم والبعض يقيم الولائم والبعض يكف عن الكلام والبعض يمتنع عن ممارسة العلاقات الجنسية والبعض يقتل الأطفال والبعض يهتم برعايتهم والبعض يقسوا والبعض يشفق ويرحم إلى غير ذلك. ليس هناك حدود ولا نهاية ولا تفسير لما يقوم به الناس من سلوك دينى، لايعرف أحداً لماذا يسلكون ويتصرفون ويفكرون بهذه الطرق المختلفة التى يتبعونها.

٥- تختلف الفنون والآداب من ثقافة لأخرى. ففى المجتمعات البدائية يكون للناس فنونهم الشعبية وموسيقاهم وطرقهم فى النحت وفى صنع الأشياء للزينة. وتختلف النواحى الجمالية أيضاً من ثقافة لأخرى ويتبع الرجال والنساء فى كل ثقافة طرقاً

مختلفة للتزين، كما أن لهم مقاييسهم الجملية المتفاوتة. ويختلف النـاس أيضـاً مـن حيث الطريقة التى يروحون بهـا عـن أنفسـهم ويمضـون بهـا وقـت فراغهـم ففـى بعض الثقافات يشغل الناس أوقات فراغهم عن طريق قـراءة الروايـات البوليسـية أو مشاهدة التمثيليات المسلسـلة أو سـماع الراديـو أو الموسـيقى الكلاسـيكية وفـى بعض الثقافات يقضون أوقات فراغهم فى دق الطبول والرقص والصيـاح أو فـى العبادة كما فى بعض المجتمعات البدائية.

تلك فقط بعـض أمثلـة لتوضيـح مـدى الاختلافـات التـى توجـد بيـن الثقافـات العديدة حول العالم. وبسبب هذه لاختلافات ينظر الناس فى كل ثقافة إلى غيرهم مـن الناس فى الثقافات الأخرى نظرات متفاوتة. فالناس فى بعض الثقافات ينظـرون إلـى غيرهم على أنهم متوحشين أو متخلفين أو متقدمين أو غير ذلك حسب ما يبدون فـى نظرهم. هذه الاتجاهات المختلفة كانت ولا تزال حتى الآن تؤثر علـى سـلوك النـاس فـى المجتمعـات المختلفـة تجـاه بعضهـم البعـض. كثيراً مـا يعـزى العلمـاء أسـباب الاختلافات بين الثقافات إلى أحد عـاملين أحدهمـا الاختلافـات فـى العنصـر أى فـى النواحى والعوامل البيولوجية الوراثية ولثانى إلى الأختلافـات فـى البيئـة الجغرافيـة. ولعل من الأهمية فى هذا المجال أن نناقش كل من هذه العوامـل وأثرهـا علـى خلـق ثقافات مختلفة.

الاختلافات العنصرية Race differences:

يعتقد البعض أن الاختلافات بين الثقافات سببها الاختلافات العنصريـة حيـث يعتقـد أن النـاس المختلفيـن مـن حيـث العنصـر يختلفـون أيضـاً فـى درجـة نشـاطهم وذكائهم وكفاءتهم ويتفاوتون فى أمزجتهم واحتياجاتهم وأيضاً رغباتهم ومـن ثـم فـأن ثقافاتهم تكـون متباينـة ومختلفـة بسـبب هـذه الاختلافـات العنصريـة. غـير أن بعـض

العلماء لا يرون أن الاختلافات العنصرية سبب مقبول لتبرير الاختلافات في الثقافات لعدة أسباب منها:

١- أن العنصر مسألة تتعلق بانتقال صفات وراثية بيولوجية من جيل لآخر أما الثقافة فهى انتقال صفات اجتماعية وأنه يوجد بالعالم ثلاثة عناصر رئيسية هم البيض والسود والصفر في الوقت الذى يوجد في العالم ـ كما أوضح الأنثروبولوجين حوالى ألف ثقافة فلو أن الاختلافات العنصرية هي السبب لكان من المفروض أن يوجد ثلاثة ثقافات فقط بدلاً من حوالى ١٠٠٠ ثقافة.

٢- أن العناصر الثلاثة موجودة فى جهات مختلفة حول العالم جنباً إلى جنب وأحياناً فى داخل الدولة الواحدة بل وفى نفس المنطقة الجغرافية. وأن العنصر الواحد منها تتفاوت ثقافات الجماعات فيه من بسيطة إلى معقدة. ولو كان صحيحاً أن العنصر له ثقافة واحدة لما كانت الجماعات التى تنتمى إليه تختلف فى ثقافاتها من منطقة لأخرى سواء فى داخل الدولة أو فى عدة دول. وعلى سبيل المثال العنصر الأبيض موجود فى جهات عديدة فى العالم ولكن البيض فى كل مجتمع لهم ثقافاتهم المختلفة عنه فى مجتمع آخر. كذلك الحال بالنسبة للعنصر الأصفر والعنصر الأسود تختلف ثقافات الجماعات فى كل منهما من منطقة لأخرى ومن مجتمع لآخر.

٣- لو أن الاختلافات العنصرية هى سبب الاختلافات فى الثقافات استناداً إلى الفروق البيولوجية الوراثية وتلك نادراً ما تتغير أى ثابتة تقريباً (باستثناء بعض التغيرات الفردية البسيطة) لكان العنصر المتقدم يظل متقدماً فى ثقافته طوال الوقت والعنصر المتخلف يظل متخلفاً فى ثقافته طوال الوقت أيضاً غير أن دراسة التاريخ تشير إلى أنه فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون البيض لايزالون يلبسون جلود الدببة كان الصينيون الصفر يبنون القصور ولديهم فنون وآداب متقدمة وكان المصريون من أوائل من أوجدوا سباكة البرنز. وعلى مر القرون

لا يوجد أى عنصر أظهر قدره على حلق ثقافة متقدمة عن غيره من العناصر، بل أن ثقافات نفس العنصر تبدو متقدمة فى مكان ومتخلفة فى مكان آخر. كل ذلك يدل على أن هناك عوامل أخرى غير العنصر تسبب اختلاف الثقافات.

٤- حقيقة ان هناك فروق بيولوجية وراثية بين العناصر المختلفة مثل لون الجلد وطبيعة ولون الشعر وشكل ولون العينين وشكل الأنف والشفتين وغير ذلك إلا أن الأفراد فى العناصر الثلاثة لا يختلفون عن بعضهم اختلافات تذكر فى القدرة العقلية ولا البدنية ولا فى الدوافع العضوية وذلك عند تساوى لظروف البيئية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية. هكذا أوضح علماء النفس بعد إجراء اختبارات عديدة على أفراد من مختلف العناصر بل أن هناك أحياناً اختلافات بين الأفراد فى نفس العنصر الواحد أكثر من الاختلافات بين العناصر ككل. لكل هذه الأسباب لا يبدو أن الاختلافات العنصرية أى الاختلافات البيولوجية الوراثية بين الناس هى السبب فى الاختلافات فى ثقافاتهم. يبقى أن نختبر العامل الثانى وهو البيئة الجغرافية وأثرها على اختلاف الثقافات.

البيئة الجغرافية:

يقصد بالبيئة الجغرافية فى هذا المجال كافة الظروف الطبيعية مثل الأرض والنباتات والحيوانات والمعادن وأيضاً الطبوغرافية كالأنهار والبحيرات والمحيطات والجبال والشواطئ وكافة الظروف الجغرافية حول العالم جعلت بعض الناس يعتقدون أن البيئة الجغرافية هى سبب الاختلافات فى الثقافات. هذه النظرة تبدو لأول وهلة مقبولة وتفسير معقول للاختلافات بين الثقافات ـ الموجودة فى بيئات جغرافية مختلفة.

يقول البعض أن ثقافة الإسكيمو لا يمكن أن توجد إلا فى المناطق المتجمدة الشمالية وثقافة الأعراب لا يمكن أن توجد إلا فى الصحارى أى أن البيئة الجغرافية تحدد الثقافة. هذه الأقوال ثبت عدم دقتها تماماً عن طريق ملاحظتين أولهما: وجود ثقافات مختلفة فى بيئات جغرافية متشابهة فالأسكيمو يصطادون الحيوانات ويبنون بيوتهم من الثلج على شكل قباب بينما سكان شمال سيبريا فى بيئة جغرافية متشابهة يرعون الغزلان ويقيمون فى أكواخ مبنية من الخشب والجلود، وثانيهما: وجود ثقافات متشابهة فى بيئات مختلفة فالثقافات البولونيزية Polynesian Culture وجدت منتشرة فى بيئات مختلفة كما فى جزر هاواى ونيوزلاند.

ما هى أذن علاقة البيئة الجغرافية بالثقافة؟ ما من شك فى أن البيئة الجغرافية فى أى مكان تؤثر على الثقافة فأحياناً تحول دون قيام الإنسان بنواحى معينة من أوجه النشاط الثقافى وأحياناً تضطره إلى القيام بنواحى أخرى. فمثلاً يصعب على الأعراب فى الصحراء والأسكيمو فى المناطق المتجمدة الشمالية أن يزرعوا القطن أو الموز لأنها محاصيل تتطلب تربة خصبة ووفرة المياه بدرجة حرارة عالية نسبياً فى نفس الوقت تضطر ظروف البيئة الجغرافية الأعراب الإقامة فى خيام متنقلة كما تضطر الإسكيمو فى المناطق المتجمدة الشمالية أن يقيموا فى بيوت من الثلج. وواضح أن البيئة الجغرافية فى كل ذلك تؤثر على بعض نواحى سلوك الإنسان وربما كان ذلك هو السبب الذى حمل بعض المتخصصين فى الجغرافيا على الاعتقاد بأن البيئة الطبيعية وظروفها هى العامل المحدد لثقافة الناس، غير أنه حديثاً أوضح علماء الجغرافيا البشرية وعلماء الأنثربولوجى أن أى مجموعتين من الناس يمكن أن يعيشوا مع بعض فى منطقة جغرافية واحدة ومع ذلك لكل منها ثقافة مختلفة إلى حد كبير.

على أنه إذا كان للبيئة الجغرافية بعض الآثار على حياة الناس فى المناطق المختلفة فأن هذا لايعنى أن الإنسان يقف مكتوف اليدين أمام البيئة الجغرافية التى

تحيط به أنه يحاول باستمرار التغلب عليها وإخضاعها لصالحه ومحاولاته فى هذا الشأن عديدة ومستمرة وتتزايد بتقديم العلم والتكنولوجى. لقد استطاع الإنسان أن يحول أجزاء من الصحارى ومن البحيرات إلى أراضى زراعية خصبة، ويحول بعض الغابات إلى أراضى محصولية والمستنقعات إلى حدائق غناء ومد السكك الحديدية والطرق المرصوفة عبر أنفاق شقها فى الجبال وأقام الخزانات لحفظ المياه لضمان استخدامها فى الزراعة على مدار السنة وللوقاية من الفيضانات وتجنيب مخاطرها.

وكلما تقدم التكنولوجى كلما زادت كفاءة الإنسان وقدرته على السيطرة على البيئة الجغرافية والتحكم فيها وتسخيرها لصالحه وعلى سبيل المثال استطاع الأطباء فى منطقة قناة بنما أن يتغلبوا على مخاطر الأمراض الأستائية عن طريق أكتشاف أسباب الملاريا والحمى الصفراء ومعرفة كيفية الوقاية منها، بهذا استطاعوا أن يفتحوا الطريق أمام تغيرات هائلة فى البيئة الجغرافية كان من نتيجتها شق قناة بنما التى يتوصل المحيط الأطلنطى بالمحيط الهادى.

كل ذلك يوضح أن الإنسان استطاع عن طريق ثقافته أن يؤثر فى البيئة الجغرافية المحيطة به ويستغلها لصالحه ولو أن هذا الاستغلال ربما ليس كاملاً أو كبيراً فى بعض المناطق كما هو فى مناطق أخرى. هناك ولاشك بعض الموارد الاقتصادية غير المستغلة فى بعض البيئات الجغرافية غير أن سكان هذه لبيئات ربما لا ينظرون إليها على أنها موارد. لقد ظلت موارد اقتصادية لمئات السنين أمام أعين الناس دون ما استغلال بسبب عدم إدراكهم لمدى أهميتها أو بسبب تخلف ثقافاتهم وما ترتب على ذلك من عجزهم عن إدراك ما يوجد فى بيئاتهم من فرص اقتصادية أو القدرة على استغلالها. ومن الأمثلة على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى ظلت مئات من السنين بكل ما فيها من ثروات تحت أعين وأقدام الهنود الحمر الذين

لم يستطيعوا بثقافاتهم المتخلفة عن أن يدركوا ا فى بيئاتهم من إمكانيات وفيرة أو أن يستغلونها الاستغلال الاقتصادى الأمثل.

وعموماً يمكن القول أن البيئة الجغرافية ما هى إلا واحد فقط من العوامل أى القوى التى تؤثر على الثقافة. وتأثيرها لاشك أقوى وأوضح حيث السكان البدائيين يعيشون فى المناطق المتجمدة الشمالية أو فى الصحارى أو ما شبهها من البيئات القاسية كما وأن تأثيرها أكثر على بعض نواحى أخرى فالتكنولوجى والنواحى الاقتصادية متصلة أكثر بالموارد بالبيئة الجغرافية ومن ثم يبدو أثر البيئة الجغرافية على هذه النواحى أكثر منها على نواحى أخرى كالفن والدين.

على أن جونسون يرى أن علماء المجتمع والجغرافيا والأنثروبولوجى يختلفون كثيراً فيما بينهم بالنسبة لمدى تأثير البيئة الجغرافية على الثقافة فبينما يعتقد بعض العلماء أن الإنسان يحاول من جانبه أن يغير من ظروف البيئة الجغرافية المحيطة به ولكن لايستطيع أن يحدث إلا بعض التعديلات لجعلها أكثر ملائمة لحياته وذلك فى حدود ما تفرضه تلك البيئة الجغرافية من تحديدات. فأن بعضاً آخر من العلماء يعتقدون أن أثر لبيئة الجغرافية على الثقافة لم يعد له من يناصره باستثناء افتراض واحد لا يزال قائماً من حيث الدراسة والبحث إلا وهو أثر الطقس (الحرارة - الرطوبة - الرياح - الأمطار) على الثقافة فالبعض يعتقد أن للطقس أثر كبير على تقدم الثقافة أو تخلفها ففى رأيهم أن الطقس المعتدل يبعث على النشاط وبذا ينصرف مجهود الناس إلى بناء ثقافة متقدمة بينما الطقس غير المناسب كما فى المناطق الباردة جداً أو الحارة جداً يدفع الناس إلى بذل مجهودات كبيرة للمحافظة على حياتهم بما يعرقل من نشاطهم نحو بناء ثقافة متقدمة.

على أن بعض الأنثروبولوجيون والاجتماعيون والجغرافيون يعارضون أو يعدلون كثيراً من أثر الطقس على الثقافة أى لايميلون إلى إعطاء أهمية كبيرة

للطقس كعامل من العوامل المحددة للثقافة إذ ليس بالضرورة فـي رأيهم أن الثقافات المتقدمة نشأت فى مناطق ذات طقس معتـدل وليس أدل علـى ذلك مـن أن الثقافات كثيراً ما تغيرت دون تغيرات تذكر فى الطقس.

وخلاصة القول أن البيئة الجغرافية والثقافية يؤثر كل منهما ويتـأثر بـالآخر. فالثقافة ليست كما يعتقد البعض فى الموقف السلبى الذى يتحدد بالبيئة الجغرافية أنهـا تؤثر وتتأثر بالمسرح الطبيعى التـى تقوم عليـه وهـذا التـأثير يزيـد كلمـا تقـدم العلـم والتكنولوجى وزادت كفاءة الإنسان.

مما تقدم يتضح أنه لا العنصر ولا البيئة الجغرافية يعتـبران مـن التفسـيرات المرضيـة أو الكافيـة للاختلافـات الكثيرة جداً فـى السـلوك الإنسـانى فـى مختلـف المجتمعات أى للاختلافات بين الثقافات. والسـؤال الـذى يفـرض نفسـه: مـا هـى أذن الأسباب الحقيقة للاختلافات بين الثقافات؟ هنـاك آراء متباينـة فـى هـذا الشـأن فمثـلا يرجع جون كوبر الاختلافات بين الثقافات إلى عوامل ثلاثة:

١- أن الاحتياجات الإنسـان البيولوجيـة مـن مـأكل ونشـاط جنسـى وحمايـة وغيرهـا يمكن مقابلتها بطرق عديدة مختلفة.
٢- الاختلافات فى البيئة الجغرافية.
٣- قدرة الإنسان على ابتكار واختراع طرق جديـدة للتفكـر ولعمـل الأشـياء مـن آن لأخر وبمعنى آخر أنه حيوان ذو قدرة على حل المشاكل.

هذه الأشياء الثلاثة (الاحتياجات البيولوجية - البيئة الجغرافية وقدرة الإنسـان على الابتكار) هى ما تستند إليه الثقافة أساسياً فى تكوينها. ولما كن الإنسـان يحـاول دائماً إشباع احتياجاته من البيئـة التـى يعيـش فيهـا ولمـا كـان ذو قـدرة علـى التفكير والابتكار فأنه كثيراً ما يتوصل إلى طرق جديدة ومختلفة لتحقيق ذلك يختار منها مـا يشاء. تلك الطرق سوف لاتختلف فقط حسب قدرته على الابتكار بـل وأيضـاً حسـب ما تمنحه البيئة الجغرافية التى يعيش فيها من فرص وإمكانيات.

على أن كوبر واضح أنه أحياناً لتفسر الاختلافات فى بعض نواحى الثقافات فى ضوء ما أصبح يسمى بنظرته الصدفة التاريخية (Historical, Accident) وهى نظرية تدور حول احتمال إتباع جماعة من الناس لنمط معين من السلوك لمجرد الصدفى بينما تتبع جماعة أخرى نماطاً مغايراً لمجرد الصدفة أيضاً. هذا التفسير قد لا يكون مقبولاً إلا حالياً إلا أنه قابل للدراسة والنقد وتاريخ العلم ملئ بالكثير من الأشياء التى كانت تعتبر فى وقت معين مجرد نتيجة الصدفة غير أنه بعد ذلك أمكن بالدراسة والبحث التوصل إلى مسبباتها والتنبؤ بحدوثها وعموماً فأن من رأيه أنه فى نطاق لتحديدات التى تمليها البيئة الجغرافية يؤدى نشاط الإنسان ومحاولاته فى حل المشاكل إلى اختيار بعض أنواع السلوك التى يقابل بها احتياجاته البيولوجية ولنفسية.

هذا السلوك قد يسود بين الجماعة وبذلك يصبح ثقافياً قائماً ويتوقف اختراع لسلوك وقبوله على التفاعل بين مجموعة العوامل التى معظمها فى حد ذاتها عوامل ثقافية ونتائجها صعب التنبؤ بها وعموماً يرى أنه من الصعب تفسير الاختلافات بين الثقافات تفسيراً يستند إلى حقائق علمية ويعتقد أن الاختلافات فى البيئة الجغرافية والاختلافات العنصرية والصدفة التاريخية لأنها تعنى أن الإنسان سلبى أى ليس له قدرة على إحداث تأثير مقصود فى ثقافته.

على أن جون بيزانز يعطى تفسيراً آخر للاختلافات بين الثقافات حيث يرى أن أسبابها ترجع إلى كون الإنسان كان حى مرن لديه القدرة على التطبُع والتأقلم للظروف المختلفة ففى استطاعته أن يشبع احتياجاته البيولوجية والاجتماعية بطرق عديدة. جهازه الهضمى يمكنه أن يتقبل أنواع مختلفة جداً من الطعام، واحتياجاته من الكساء يمكنه مقابلتها من الأعشاب أو من الخيوط النباتية أو الحيوانية أو الصناعية أو من الجلود أو بطرق عديدة أخرى ومساكنه لا تتفق مع ما يفكر فيه أو يتصوره البعض من أنها تتكون من حجرات من أربعة جدران وسقف بل تتفاوت من كهوف

وقباب إلى فيلات وعمارات سكنية وناطحات سحاب، ويقيم أنظمة اجتماعية مختلفة لغرض الحماية والأمن وإنجاب الأطفال. وما يتوصل إليه من حلول لأى مشكلة قد يكون نوع من الجمع بين الصدفة والإمكانيات التى تمنحها البيئة الطبيعية التى يعيش فيها وبمرور الزمن يبدو الإجراء وكأنه شئ طبيعى.

وفى رأيه أن الإنسان عندما يفرغ من حل مشاكله الأساسية أى من مقابلة احتياجاته الضرورية يجد أن لديه وفرة من الوقت والطاقة الخلاقة فيختار من الإمكانيات المتاحة بعض نواحى الثقافة التى تستهويه ويعمل على تنشيطها ودفعها والنهوض بها على حساب النواحى الأخرى. فقد يهتم مثلاً بالعلم والتكنولوجى كما فى بعض الثقافات أو بالاحتفالات الدينية أو بالفنون كما يحدث فى ثقافات أخرى. وبمجرد اختياره لناحية معينة واهتمامه بها فإن هذه الناحية تنمو وتتطور وبذلك تظهر الاختلافات بين الثقافات وتتراكم الواحد بعد الأخرى.

على أنه يرى أن الاختلافات بين الثقافات وإن كانت مادة ممتعة وجذابة بالنسبة للأنثروبولوجين ولكن فى الأمد الطويل ما يهم أن يتعرف عليه أكثر هو المتشابهات الأساسية للسلوك الإنسانى حول العالم فكما يقول Ralph Linton كون المجتمعات كلها يوجد بها نوع من التنظيم السرى حقيقة تعتبر أكثر أهمية من كون المرأة من الطبقات الدنيا فى قبائل التبت تتزوج بأكثر من رجل.

وأخيراً يجدر الإشارة إلى أنه سواء تشابهت الثقافات أو اختلفت فى نواحى قليلة أو كثيرة فأن الثقافات فى أى مجتمع تبدو فى نظر أفرادها صحيحة ومقبولة ومنطقية مهما بدت غير ذلك فى نظر الناس فى مجتمعات أخرى. أنها ترتبط بقيمهم وعقائدهم وتؤدى وظائف هامة فى نظرهم. فى بعض المجتمعات قد يقاومون الأمراض بالسحر والتعاويذ والرقصات والطبول وفى البعض بالوصفات البلدية وفى البعض بالأدوية والعقاقير الطبية ومع ذلك فى كل ثقافة - وفقاً للقيم والعقائد السائدة - يبدو ذلك إجراءاً صحيحاً ومنطقياً فى نظر أفرادها.

وقد يتساءل البعض هل كل ما يحدث فى أى ثقافة يعتبر حقاً صحيحاً ومنطقياً؟. الحقيقة ليست كذلك ففى بعض النواحى لايكون السلوك صحيحاً ولا منطقياً ومع ذلك يتبع لأن لقيم المرتبطة بالسلوك قد تكون مبرراً قوياً للحفز على آدائه حتى ولو كان فى ذلك بعض المخاطرة أو الأضرار. وعموماً فأن كل ثقافة كما أوضحنا تبدو فى جملتها صحيحة ومنطقية فى نظر أفرادها. وليس هذا معناه استحالة أحداث تغيرات فى بعض نواحى الثقافة التى تبدو غير منطقية أو غير صحيحة وإنما يعنى أن أحداث مثل هذا التغيير يتطلب أولاً إحداث تغييرات فى القيم والعقائد التى تساند هذه النواحى.

الفصل الخامس

التغيــر الثقــافي

لـم يقـف اهتمـام العلمـاء الاجتمـاعيون بدراسـة الثقافـات عنـد حـد محـاولات التعرف على نشأتها ومكوناتها وخواصها ووظائفها بل تعداها إلى محاولات الوقـوف على تطورها ونموها والتغيرات التى طرأت عليها فــى الأزمنـة المختلفـة. ولـم يكـن العلماء فقط هم المهتمون بدراسة الثقافات وما طرأ عليها من تغيرات بل أهتم بذلـك أيضاً فى فترات معينة بعض الفلاسفة ورجال الدين خاصة المبشرين منهم. لقد أمكن بفضل هؤلاء جميعاً التوصل إلى قدر كبير من المعـارف عـن الإنسـان والثقافـة فـى فترة ما قبل التـاريخ. بعـض هـذه المعـارف خاصـة المتعلقـة بالأزمنـة القريبـة يعتـد بصحتها أنا المعارف عن الفترات البعيـدة خاصـة الشـطر المتعلـق منهـا بالمعنويـات الثقافية - بعضها علي الأقل ليس مؤكداً.

على أنه لا تزال هناك رغم كل ذلك فترات من تاريخ حياة الإنسـان وثقافتـه يكتنفها الغموض ولا يتوافر عنها أى بيانات يعتد بها. وليس الهدف فـى هـذا المجـال تقييم المعارف المتجمعة ولا بيان مدى الاعتداد بصحتهـا وإنمـا الهـدف بيـان بعـض عمليات التغير الثقافى أسبابها ومصادرها والعوامل التى تؤثر فيها. والثقافة كما سبق أن أوضحنا تتكون مـن عنـاصر، هـذه العنـاصر ليسـت ثابتـة وإنمـا متغيـرة والتغيـر الثقافى لا يخضع لعملية التطور البيولوجى التى تحدث تباعاً لمجموعـة مـن الأسـس الخاصة بالتحسين والاختيار وإنما يتم وفقاً لرغبات واحتياجات وشعور النـاس وتبعـاً لمجموعة كبيرة من لعوامـل والظـروف التـى قـد تطـرأ علـى حيـاتهم ومـن ثـم فمـن الصعب أن ينظر إلى التغير الثقافى على أنه انتقال من مرحلـة مـن مراحـل التطـور إلى مرحلة أخرى و أنه بالضرورة نحو الأحسن أو الأفضل.

وقياس التغيرات لثقافية ليس أمراً سهلاً ولو أنه إلى حد ما يمكن التعرف على مدى التغيرات التى تطرأ على الأشياء المادية الثقافية إلا أنه يصعب تحقيق ذلك بالنسبة للنواحى المعنوية التغيرات فى الدين والأخلاق والفن والتنظيم الاجتماعى وما شابهها. بعض المعنويات الثقافية أندثرت وضاعت مع الناس الذين وجدوا فى فترة معينة من الزمن ولم يعد من الممكن الوقوف عليها إلا عن طريق الاستنتاج من بعض المخلفات الثقافية المادية. مثل هذه الاستنتاجات قد تتعدى حدود الصواب وتؤدى إلى الانزلاق فى سلسلة من الأخطاء.

ولو أن العلماء الاجتماعيون يتحرون الوقوف على التغيرات الثقافية وأسبابها ومصادرها والعوامل المؤثرة عليها إلا أنهم لا يميلون إلى الحكم على قيمة أى نوع من التغيرات الثقافية، أنهم يتجنبون عادة بيان ما إذا كان تغير ما يعتبر تقدماً أو ارتداد يستثنى من ذلك عادة لتغيرات الثقافية المقصودة أى المخطط لها مسبقاً والتى تستلزم فى النهاية الحكم عليها فى ضوء الخطط المرسومة وأهداف الخطط المرسومة والتى يراد تحقيقها تعكس قيم المجتمع وأفكاره واتجاهاته وتلك قد تختلف من مجتمع لآخر.

ولن نتعرض فى هذا المجال للتغير الثقافى فى مجتمع معين بالذات إذ يتركز أساسياً فى التعرف على طبيعة التغير الثقافى بصفة عامة وكيف يحدث ومصادره وأسبابه والعوام المؤثرة على اقتباس أو رفض العاصر الثقافية الأجنبية واندماج العناصر الثقافية الجديدة فى الثقافة القائمة والتخلف الثقافى، وأخيراً التكامل الثقافى. وسوف نتعرض عند تناول هذه الموضوعات إلى أيضاً بعض العمليات الثقافية التى تتم من خلالها عملية التغير الثقافى.

مصادر التغير الثقافى:

التغير الثقافى قد ينشأ من داخل المجتمع نتيجة اختراعات أو اكتشافات جديدة أو يتأتى من خارج المجتمع بسبب انتشار عناصر ثقافية أجنبية إلى ثقافة المجتمع. وكلا النوعين من مصادر التغير الثقافى مهمين خصوصاً فى العصر الحديث وفيما يلى نبذة مختصرة عن كل مصدر من هذه المصادر:

١ – الاختراعات والاكتشافات:

كثيراً ما يتوصل بعض أفراد المجتمع إلى بعض المعنويات أو الماديات الثقافية الجديدة عن طريق الاختراعات والاكتشافات. والاختراع هو التوصل إلى شئ معنوى أو مادى جديد عن طريق مزج وخلط عناصر ثقافية كانت موجودة قبلا بما يؤدى إلى ظهورها فى شكل جديد يخدم غرضاً معيناً. مثل اختراع الآلات البخارية أو آلات الاحتراق الداخلى أو الراديو أو التليفون أو التليفزيون أو استخلاص القوة الذرية أو غير ذلك. أما الاكتشافات فهي التعرف على أشياء معنوية أو مادية لم تكن معروفة من قبل كاكتشاف القارة الأمريكية أو أستراليا أو الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح أو اكتشاف جزيرة فى المحيط او منجم فحم أو حديد أو حقل بترول إلى غير ذلك والاكتشافات تتضمن وجود الشئ المكتشف قبل أن يصبح معروفاً. ولعل من الظواهر التى تستدعى الانتباه أن الاختراعات والاكتشافات تحدث بكثرة فى وقت معين وتقل فى وقت آخر، كما وتحدث بكثرة فى مجتمع وتقل فى مجتمع آخر. وأوضح كل من ساذرلاند وزملائه بعض العوامل التى يعتقدون أن لها صلة بهذا الشأن والتى منها:

١ – الأساس الثقافى:

ويقصد بذلك مكونات وخصائص الثقافة القائمة فى وقت معين فإذا كانت الثقافة غنية بعناصرها ومركبتها وأنماطها الثقافية فأن ذلك يساعد على الاختراعات

والاكتشافات فالاختراعات كما سبق القول ما هى إلا تعديل أو تحوير أو مزج أو تنظيم جديد لمكونات الثقافة الموجودة فعلاً بما يؤدى إلى خلق شئ جديد فإذا كانت الثقافة فقيرة فى مكوناتها رديئة فى خواصها فأن ذلك لن يؤدى إلى التوصل إلى اختراعات تذكر. وكل اختراع آخر فالتطعيم ضد الجدرى قاد إلى التطعيم ضد أمراض أخرى مثل شلل الأطفال. والاختراعات العديدة جداً قادت وأدت إلى اختراع القوى النووية وتسخيرها فى السلم والحرب. كل ذلك مبنى على المكونات الثقافية المعروفة أصلاً.

وكما يحدد ويؤثر الأساس الثقافى على الاختراعات ونوعها وعددها فأنه يؤثر أيضاً على الاكتشافات ذلك لأن المكتشفين عادة ما يستغلوا ويستفيدوا مما يوجد فى ثقافتهم من معارف وعلوم وفنون وأساليب تكنولوجية. كيف يمكن اكتشاف البترول أو أى نوع من المعادن فى باطن الأرض دون معارف سابقة عن ذلك؟ هل كان من الممكن اكتشاف القارات الحديثة دون تقدم الملاحة واختراع لبوصلة وغيرها من الأجهزة وتوفر الكثير من الخبرات والمعارف الأخرى.

حقيقة الأمر أن الإنسان يسعى دائماً إلى تكييف نفسه للظروف المحيطة به كما أنه لا يرضى عادة عادة بمجرد إحداث القدر من التكيف الذى يكفل له مجرد البقاء وإنما يسعى دائماً إلى زيادة أمنة ورفاهيته وسعادته ومن ثم يلجأ دائماً إلى التفكير فى اختراع أو اكتشاف أشياء جديدة تساعد على تحقيق ذلك، فإلى جانب اختراع أو اكتشاف آلاف الأشياء المادية التى تتضمنها ثقافته فأنه أخترع أشياء معنوية كثيرة كالعلوم والفنون والآداب وغيرها. كل هذه الأشياء المادية والمعنوية الجديدة لها أساس ثقافى وإلا لما كان من الممكن التوصل إليها.

٢ – الاتجاهات نحو الاختراعات:

يعتقد ساذرلاند أن مقدار ما يعطيه أفراد المجتمع للأشياء التقليدية ومقدر ما يعطونه للاختراعات لها تأثير على الاختراعات وسرعتها وربما يعزى ذلك إلى أن بعض المجتمعات تعطى قيماً عالية لأنماط السلوك التقليدى وللأشياء الثقافية المادية المتعارف عليها وتستهزئ وتقلل من قيمة الأشياء الجديدة معنوية كانت أو مدية. وكثيراً جداً ما لقى بعض المخترعين نقداً شديداً واستهزاءاً بمخترعاتهم والسبب فى ذلك أن كل جديد غريب وأن الإنسان يكون عادة قد كيف نفسه على تقبل الأشياء القديمة لقد أوضح ساذرلاند أن Bernhard, J. Stern يفسر كالاختراعات التكنولوجية ـ على أن ذلك مرجعه أن الاختراع يطيح بحالة التوازن الذى أقامها الشخص فى ظل الأوضاع القديمة ويتطلب الأمر فى ظل الاختراع ليس فقط إجراء حالة تكيف سريعة فحسب بل إعادة تنظيم شخصيته لمقابلة الموقف الجديد.

وحتى لو حاول الشخص الاحتفاظ بتوازنه فأن هذه المحاولة تكون على الأقل مصحوبة بحالة مؤقتة من عدم التأكد، فقرارات جديدة يحتاج الأمر إلى اتخاذها، ومزيداً من المجهودات لابد من بذلها كما ولابد أن يمر الفرد ببعض آلام ومتاعب إعادة التكييف وتصبح الحياة بالنسبة له أكثر تعقيداً حيث أصبحت أقل روتينية بل وتبدو محفوظة بالمخاطر. لذا فأنه لا يبدو غريباً أن الاختراع أياً كانت طبيعته يثير المشاعر الخاصة التى توحى بعدم لياقته والاتجاهات المضادة المستهزئة نحوه، أو أن يتجاهله الشخص عمداً حتى لا يسمح له بأن يدخل ضمن خبرته. إذا لم يكن هناك دوافع قوية تثير مجهودات واعية محو إحداث تغيير فأن مبررات قد تستخدم كتبريراً لأتباع السلوك القائم ومعارضة الجديد.

والمجتمع كثيراً ما يكون لديه استعداد لتقبل الاختراعات فى ميادين دون ميادين أخرى. حالياً تشجع الاختراعات والاكتشافات فى ميادين دون ميادين أخرى. حالياً تشجع الاختراعات والاكتشافات فى ميادين كثيرة وبالأخص فى الميادين

التكنولوجية بينما لا تزال الاختراعات الاجتماعية تقابل بنوع من التردد أو النقد أو المعارضة حقيقة أنه حدث بعض الاختراعات الاجتماعية مثل اختراع الحد الأدنى للأجور والحد الأعلى لساعات لعمل والمساومة الجماعية والضمان الاجتماعى، والتأمينات الصحية والجمعيات التعاونية والكثير من القوانين الاجتماعية إلى غير ذلك إلا أن معظم هذه الاختراعات جاءت نتيجة محاولة التكيف لظروف المجتمع المتغيرة والتى فرضتها الاختراعات التكنولوجية وإن كانت الأخيرة ليست بالضرورة سبباً فى الاختراعات الاجتماعية. ومما لاشك فيه أن هناك أفراد كثيرون فى المجتمع لديهم أفكار اجتماعية قيمة لم ترى النور بعد.

ومما يؤكد أن الأساس الثقافى عامل هام فى قيام الاختراعات سواء من حيث نوعها أو عددها ما يوضحه بيزانز من أنه من الخطأ التفكير فى الاختراعات والاكتشافات من ناحية الشخصيات الكبيرة الفذة الموهوبة ذات الدرجة العالية من الذكاء والذى أضافت شيئاً جديداً إلى الثقافة ذلك لأن أى اختراع إنما يستند أساساً إلى المعارف الموجودة قبلاً. ويستدل على ذلك بأن هناك تغيرات ضئيلة جداً ـ إذا وجدت ـ طرأت على حجم ودرجة تعقيد العقل البشرى خلال العشرة آلاف سنة الماضية ومع ذلك فأن الاختراعات حدثت باستمرار وبمعدلات سريعة مؤخراً.

حقيقة أن كل اختراع يحتاج أن كل اختراع يحتاج إلى شخص لديه القدرة على الخلق والتوصل لحلول جديدة للمشاكل لكن هؤلاء الأشخاص موجودين فى كل المجتمعات وفى كل الأجناس ومهما كان الفرد ذكياً لا يمكنه أن يخترع شيئاً إلا استناداً إلى المعارف الموجودة لديه والتى تنطوى عليها ثقافته وعلى سبيل المثال مهما كان توماس أدسون Thomas Edison رجلاً فذا وذكياً فأنه ما كان ليستطيع أن يخترع الضوء الكهربائى ولا الفتوجراف لو أنه ولد منذ ٥٠٠ عام قبل مولده لأن الأعمال التى أرست أسس هذه الاختراعات لم تكن قد عرفت بعد كما أنه لم يكن ليستطيع leonards da, Vinci بكل إعجابه بفكرة الطيران أن يخترع الطائرة لأن

المكينات التى تدار بالجازولين لم تكن غير موجودة بعد، كما لم يكـن فـى اسـتطاعته Isaac Newton أن يتوصل إلى قـانون الجاذبيـة إلا بفضـل أعمـال مـن سـبقوه مـن المفكرين.

والاختراعات لا تنتظر بالضرورة أشخاصاً موهوبيـن أو أذكيـاء بـل أنـه لـو وجدت الظروف المواتية أى المرحلة من مراحل التطور الثقافى المناسـبة فـأن أحـدا من الناس ـ ليس بالضرورة على درجة عاليـة مـن الذكـاء ـ يمكـن أن يتوصـل إلـى اختراع معين. وليس أدل على ذلك ما أو أوضحه وليم أوجبرن William Ogburn من أن ١٤٨ اختراعاً حدثت فى أوقات متتابعة بون أن يكون المخترعون على صلـة بعضهم ببعض. وما ذلك إلا لتشابه لظروف الثقافية ويقول بيزانز أن المثل القائل أن الحاجة أم الاختراع يمكن أن يكون صحيحاً لو أدخل عليـه تعديل ليصبـح الثقافـة أم الاختراع. ونفس الشـئ يمكـن أن يقـال بالنسـبة للاكتشـافات فلـو لـم يكـن كولومبس أكتشف القارة الأمريكية لكان شـخص آخر غيره فعل ذلك لأن الوقت والظـروف كانت ملائمة فقد توصل فى وقته إلى اختراع البوصلة وإلى أساليب محسنة للملاحـة بحيث مكن ذلك من قطع مسـافات طويلـة كمـا وأن لمنافسـة الاقتصاديـة بيـن الـدول جعلت من الضرورى التفكير فى اكتشاف أسواق جديدة.

وفى رأى جون كوبر ن قليل جداً مـن المخـترعين مـن توصلـوا إلـى أشـياء جديدة تماماً، معظـم المخـترعين اسـتفادوا ممـا هـو موجـود فـى ثقافـاتهم مـن أشـياء متجمعة منذ مدة طويلة سواء أكانت مادية أو معنوية وعلـى ذلـك فأنـه يعتقد أن فـى الإمكان عمل توقعات بالنسبة لحدوث بعض الاختراعات. وهو لا يرى أن فى تـأكيد اعتماد المخترعين على مكونات ثقافتهم فـى التوصـل إلـى مخترعـاتهم مـا يقلـل مـن قدرتهم ولكن القصد من هذا التأكيد الابتعاد عن الاعتقاد الخاطئ بأن بعض الأفـراد يوجهون ويتحكمون فى طريق الحياة الإنسانية ـ ذلك أنه لو لم يكـن أديسـون أخـترع التليفون والفتوجراف فأن غيره كان سوف يتوصل إلى هذا الاخـتراع عندمـا تتوافـر

لديه المعارف التى توفرت فى وقت أديسون وبمعنى آخر فأن المخترعون ناتج من نواتج الثقافة كما أنهم فى نفس الوقت من خلقى وصانعى الثقافة.

أما ظاهرة حدوث اختراعات كثيرة فى ثقافة عنه فى ثقافة أخرى فترجع إلى مكونات وخواص كل ثقافة فكلما زادت عناصر الثقافة كلما أصبح من الأكثر إحتمالاً التوصيل إلى عدد أكبر من الاختراعات. وهذا بدوره يزيد من العناصر لثقافية وهكذا، ولعل من المعروف أن من خصائص الثقافة أن عناصرها تتراكم وتتجمع ومن ثم فأنه بزيادة هذه العناصر بمرور الوقت يصبح من الممكن عمل عدد أكبر من توافق والتبادل من هذه العناصر وهذا سبب كثرة الاختراعات فى المجتمعات ذات الثقافات المعقدة عنها فى المجتمعات ذات الثقافات لبسيطة. ومع أن الاختراعات والاكتشافات ضرورية لنمو الثقافة إلا أن جزءاً من التغير لثقافى والنمو الثقافى يتأتى عن طريق الانتشار.

٢ - الانتشار:

عندما تنتقل عناصر ثقافية من ثقافة معينة إلى ثقافة أخرى فأنه يقال أن عملية انتشار (Diffusion) ثقافى قد تمت ـ والثقافات المتقدمة والمعقدة الموجودة حالياً حول العالم وصلت إلى هذه الدرجة من التقدم والتعقيد أساسياً عن طريق الانتشار الثقافى أى اقتباس الكثير من العناصر الثقافية الأجنبية ذلك لأن لأى إضافة قد يضيفها أى جيل من الأجيال إلى ثقافته عن طريق الاختراعات والإكتشافات تعتبر بسيطة للغاية بمقارنتها بمقدار ما قد يقتبسه من ثقافات أخرى خاصةً إذا كان المجتمع من المجتمعات ذات الصلات والعلاقات الاجتماعية الواسعة النطاق مع غيره من المجتمعات الأخرى. ولو أن الانتشار عادة ما يحدث من الثقافة المعقدة فكم من ثقافات معقدة أقتبست بعض عناصر ثقافات بسيطة وعموماً حينما يوجد تقابل بين أفراد ثقافات مختلفة فأنه يحدث عادة نوع من التبادل الثقافى.

ولقد أثارت ظاهرة وجود عناصر ثقافية متشابهة فى مجتمعين بعيدين عن بعضهما كثيراً من التساؤلات. هل هذا التشابه نتيجة الانتشار الثقافى أم نتيجة التشابه فى الاختراعات أم كلاهما الانتشار الثقافى قد يكون فعلاً سبباً فى هذا التشابه إذا ما كانت العناصر الثقافية المتشابهة قد انتقلت بالفعل من مجتمع لآخر، أما الاختراعات وأن كان من الممكن أيضاً أن تنقل بالانتشار من مجتمع لآخر إلا أن تشابهها قد لا يكون بالضرورة مرجعة عملية الانتشار ذلك لأنه من الممكن كما سبق القول أن يتوصل فردين فى مجتمعين بعيدين إلى اختراع معين دون أى اتصال بينهم إذا ما توافرت لظروف والمقومات الثقافية المتشابهة.

أسباب التغير الثقافى:

التغيرات الثقافية قد تنشأ عن قصد أو بدون قصد. فأما التغيرات لثقافية المقصودة فهى تلك التغيرات التى يخطط لحدوثها والتى تستهدف إحلال بعض العناصر أو المركبات أو الأنماط الثقافية محل أخرى، ومن أمثلة هذا النوع من التغيرات تلك التى حدثت فى تركيا فى عهد كمال أتاتورك حيث عمل عن قصد على أقتباس الكثير من العناصر الثقافية الأجنبية فى محاولة لجعل تركيا دولة أوربية عصرية. ومن أمثلتها تلك التغيرات التى تجريها بعض المجتمعات لمتخلفة على أنظمتها الثقافية عن طريق اقتباس العلوم والفنون والتكنولوجى المتقدم من المجتمعات العصرية المتقدمة ومن أمثلتها أيضاً تلك التغيرات الثقافية التى تحاول بعض الدول المستعمرة فرضها على مستعمراتها وفى مقدمة ذلك التغيرات المتعلقة باللغة وأنظمة الحكم والأنظمة الاقتصادية والسياسية وغيرها.

ومن أمثلتها أيضاً تلك التغيرات التى تسعى الدول لمتقدمة لأحداثها من آن لآخر وفقاً للخطط والسياسات التى ترسمها لغرض لنهوض بمختلف نواحى الحياة بها. على أنه كثيراً ما تحدث التغيرات الثقافية بطريقة غير مقصودة أو متعمدة كما

يحدث فى حالة انتشار واقتباس عناصر ثقافية من ثقافة لأخرى عن طريق السياح أو الزائرين الأجانب أو عن طريق وسائل الإعلام المختلفة كالسينما والتلفزيون والراديو وغيرها. وكثيراً ما تكون التغيرات الثقافية غير المقصودة ذات أثر بالغ خصوصاً فى العصر الحديث حيث قربت وسائل الاتصال العصرية كثيراً بين المجتمعات وجعلت فى الإمكان أن تتم الاتصالات بدرجة كبيرة من السرعة والفعالية.

ونظراً لكثرة التغيرات الثقافية وتعقدها فأنه أحياناً ما يصعب التعرف على لسبب الأصلى لكل تغير ثقافى. فقد يؤدى تغير ثقافى معين إلى إحداث تغير ثقافى آخر وهذا الأخير يؤدى بدوره إلى إحداث تغير ثالث وهكذا تبدو العملية وكأنها سلسلة من التغيرات التى يصعب أحياناً التعرف على بدايتها ونهايتها. وعلى سبيل المثال قد يؤدى إستيراد الآلات الزراعية الميكانيكية واستخدامها فى الزراعة إلى إحداث بطالة زراعية وتلك قد تؤدى إلى هجرة بعض العمال الزراعيين العاطلين إلى المدن سعياً وراء الاشتغال بالصناعة أو غيرها من الأعمال والهجرة قد تؤدى بدورها إلى مشاكل اقتصادية وسكنية بالمناطق الحضرية الأمر الذى قد يؤدى إلى انحراف بعض الأفراد وارتكابهم لبعض الجرائم وهكذا نجد أن تغير ثقافى معين استتبعه أخرى عديدة وفى النهاية يصعب التمييز بين لسبب والأثر أن كل تغير فى ناحية من نواحى الثقافة يظهر صداه فى النواحى الأخرى ذات الصلة بها والتى لابد لها من أن تتكيف مع هذا التغير الذى طرأ.

العوامل التى تؤثر على اقتباس أو رفض العناصر الثقافية الجديدة:

المجتمعات كالإفراد أحياناً تتقبل أولا تتقبل العناصر الثقافية التى تأتى إليها من الخارج والعناصر الثقافية عادة ما تنتقل من ثقافة لأخرى عن طريق الأفراد وينظر إليها فى البداية على أنها أشياء غريبة أو عجيبة غير أنه بعد فترة من الزمن

إذا ما أقتبسها أفراد أخرون من الناس تصبح وكأنها عناصر ثقافية بديلة يجرى تجربتها ومقارنتها بالعناصر الثقافية الأصلية وكثيراً ما يتم ذلك بطريقة غير مقصودة حتى إذا ما ثبت بعد فترة أن العنصر الثقافى البديل مرضى ومقبول يصبح جزءاً من مكونات الثقافة. وخلال هذه المراحل تتم ما يسمى بعملية التثقيف Accul turation أى تكيف العناصر الثقافية الجيدة المقتبسة مع الأنماط الثقافية وهى عملية معقدة وليست مجرد قبول أو رفض فكرة أو شئ ثقافى معين أنها تتضمن عادة بافتراض قبول العنصر الثقافى الأجنبى ـ تحوير وتطوير ولو جزئى فى الشئ المقتبس حتى يتمشى ويتلائم مع العناصر الثقافية الأصلية.

وتتفاوت العناصر الثقافية الجديدة من حيث سهولة أو صعوبة اندماجها فى الثقافة الأصلية فبعض العناصر تلقى قبولاً وعدم معارضة خاصة تلك التى لا تتعارض مع التقاليد والعرف والقيم والعقائد السائدة. والبعض الآخر لا تقبل بسهولة خاصة إذا كانت تحدث نوعاً من الإنزعاج للتقاليد والعادات والقيم السائدة. وكما أن العنصر الثقافى الجديد يأخذ وقتاً حتى يصبح جزءاً من مكونات الثقافة فأن العنصر الثقافى القديم أو الأصلى لا يتوارى فجأة لمجرد ظهور عنصر ثقافى جديد بديلاً عنه بل يأخذ ذلك أيضاً بعض الوقت خلاله يستمر العنصر الثقافى القديم كعنصر بديل ولكن يأخذ فى الانقراض تدريجياً حتى يصبح بعد فترة شئ فردى غريب أو عجيب ثم يسقط فى النهاية من مكونات الثقافة نهائياً. والوقت الذى ينقضى حتى يختفى العنصر الثقافى نهائياً من الثقافة يتوقف على مدى تمسك الناس وارتباطهم به عاطفياً وعلى مدى وجود عنصر بديل أحسن منه يحقق الغرض أو يقابل الرغبة أو الاحتياج وغير ذلك من العوامل.

ولعل من السهل أن نتذكر بعض التقاليد والعادات التى كانت فى يوم ما يتمسك الناس بها بشدة ولم يصبحوا بعدد يتمسكون بها كلية أو يتمسكون بها إلى حد ما فقط كما يمكن بسهولة أيضاً أن نلاحظ بعض الأشياء الثقافية التى أخذت أو أخذة

فى الانقراض على سبيل المثال الحلقان الذهبية التى كانت النساء يتزين بها بوضعها فى أنوفهن والخلاخيل التى كن يلبسنها فى أرجلهن وكذلك الطرابيش التى كان الرجال يرتدونها كغطاء للرأس كل هذه وغيرها من الأشياء الثقافية المادية آخذة فى الانقراض تدريجياً. على أن بعضاً من العناصر الثقافية يتعمد الناس أن يحافظوا عليها رغم أنها تبدو أشياء فريدة فى نوعها من أمثلة ذلك تمسك بعض الأفراد باستخدام سيارات من موديلات قديمة، أن قيمة هذه الأشياء فى نظرهم ترجع إلى أنها أشياء كلاسيكية فريدة فى نوعها.

على أن عملية اقتباس عناصر ثقافية جديدة ليست أمرً سهلاً ذلك لأن الناس فى كل مجتمع ترتبط بثقافتها عن طريق التقاليد والعادات والعواطف، أنهم قد تكيفوا لعناصر ثقافتهم وبذا أصبحوا يفضلونها عن أى شئ جديد ولكن رغم ذلك فأن الثقافة تتغير بل وأحياناً تتغير بسرعة عن طريق إضافة عناصر ثقافية جديدة غير أن العناصر لثقافية الجديدة لا تضاف دون تمييز أو اختيار أو تفضيل أو انتقاء بل بالعكس تحدث عملية انتقاء واختيار وتجميع للعناصر الثقافية وفى أثناء هذه العملية تترك جانباً بعض العناصر الثقافية لتندثر بمرور الوقت، وبعض العناصر الثقافية الجديدة يرفض قبولها والبعض الآخر تختار وتلك الأخيرة هى التى تمثل إضافات جديدة إلى مكونات الثقافة. ولقد أوضح بيزانز أن العلماء الاجتماعيون توصلوا إلى بعض القواعد العامة ذات الصلة بالتغير الثقافى وباقتباس أو رفض لعناصر الثقافية الجديدة، من هذه القواعد:

١- أن بعض نواحى الثقافة أكثر قابلية للتغير استعداد لاستضافة عناصر ثقافية جديدة عن نواحى أخرى. فمن الملاحظ أن الاكتشافات العلمية الجديدة فى ميدان الطب ووسائل العمل وزيادة الإنتاج وغيرها تلقى قبولاً عن الاختراعات الاجتماعية فالناس تعارض عادة أى تغيير فى عقائدهم ومؤسساتهم حتى لمجرد جعلها تساير تقدمهم التكنولوجى. وكلما قوى الارتباط العاطفى بين الناس وبين أى ناحية من نواحى ثقافتهم كلما زادت الصعوبة فى إحداث أى تغيير على هذه

الناحية. فمن الصعوبة مثـلاً إدخـال أى جديد علـى النظـام الدينـى والأسـرى لمـا يتضمنه كل من هذين النظامين من عواطـف وتقـاليد وعـادات وعـرف. علـى أن الارتباط العاطفى القوى لا يقلل من سرعة التغيرات الاجتماعيـة وإنمـا يقلـل مـن سرعة التغيرات التكنولوجية.

٢- تميل الثقافة فى كل الأوقات إلى أن تكون منظمة ومتناسقة هذا التنظيم ولتناسـق يكون عادة عرضة للاختلال فيما لـو أدخـل علـى الثقافـة عنـاصر ثقافيـة جديـدة، ومن ثم فإن إدخال هذه العناصر الجديدة تلقى عادة معارضـة، لكـن الثقافـة رغـم ذلك تتقبل بعض العناصر الجديدة التى تتناسب مع تنظيم عناصرها وترفض بشدة ما يتعارض معها خاصة إذا كانت العنــاصر الثقافيـة الجديـدة تتعـارض مـع القيـم الأساسية السائدة بالثقافة. ولقد لوحظ أن الثقافة فى محاولتها للحفاظ على انتظامها وتناسقها ـ أحيناً ما ترفض بعض الأفكـار والآراء الجديـدة حتـى ولـو كنـت ذات قيمة عالية عندما تظهر لأول مرة والتاريخ العلمى ملئ بالكثير مـن الأمثلـة التـى توضح ذلـك ففـى البدايـة لـم تقبـل بسـهولة آراء العلمـاء Pasteur عـن الجراثيـم والآراء Harvey عن الدورة الدموية ولا آراء Galileo عن دوران الأرض مـن حول الشمس بل لقد أتهم الأخير بالزندقة واستهزاء بآرائه إلى حد أنه تخلــى عـن اعتقاده المتعلق بهذا الكشف الجديد.

على أن العناصر الثقافية الجديـة عـادة مـا تقبـل دون معارضـة بـل وأحيانـاً بسهولة إذ كانت تقابل احتياج أو احتياجات ضروريـة معينـة وإذا كـانت قـادرة علـى البقاء والانسجام دون تعارض مع العناصر الثقافية القائمة. وعمومـاً فإنـه يلاحـظ أن جيل من الأجيال قد يقاوم بعف نوعاً معيناً من التغيرات الثقافيـة التـى تتضمـن تبنـى واقتباس عناصر ثقافية جديـدة غير أن هذه العنـاصر لا تلبـث أن تصبـح بعـد فـترة أشياء عادية فى نظر الجيل الذى يليه.

٣- مقاومة التغير الثقافى تحدث بدرجة أكبر من جانب الأفراد كبار السن فى المجتمع ذلك لأن هؤلاء الأفراد أصبحوا على مدى فترة طويلة من الزمن يتمسكوا بتقاليد وعادات وتربطهم عواطف بالكثير من عناصر ثقافتهم، هذا فضلاً عن أنه بحكم تقدمهم فى العمر يصبح فى غير استطاعتهم أو مقدرتهم أن يكتسبوا أو يتبنوا بسهولة عناصر ثقافية جديدة وذلك بمقارنتهم بالصغار والشباب من أفراد المجتمع، فهؤلاء الآخرين لا تربطهم بعد تقاليد وعادات ولا عواطف قوية بالعناصر الثقافية فى ثقافتهم إذ ان الكثير من هذه العناصر تعتبر جديدة بالنسبة إليهم ومعظمهما يمكنهم اقتباسها بسهولة ويسر عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية والتعليم والتدريب، وليس أدل على وضوح الفروق بين الأجيال من حيث مدى تقبل الأشياء الثقافية الجديدة من أن الكثيرين من الأفراد من كبار السن لا يزالون يترددون فى السفر بالطائرات فى عصر الصواريخ سفن الفضاء بينما لا يبدو أن هناك ثمة تردد يذكر يراود الشباب حالياً فى استخدام الطائرات كوسيلة من وسائل الانتقال.

على أن هناك طوائف اخرى من الناس فى المجتمع غير كبار السن قد تقاوم بعض انواع من التغيرات الثقافية إذا ما كانت هذه التغيرات من شأنها أن تضر بمصالحها الاقتصادية أو الاجتماعية فقد يعارض الرأسماليون الإقطاعيون فى مجتمع معين تطبيق الأنظمة الاشتراكية لما قد يؤديه ذلك من ضياع بعض نفوذهم أو مصالحهم أو ما يتمتعون به من امتيازات، لقد عارض أصحاب المصالح فى النقل البحرى فى الولايات المتحدة، كما عارض أصحاب المصالح فى النقل البحرى فى الولايات المتحدة فى إنشاء أولى السكك الحديدية عبر الولايات، كما عارض أصحاب مصانع النبيذ فى فرنسا المشروبات المريكة الخفيفة بحجة أنها تهدد كرامة الثقافة الفرنسية، وهكذا قد يوجد فى كل مجتمع من الطوائف ما قد ترى فى التغيير بعض المضار التى قد تلحق بها من جرائه فتعمل على مقاومته ومناهضته وفى

سبيل تحقيق أهدافها قد تتذرع بأسباب تبدو ظاهرياً مقبولة فى ظل القيم السائدة والعقائد والتقاليد.

٤- يلاحظ ان الاختراعات واقتباس عناصر ثقافية جديدة تحدث بسهولة فى فترات الأزمات وأوقات الحروب أو حالات عدم التنظيم الاجتماعى عنه فى حالة الاستقرار ففى الحروب يضطر الناس إلى العمل على التوصل إلى وسائل تكنولوجية جديدة سواء فى انتاج الأسلحة والمعدات أو فى انتاج الغذاء والكساء ومقابلة مختلف الاحتياجات كما يتقبلون القيام بأعمال وأداء أدوار لم يسبق لهم أن فكروا فيها ويقل ترددهم فى أتباع الأنماط الجديدة من السلوك التى تفرضها طبيعة الحياة الجدية، على سبيل المثال خلال الحرب العالمية الثانية وفى أكثر من مجتمع دخلت المرأة ميادين أعمال جديدة لم يسبق لها العمل فعملت بالقوات المسلحة وقيادة سيارات التاكسى كما عملت على الجرارات الزراعية فى الحقول وغيرها من الأعمال التى لم تكن تطرقها من قبل.

ان اشتغال المرأة بهذه الأعمال قد يبدو شيئاً طبيعياً فى الوقت الحاضر غير انه منذ ثلاثين عاماً مضت كان شيئاً جديداً وغريباً وعملاً اضطرارياً فرضته ظروف الحرب، ففى سبيل تحقيق النصر عادة ما يقبل أفراد المجتمع القيام بأوجه نشاط لم يسبق لهم القيام بها، ويعطى المجتمع اهمية بالغة للاختراعات والاكتشافات وأيضاً الأساليب الجديدة التى من شأنها أن تعطيه تفوقاً على العدو وكثيراً ما كان للأزمات الاقتصادية والظروف الاجتماعية السيئة التى تنتاب حياة المجتمع فى أى فترة من الفترات آثاراً مشابهة من حيث تيسير وتشجيع الأقدام على اقتباس عناصر ثقافية جديدة ربما يصعب تبنيها واقتباسها تحت الظروف العادية.

٥- ينتشر شكل العنصر الثقافى بسهولة عادة عن استعمالاته ومعناه ووظيفته، تبدو هذه الظاهرة بوضوح من محاولة بعض الأفراد التمسك باقتناء بعض الأشياء

الثقافية على الرغم من عدم استعمالهم لها أو معرفتهم لمعناها أو وظيفتها. وربما يرجع ذلك إلى أن اقتنائها يكون مصحوباً بمكانة اجتماعية عالية كأن تكون مثلاً رمزاً للثراء أو الانتماء إلى طبقة اجتماعية عالية، ولو أنه ليس بالضرورة أن يكون التمسك باقتناء الأشياء الثقافية لهذه الأسباب، هذا ومن الملاحظ أن شكل العنصر الثقافى عادة ما يستمر مدة طويلة حتى بعد زوال المعنى الحقيقى الأصلى له.

وعلى سبيل المثال الزرایر على اكمام جاكتة الرجال يقال أنها كانت فى الأصل توضع لمنع الجنود من مسح أنوفهم فى أكماهم ورغم انقراض هذه العادة فإن الزرایر لا تزال باقية يستعملها الناس دون ما معرفة لمعناها أو وظيفتها، والعروات فى ياقة جاكتات الرجال ربما كانت تستخدم فيما مضى للتزين بوضع إحدى الزهور بها ومع انقراض هذه العادة لا تزال توجد العروات بجاكتات الرجال رغم عدم وجود أى استعمالات لها، ويطلق عالم المجتمع Edward A. Ross على ظاهرة استمرار أسلوب اجتماعى فى البقاء شكلاً بعد زوال المبررات الأصلية له بظاهرة Assification وهو يعزى ذلك إلى البلادة العقلية إلى حد أن العاطفة تتدخل فى استمرار الشكل رغم عدم وضوح المعنى أو توقف الاستعمال أو الوظيفة وإلى عدم النجاح فى فهم الخواص الديناميكية للمجتمع.

٦- عدم وجود لغة مكتوبة والاختلافات فى اللغة التى يتكلم بها الناس تعتبر من العوائق الشديدة بالنسبة لاقتباس عناصر ثقافية جديدة لثقافة أجنبية. على أنه من الملاحظ أن العناصر الثقافية التى لا تحتاج إلى تفسير أى التى يسهل أدراك معناها أو فائدتها أو استعمالها ووظيفتها دون ما حاجة إلى شرح أى كلام تتخطى العوائق أو الحواجز الثقافية بسهولة نسبياً ومن بين هذه العناصر وبالأخص الكثير من الأشياء الثقافية المادية.

٧- الاتجاهات نحو الثقافة المعطية أو المانحة قد تؤثر كثيراً على مدى الاستعداد لتقبل عنصر ثقافى معين أو رفضه، فالمرأة فى كثير من المجتمعات المتقدمة لديها الاستعداد لتقبل العطور والأزياء والموضات الباريسية، والرجال لديهم الاستعداد لتقبل أزياء البدل الإنجليزية، فكلما كان هناك تقدير عالى للثقافة المعطية كلما كان هناك استعداد لتقبل العناصر الثقافية التى تتضمنها هذه الثقافة، وبالطبع هناك نوع من الانتقاء والاختيار إذ لن يتم عادة تقبل مختلف العناصر بنفس الدرجة من الاستعداد.

٨- قد يتعذر اقتباس بعض العناصر الثقافية نظراً لمرحلة التطور التكنولوجى التى يمر بها المجتمع، وعلى سبيل المثال توجد أجهزة ومعدات كهربائية والكترونية معقدة فى بعض الدول المتخلفة ومع ذلك لا توجد مصانع هذه الأجهزة والمعدات بهذه الدول لعدم وجود الأفراد الفنيين الذين لديهم الخبرات والمعارف والكفاءات اللازمة لانتاجها، وعموماً يلاحظ أن الناس تقبل بسهولة العناصر الثقافية التكنولوجية خاصة تلك التى يروا مميزاتها وفوائدها بوضوح.

تلك هى بعض القواعد العامة والعوامل والظروف التى تؤثر على عملية التغير الثقافى وتساعد أو تعرقل من اقتباس بعض العناصر الثقافية الجديدة.

الفصل السادس

العمليات الثقافية

على الرغم من أنه لا يوجد حقائق علمية دقيقة توضح متى وأين وكيف بدأ الإنسان فى خلق ثقافة إلا أن السعى للتعرف على اصل ونشأة الثقافة يشغل تفكير الكثير من الباحثين منذ عدة قرون، ليس كل هؤلاء من العلماء بل أن بعضهم من رجال الدين والفلاسفة البعض منهم وضع بعض التفسيرات أو التخمينات أو النظريات وإن كانت أيا من هذه الآراء لم يوضع موضع الاختيار العلمى لأن فترة ما قبل الوقوف على حقيقة نشأة الثقافة باقية بسبب عدم إمكان التعرف على منابع واصول أنشطة الإنسان التى أدت إلى خلقها.

على ان العلم لم يخلو من بعض المعارف الموثوق بها والتى تلقى الضوء على بعض النواحى المادية الأولى من حياة الإنسان والتى لا تزال لها دلالات واضحة كالآلات والأوانى والرسومات على جدران الكهوف وغيرها من الماديات الثقافية والتى لا تزال باقية حتى الآن، أما الأشياء الثقافية المعنوية الأولى فإنه يصعب التعرف عليها لأنه قبل ظهور الكتابة والفن لا يوجد أدلة ملموسة عن الكيفية التى كان عليها يعيش الناس، وفى ماذا كانوا يفكرون أو لماذا ظهر اختراع معين دون اختراع آخر، ومع ذلك فإنه أمكن من بعض الماديات الثقافية استنتاج بعض المعانى الثقافية المعنوية ير ان الحذر لابد وأن يكون شديداً حتى لا تكون هذه الاستنتاجات بعيدة عن الحقيقة.

ورغم كل هذه الصعوبات فإن الانثربولوجيون استطاعوا أن - يتوصلوا إلى قدر لا بأس به من المعارف الموثوق بها عن بدايات الثقافة وتطوراتها الأولى وربطها بعضها ببعض بما يسمح بإمكان وضع تصور زمنى لنشأة وتطور الثقافة تشير إلى أنها ظهرت منذ حوالى مليون عام قبل الميلاد. العناصر الثقافية المادية

عن هذه الفترة لاشك بسيطة تتمثل عادة فى بعض الآلات الحجرية والتى كانت مستعملة فى قطع الأشياء أو فى عزيق الأرض.

هناك قليل من الأدلة على أنه خلال النصف مليون عام الثانى من نشأة الثقافة حدثت بعض التغيرات فى انتاج الماديات الثقافية مما يدل على ان العناصر الثقافية المعنوية قد تغيرت خلال هذه الفترة وأن كان لا يوجد أدلة قاطعة على ذلك فضلاً عن أن هذه التواريخ والاستنتاجات قد لا تكون صحيحة كلية.

والثقافة خلال تاريخها الطويل طرأ عليها تغيرات أدت إلى زيادة عناصرها المادية والمعنوية زيادة كبيرة تلك الزيادة لم تكن مجرد إضافات لما هو موجود بل كانت محصلة اندثار بعض العناصر وإضافة عناصر أخرى جديدة منتقاه بدت منطقية أو أفضل من تلك التى تم التخلى عنها، على أنه خلال تلك العملية من التخلى والتبنى للعناصر الثقافية لابد وأن تظل الثقافة وحدة متكاملة ومتناسقة وأن كان هذا التكامل والتناسق قد يعتبر به بعض الضعف خلال عملية موائمة وتقبل الجديد من العناصر فى إطار الثقافة القائمة.

وعموماً يمكن القول أن تطور الثقافة حدث على مدى فترة زمنية طويلة، وأنه خلال معظم هذه الفترة الطويلة كانت التغيرات بطيئة ولكن سرعة التغير كانت كبيرة فى السنوات الأخيرة، والكثير من خواص المجتمعات العصرية مثل الديموقراطية، والعلم ومستوى المعيشة المرتفع كلها أشياء جديدة فى حياة الإنسان لدرجة أنه أحياناً يحتار فى كيفية التعامل معها.

التغيرات فى الثقافة أمر حتمى ولم تعجز أى ثقافة أن تحدث فيها نع من التغيرات إذ رغم أن هناك عوامل تعمل على الاستقرار فإن هناك عوامل اخرى تدعوا إلى التغيير وإن كانت سرعة التغير تختلف من ثقافة إلى ثقافة أخرى فبعضها

يتغير بسرعة فى وقت معين وببطـئ فـى وقـت آخـر والبعـض الآخـر بعكـس ذلـك، والتغيرات الثقافية كما سبق القول تتم عن طريق اضافة عناصر ثقافية أو فقدان أخرى أو تغير الاهتمام ببعض ما هو موجود.

العناصر الثقافية الجديدة قد تنشأ نتيجة للاختراعات داخل الثقافة أو نتيجة للانتشار اليها من ثقافات أخرى. والاختراعات كما اتضح تتضمن حتماً استخدام العناصر الثقافية الموجودة فى صورة تركيبة جديدة ومن ثم كلما كانت العناصر الثقافية الأساسية كثيرة - بافتراض ثبات العوامل الأخرى - كلما كانت الثقافة غنية بالعناصر التى يمكن أن ينتج منها اختراعات، هذا الأمر صحيحاً سواء أكانت العناصر الثقافية مادية أو معنوية.

ومع احتمال وجود استثناءات بالنسبة لبعض المجتمعات البدائية، فـإن جميع المجتمعات حصلت على معظم مكونات ثقافاتها عن طريق الانتشار اكثر منه عن طريق الاختراع ومعظم الاختراعات تمثل تعديلات طفيفة أو تغييرات فى بعض تفاصيل الثقافة، أما النمط الثقافى الأساسى فإنه أقل تكراراً من التغير كما أن التعديلات التى تطرأ عليه ليست كلية، والاختراعات قلما يمكن معرفة مدى ما سوف تحدثه من تغيرات مستقبلاً ولا النواحى من اجمالى الثقافة التى سوف تتأثر باختراع معين.

وأخيراً فإن العامل المحدد لمدى تكامل أى عنصر ثقافى مادى أو معنوى يتوقف على مدى تناسبه (أو توافقه) مع مكونات الثقافة السائدة. يقيم أى عنصر وفقا للمستويات والمعايير والقيم الثقافية السائدة وهذه المستويات والمعايير والقيم كلها أصلاً مبتكرات سابقة تلك هى فقط بعض المعارف الأساسية بالنسبة لتطور ثقافة الإنسان والعمليات التى تكتنفها.

التراكم الثقافى:

تبين مما تقدم أن عملية التغير الثقافى يصاحبها ادة استحداث عناصر ثقافية جديدة سواء نتيجة للاختراعات أو الاكتشافات أو الاقتباس من ثقافات أخرى كما يصاحبها أحياناً اندثار أو انقراض أو التخلى عن عناصر ثقافية قديمة خاصة بعد التوصل إلى عناصر ثقافية جديدة أفضل منها، وعموماً يلاحظ أن العناصر الثقافية الجديدة أى المستحدثة أكثر من العناصر الثقافية المندثرة أو التخلى عنها، وظاهرة زيادة وتجمع العناصر الثقافية مادية كانت أو معنوية تسمى بالتراكم الثقافى "Cultural Accumulation" وعملية تراكم العناصر الثقافية نشأت منذ أن بدأ الانسان الأول استخدام العصى والحجارة والأسلحة البسيطة وهى عملية لا تزال تحدث حتى الآن ولو أنها تحدث بدرجة أكثر سرعة عن ذى قبل فالثقافة التكنولوجية أصبحت معقدة وتزداد تعقيداً وتتزايد بمعدلات كبيرة بمرور الوقت.

وإذا كان من الواضح أن الأشياء الثقافية المادية تتجمع وتتراكم فإن العناصر الثقافية المعنوية يحدث لها نفس الشئ فالمعارف التى يلم بها الإنسان حالياً عن العالم الذى يعيش فيه زادت زيادة كبيرة نتيجة تجميع الإنسان لها على مر العصور المختلفة فكل جيل من الأجيال قد أضاف إلى المعلوم من المعارف قدراً جديداً سواء استفاد منه أم لم يستفد، فالإنسان العصرى أصبح لديه من المعارف ما لم يتوافر لدى الإنسان منذ مائة عام والمعارف التى تتطلبها الحياة العصرية أكثر بكثير من المعارف التى كانت تتطلبها الحياة فى الأزمنة الماضية ومن أجل ذلك يسعى الإنسان دائماً إلى الحصول على المزيد من المعارف التى يستخدمها فى تحقيق رغباته واحتياجاته المتزايدة.

ونظرة بسيطة إلى المكتبات العلمية وما بها من مراجع علمية وكتب مختلفة تكفى للدلالة على ذلك. لقد تطورت اللغة وزادت المصطلحات العلمية نتيجة للتقدم

التكنولوجى وما صاحبه من انتاج كثير من الماديات الثقافية التى استلزمت بدورها مسميات لم تكن موجودة من قبل، كما ان التقدم العلمى والمعارف العلمية الجديدة تطلبت أيضاً مصطلحات ومسميات جديدة، كل ذلك أدى إلى ظهور العديد من القواميس ذات الأحجام الكبيرة والتى لم تكن موجودة من قبل بل لا تزال غير موجودة فى المجتمعات البسيطة ذات المعارف العلمية القليلة وذات التكنولوجى البسيط.

وكما يحدث تراكم وتجميع المعارف على اختلاف أنواعها فأن التقاليد والعادات الشعبية والعرف والقوانين تتراكم أيضاً على مر الزمن، فطريقة سلوك الناس فى أى مجتمع أن هى الا جزء من تراثهم الاجتماعى الذى أنتقل اليهم من الأجيال السابقة بعد أن أضاف إليه كل جيل شيئاً جديداً وقد يكون عمل قائمة بالأشياء الثقافية المادية الجديدة يظهر بوضوح أثر التراكم الثقافى أمراً أسهل من عمل من هذه القائمة بالنسبة للعناصر الثقافية المعنوية رغم كثرتها، أن وجود عناصر ثقافية مادية فى حد ذاته أدى إلى ضرورة وجود عناصر ثقافية معنوية ممثلة فى طرق السلوك والتفكير والاتجاهات التى استلزمها استعمال تلك الأشياء المادية.

حقيقة أنه قد يطرأ على ثقافة بعض المجتمعات فى وقت معين نتيجة لظروف معينة نكسة تجعل الثقافة راكدة أن لم ترتد إلى الوراء فيصبح التكنولوجى وتصبح المعارف السائدة بها أسوأ مما كان موجوداً من قبل غير أن هذه ليست القاعدة العامة، أن تجاه الثقافة فى الأمد البعيد يميل نحو تراكم العناصر الثقافية، فكل مجتمع وكل جماعة إنسانية تسعى باستمرار إلى زيادة أمنها ورفاهيتها سواء عن طريق الاختراع أو الاقتباس ثم ينتقل ما تتوصل إليه من عناصر ثقافية إلى الأجيال التى تليها والتى تقوم بنفس الشئ وهكذا تصبح سرعة التراكم الثقافى أكبر كلما زادت العناصر الثقافية، على أن عملية تجميع العناصر الثقافية المعنوية والمادية

واستحداث بعضها والتخلى عن البعض الآخر لا يتم بطريقة عشوائية وإنما كما يقول William Ogburn يحدث وفق عملية انتقاء واختيار للأصلح.

إذا كان من خصائص الثقافة أن عناصرها تتراكم بسرعة أكبر بمرور الوقت فهل هناك حدود لهذه العملية، يعتقد ساذرلاند وزملائه أن هناك حدود لمدى قدرة الإنسان - مهما بلغ ذكاؤه - على حل المشاكل المعقدة، فرغم أن الإنسان قد يستطيع أن ينمى قدرات جديدة لمواجهة المشاكل العديدة الصعبة إلا أن ظهور هذه القدرات عن طريق التطور البيولوجى أمر قد يحتاج إلى مئات السنين بافتراض إمكان حدوثه، والإنسان بقدراته الحالية على الاختراع استطاع أن ينتج الكثير جداً من العناصر الثقافية ويضيف عليا المزيد من العناصر باستمرار، الأمر الذى زاد من تعقد الثقافة، وعادة لا تنتج مشاكل كثيرة من جراء إضافة عناصر ثقافية جديدة طالما أن تلك الإضافة لا تخل بتنظيم وتكامل الثقافة وطالما أنها قادرة على الاندماج فى الأنماط الثقافية القائمة وفى الوقت نفسه لها فائدة وقيمة مقبولة لدى أفراد المجتمع.

على ان ساذرلاند وزملائه يعتقدون أن هناك مقادير من الثقافة التكنولوجية التى يستطيع الإنسان أن يستوعبها دون أن يكون لها آثار ضارة، فالإنسان يستطيع أن يتحمل كميات صغيرة متزايدة من العناصر الثقافية المادية ولكن لحدود معينة بالضبط كما يستطيع المريض أن يتحمل جرعات صغيرة متزايدة من الدواء ولكن لحدود معينة، وكما أن بعض المرضى يذهبون ضحية اختبار بعض أنواع الأدوية فى البداية فإن الإنسان قد يضار فى البداية عند محاولة الاستفادة من بعض العناصر الثقافية خاصة إذا زادت عما يستطيع أن يتحمل.

ولو أن الإنسان استطاع أن يتقبل وبفائدة كميات متزايدة من العناصر الثقافية إلا أنه يعتقد أن عاجلاً أو آجلاً سوف لا يستطيع أن يستمر فى ذلك من أن يصل

إلى المرحلة التى تظهر عليه فيها الآثار المرضية ولو أن بعض العلماء الاجتماعيون يعتقدون أن هذه المرحلة بدأت فعلاً فى الظهور ويشيرون إلى ارتفاع معدلات الجنون والأمراض العقلية والنفسية المختلفة وإلى انتشار ظاهرة عدم التنظيم واستخدام الأسلحة الذرية وغيرها من القوى الهدامة، على أن بعض آخر من العلماء ينظرون ببساطة إلى هذه الظواهر المرضية على أنها مجرد تغيرات دورية.

التقدم الثقافى:

أن تراكم الثقافة وتعقدُها أمر واضح لا يحتاج إلى دليل فالإنسان فى كل عصر من العصور يحاول عن طريق الاختراعات والاكتشافات وعن طريق اقتباس وتبنى عناصر ثقافية جديدة أن يكون فى مركز قوى فى نضالة مع البيئة الطبيعية والاجتماعية التى يعيش فيها ولم يقنع فى اى وقت من الأوقات بمجرد ضمان استمرار بقائه حياً أى بمجرد الحصول على ضروريات الحياة بل كان دائم العمل على أجراء تعديلات وتحسينات على مكونات ثقافية بقصد تحسين مستوى حياته، لقد اتجه خاصة بعد أن اصبح واثقاً من توافر ضروريات الحياة إلى تنمية بعض نواحى الثقافة والاهتمام بها والعمل على تحسينها فبدأ يهتم مثلاً بالفنون والاحتفالات والأديان والتمييز الطبقى. وغيرها ثم بدأ يهتم بالعلم والأساليب التكنولوجية وبمرور الوقت أصبحت فى كل ثقافة بعض النواحى المتقدمة عن نواحى أخرى كما أصبحت بعض الثقافات تتضمن نواحى تبدو متقدمة عن مثيلاتها فى ثقافات أخرى.

وكثيراً ما يتساءل البعض عن مدى تقدم او تخلف ثقافة معينة بمقارنتها بثقافة أخرى أو عما إذا كانت ثقافة معينة أسرع أو أبطأ تقدماً أو أحسن من ثقافة أخرى بل أحياناً ما يتساءلون عما إذا كان هناك تقدم ثقافى أو أن هناك مجرد تغير ثقافى، إلى غير ذلك من التساؤلات العديدة التى تثيرها بوجه خاص الاختلافات الملحوظة بين الثقافات والتغيرات الكثيرة التى تطرأ عليها، فى الحقيقة هناك بعض

الصعوبات التى تحول دون إمكان إعطاء إجابات محددة لهذه التساؤلات. فكما يقول هارى جونسون أن الثقافة من الصعب تقييمها بدقة وواقعية لأنه من الصعب التوصل إلى مقاييس دقيقة محددة ومقبولة ويتفق عليها جميع الناس بالنسبة للحكم على الثقافة إلا أنه يرى فى نفس الوقت أنه بالنظر إلى بعض نواحى وليس إلى الثقافة ككل يتبين أن بعض نواحى الثقافة يصعب إلى حد كبير تقييمها تقييماً واقعياً محدداً بينما البعض الآخر يمكن إلى حد ما تقييمه، والنواحى المعنوية للثقافة بصفة عامة أصعب فى الحكم عليها من النواحى المادية ومن أمثلة نواحى الثقافة التى يصعب تقييمها الدين لأنه يتضمن قيماً وعقائد يصعب الحكم عليها أو اختبار مدى صحتها بالأساليب العلمية ومن ثم فإنه يصعب أيضاً المقارنة بين الأديان المختلفة.

على ان التقاليد والعادات والفنون هى الأخرى من النواحى الثقافية المعنوية التى يصعب تقييمها والحكم عليها حكماً دقيقاً محدداً موضوعياً خاصة وأن بعض هذه النواحى هى تراث ثقافى لأجيال عديدة سابقة والحكم عليها بمعايير الثقافة الحالية ربما لا يكون أجراءاً دقيقاً فقد تكون هذه المعنويات فى وقت حدوثها ذات قيمة عالية وربما ظلت كذلك حتى الآن لكن احتمال عدم تقديرها حالياً التقدير التى تستحقه لعدم فهمها فى ضوء الثقافة الحالية احتمال غير مستبعد لأن الإنسان كما يقول جونسون لا تستوعب شخصيته كل الثقافات أى لا يلم بها جميعاً.

على أن هناك بعض النواحى الثقافية المعنوية الأخرى والتى ربما يمكن تقييمها بدرجة أقل من الصعوبة ومن أمثلة ذلك العلم ممثلاً فى مجموعة المعارف العلمية من حقائق وقواعد عامة ونظريات وقوانين وأساليب البحث العلمى، كذلك الأساليب التكنولوجية المستخدمة فى مختلف الميادين كالكب والهندسة والانتاج والاستهلاك وفى الإدارة كل هذه وغيرها أمكن إلى حد ما إيجاد مقاييس على درجة من الدقة لا باس بها لقياس مدى التقدم الذى طرأ عليها وإن كانت تلك المقاييس لا

يزال يدخل عليها من آن لآخر بعض التعديلات والتحسينات بما يجعلها أكثر دقة وواقعية.

وكلما كان التقدم الذى تسعى إلى تحقيقه أى ناحية من نواحى الثقافة يستهدف تحقيق اهداف يمكن قياسها بطريقة موضوعة وعن طريق الاختبار كلما كان التقييم أكثر سلامة وصحة وتحديداً، ولقد أتضح قبلاً أن الماديات الثقافية من السهل حصرها والوقوف على التغييرات التى تطرأ عليها كما ويمكن تقييم مدى التقدم الذى طرأ على عليها نظراً لأمكان التوصل إلى مقابيس دقيقة نسبياً لقياس هذه العناصر الثقافية.

على ان البعض قد يتساءل عما إذا كانت ثقافة من القافات التى يسود فيها العلم والأساليب التكنولوجية أحسن أو مثل أو أقل مستوى من ثقافة أخرى لا تأخذ بالعلم والأساليب التكنولوجية بنفس القدر يقول هارى جونسون أن من الصعب الإجابة على مثل هذا التساؤل لأنه من الصعب الحكم على أى مجتمع أنه مخطئ لعدم استخدامه العلوم الحديثة لأنه ربما يكون سعيداً بحياته الحالية وقد يصبح تعساً فى ظل غيرها من الأنظمة، وبمعنى آخر أن التقدم العلمى ممكن حدوثه ولكن ليس من المحتم على أى فرد أن يعتبره شئ مرغوب فيه فى حد ذاته لهذا السبب يبدو ومن الصعب القول بطريقة واقعية أن هناك تقدم فى الثقافة عامة أو أن ثقافة بأكملها أحسن أو أقل من الأخرى لأنه من الصعب الوصول إلى اتفاق بالنسبة للمقاييس اللازمة للحكم على ذلك.

التخلف الثقافي:

لعل اصبح واضحاً أن الثقافة رغم استمرارها فهى متغيرة وأنها ليست من صنع فرد ولا جيل واحد وإنما من صنع أجيال عديدة كل جيل يضيف اليها بعض العناصر سواء عن طريق الاختراعات أو الاقتباس وكل جيل يحاول أن يغير ويحور فى مكوناتها وفق ما يراه مناسباً لتحقيق رفاهيته وسعادته، وبما انها تنتج

نتيجة العلاقات الإنسانية وخبرات الناس فإنها تتغير كلما تغيرت العلاقات والخبرات والثقافة لا تتغير أجزاؤها بالتساوى وإنما تتغير بعض عناصرها بسرعة عن عناصر أخرى كما وأن بعض أجزائها أكثر قابلية للتكيف عن البعض الآخر.

ولما كانت العناصر الثقافية متناسقة ومترابطة ومتداخلة فى مركبات وأنماط ثقافية ومنظمة فى أنسقة عامة متكاملة فأن أى تغير فى اى عنصر من عناصر الثقافة من شأنه أن يضغط على العناصر الأخرى المتصلة مما قد يؤدى إلى احداث تغيرات فيها، وعندما تكون العناصر المتصلة بالعنصر المتغير بطيئة التغير أو التكيف فأن ذلك يؤخر من رد الفعل اللازم لإعادة التوازن وقد يمر بعض الوقت إلى ان يتم رد الفعل الذى يعيد حالة التوازن والتكيف بين العناصر المتغيرة إلى ما كانت عليه، خلال هذه الفترة تسود حالة من عدم التكيف التى توصف بالتخلف الثقافى.

وأمثلة التخلف الثقافى كثيرة منها فى المجتمع المصرى مثلاً عدم وجود الطرق الواسعة المرصوفة التى تتناسب وعدد وحجم وسرعة السيارات وكثرة استخدامها فى الوقت الحاضر عدم كفاية المدرسين والمبانى المدرسية والمعدات والتجهيزات المختلفة لمقابلة احتياجات الأعداد الكبيرة من الطلاب التى تقبل أو التى يجب ان تقبل سنوياً تنفيذاً لقانون التعليم الإلزامى، عدم وفرة العمال المهرة التى يحتاج اليهم للعمل بمختلف المصانع ذات الأجهزة والمعدات الحديثة عدم وجود الفنيين فى بعض الإدارات حيث توجد آلات ميكانيكية والكترونية حديثة ومعقدة، عدم كفاية المساكن لملاحقة الأعداد المتزايدة من السكان أو عدم تطور التسهيلات السكنية لتتمشى مع الحياة العصرية.

وجدير بالذكر أن التقدم العلمى والتكنولوجى السريع فى الوقت الحاضر كثيراً ما كان سبباً فى احداث تغيرات سريعة فى بعض نواحى الثقافة عن أنواع أخرى مما ساعد على وجود تخلف ثقافى ملحوظ فى بعض النواحى ويسعى المصلحون والمخططون وقادة الحكم فى مختلف المجتمعات دائماً إلى محاولة التقليل

من التخلف الثقافى بقدر المستطاع. وعندما يفشلون فى ذلك يصبح التخلف من المشاكل الهامة والعويصة والتى قد يؤدى إلى حتمية قيام اجراءات ثورية للتغلب عليه.

التكامل الثقافى Cultural Intergration

لقد اوضحنا قبلاً ان العناصر الثقافية تترابط فى مركبات ثقافية والخيرة تتناسق فى أنماط ثقافية فتقليد من التقاليد يتشابك مع تقليد آخر ليكون تقليداً معقداً وهذا يتشابك مع آخر ليكون مركباً أو نمطاً ثقافياً، وقد يرى الاجتماعيون ذلك بسهولة غير أن الأفراد العاديون لا يقدرون الأجزاء المتناثرة فى الثقافة لا يعرفون معناها إلا إذا كانت تلك الأجزاء فى وئام وتناسق وتكون مع بعضها ترابط ووحدة أو وحدات متكاملة تؤدى غرضها وتحقق هدفاً واضحاً فى الحياة، فالعناصر الثقافية لابد من أن تترابط وتتناسق لا لتيسير فهم وأدراك الإنسان وتمكينه من التكيف لها فحسب بل لكى تستطيع الثقافة أن تؤدى وظائفها.

ويلاحظ أنه فى المجتمعات الصغيرة ذات الثقافات البسيطة والتى حدث فيها ببطئ قليل من التغيرات الثقافية والتى يقل فيها التخلف الثقافى والتى تسير فيها الحياة على الوتيرة المتبعة يكون عادة التكامل الثقافى قوى والميل للمحافظة عليه كذلك ميل شديد وذلك على عكس الحال فى المجتمعات الكبيرة ذات الثقافات المعقدة ذات التغيرات الثقافية الكثيرة والسريعة والمصحوبة عادة بتخلف ثقافى، ففى مثل هذه المجتمعات يكون التكامل عادة مهدداً من آن لآخر خاصة إذا كان بالمجتمع جماعات ذات ثقافات متباينة، على أنه مهما كان المجتمع بسيطاً أو معقداً، بطئ وقليل التغير أو سريع وكثير التغير فإن درجة من التكامل والتناسق بين مكونات ثقافته لابد من أن تتوافر حتى يمكنه الاحتفاظ بكيانه التى يحقق لأفراده الشعور بالأمن ويشبع رغباتهم ويقابل احتياجاتهم.

ولعل البعض يتساءل إذا كان هناك ثقافة متكاملـة تمامـاً، وهـل هـذا التكـامل التام شئ مرغوب فيه، وإذا لم يكن هنـاك تكـامل تـام فمـا هـى الدرجـة مـن التكـامل المرغوب تحقيقها؟ وما هى الدرجة من عدم التكامل غير المرغوب فيهـا؟ وللإجابـة على هذه التساؤلات يمكن القول أنه لا يوجد فى الحقيقة ثقافـة متكاملـة تمامـا فضـلا عن أن هذا التكامل التام ليس أمـرا مرغـوب فيـه لأنـه يحـد مـن تجـدد الثقافـة ومـن تطورها ويصعب ويعرقل من احداث تغيرات عليها، ليس هذا فحسب بل يجعلها فـى أى وقت عرضة للوقوع فى حالة من عدم التنظيم تحت تـأثير أى ضغـط قـوى ينشـأ بسبب عوامل داخلية أو خارجية.

على أن الثقافة لابد وأن تكون على درجة معقولة من التكامل تسمح بإمكـان قيامها بوظائفها وفى نفس الوقت تسمح بإمكان إدخال تغيرات على مكوناتها، ولأجـل أن تتغير وتتطور عناصر الثقافة لابد من أن يكون هناك بعض المرونـة فيمـا يتعلـق بترابطها وتناسق اجزائها بعضها مع بعض فالدرجة المقبولة من التكامل مع المرونة من شـأنهما أن يسـمحا للثقافـة بـأن تكـون متغيرة ومتجددة وتسـاعد علـى الاحتفـاظ بدرجة مقبولة من التنظيم، ونقص التكامل الثقافى أى قصوره عن الحد المرغوب قـد يؤدى إلى خلـق حالـة مـن عـدم التنظيـم حيـث تتداعـى الأنمـاط السـلوكية الجماعيـة ويتخلى عنها أو بعضها وتنشأ أنواع من التضارب والصراعات والمنازعات بل وقـد يصل الأمر إلى حد أن تسود حالة من الضياع وفقدان الأمـل وعـدم وضـوح الرؤيـا وتضارب الأهداف، وهى حالة علـى طـرف النقيـض مـن التكـامل ويطلـق عليهـا بــ Anomie.

ويساعد على حدوثها عدم تجانس ثقافـة الجماعـات داخـل المجتمـع وسـرعة وكثرة التغيرات الثقافية والتخلف الثقافى. وفى كل المجتمعات توجـد عمليـات تكـامل وعمليات عدم تكامل (anomie) أى تفكك وانهيار وتداعـى وتضـارب وعـدم تنظيـم ولو أن هذه الأنواع من العمليات تختلف فى درجتها عن مجتمع لآخر، غير انـه فـى

مجتمع مستمر يكون التكامل هو الغالب لأن استمرار المجتمع وبقائه موهون بوجود درجة كافية من التكامل.

وإذا كان الوضع الأمثل لأى ثقافة هو أن تكون متكاملة فليس معنى ذلك أنها تكون خالية تماماً من المتناقضات ولا من العناصر المتصارعة والمتضادة ولكن المهم هو أن لا تضفى هذه العناصر على باقى مكونات الثقافة فتجعل ظاهرة عدم التنظيم والفوضى هى الغالبة، لا مانع من وجود بعض المتناقضات ولكن بشرط أن يكون أفراد المجتمع قادرين على ان يحتفظوا بقدر من الاتفاق العام على الأنماط السلوكية الرئيسية وعلى القيم والعقائد والتقاليد الأساسية لأن ذلك الاتفاق شرط أساسى وهام لكى يؤدى المجتمع وظائفه بطريقة يسيرة ذلك لأن اختلاف أفراد المجتمع على القيم العقائد والتقاليد الأساسية من شأنه أن يخلق حالة من عدم التكامل التى لا يمكن فى ظلها أن ينتظم المجتمع ويؤدى وظائفه.

ولعلنا نستطيع أن نتصور كيف يمكن أن يكون حال أى مجتمع لو أختلف افراده فى قيمهم وعقائدهم الأساسية وعلى سبيل المثال لو أن من بعضهم بالنظام الرأسمالى والبعض الآخر بالنظام الاشتراكى أو الشيوعى أو آمن بعضهم بالنظام الديمقراطى والنصف الآخر بالنصف الدكتاتورى، أو تمسك بعضهم بالقيم والعقائد الدينية بينما تحرر نصفهم منها إلى غير ذلك من المتناقضات التى سوف تخلق أنواعاً من الصراعات والمنازعات أى حالة من عدم التكامل وعدم التنظيم، ولحسن الحظ أن الثقافة تعمل دائماً على الاحتفاظ بدرجة من التكامل لكى تؤدى وظائفها، هذا لا يعنى أنها لا تتعرض فى بعض الأوقات إلى درجة من نقص التكامل تكون فيها معرضة لخطر الانهيار والتفكك وسوء التنظيم، وعندما يصل الأمر لهذا الحد ربما يكون ذلك كما سبق القول مدعاه لاتخاذ إجراءات ثورية لإعادة التكيف وللعودة بالمجتمع إلى حالة التكامل التى بدونها يصعب المحافظة على بقائه واستمراره.

الباب الثالث

المجتمــع الإنســانى



المجتمع مصطلح مهم غير أن علماء المجتمع قلما يتعرضون لتعريفه أو تحديده على وجه الدقة، ولعل من الأهمية قبل محاولة التعرف على بعض العناصر الضرورية والأساسية للمجتمع الإنسانى الوقوف على بعض خصائص المجتمع الحيوانى، لنأخذ مثلاً لذلك مجتمع النحل، فى هذا المجتمع يوجد تخصص وتقسيم للعمل بين الملكات والذكور والشغالات ويتم العمل فى تعاون تام، ورغم أن كل ذلك يقوم على أساس غريزى إلا أن مجتمع النحل يؤدى واجباته بدرجة عالية من الكفاءة والتكامل والدقة، ويقال أن علماء الحشرات تستهويهم فى بعض الأحيان مقارنة مجتمعات الحشرات بالمجتمعات الإنسانية، أنهم يستمتعون من ملاحظة مجتمعات الحشرات وبما يدور فيها من عمل بطريقة منظمة ومسلسلة، ليس فيها جرائم ولا أمال ولا بطالة ولا الكثير من المشاكل كتلك التى تزحم الصفحات الرئيسية من الجرائد اليومية.

ان التعرف على المستلزمات التى جعلت من الإمكان بقاء مجتمعات الحشرات على مر الأزمنة يعتبر من الأمور الجديرة بالدراسة إذ لابد وأن أفراد هذه المجتمعات يعملون بطريقة تمكنهم من أن يقابلوا احتياجاتهم البيولوجية من البيئة المحيطة بهم، وأنهم يتوالدون ويعوضون أنفسهم وأنهم يمارسون أنشطتهم بطريقة تعاونية بما فى ذلك تقسيم العمل المعمول به سواء أكان بسيطاً أو معقداً لمقابلة المستلزمات الأساسية لبقائهم.

الحيوانات تعتمد إلى حد كبير على الوراثة إذ عن طريق السلوك الموحد المتماثل أو ما يسمى بالغرائز الكثير من أنواع النشاط يساندها على ذلك قليل من التعليم وبعض وسائل الاتصال، ويصف Dr. Von Frich كيف أن مجهودات آلاف

النحل فى الخلية تنظم من خلال الوراثة والتعلم والاتصال لأجل التناسل والحفاظ على النوع ورعاية الصغار وللبناء والتعليم ونظافة المسكن وامتصاص أكبر كمية من الغذاء من البيئة الخارجية وحفظ تخزين الغذاء والدفاع عن المملكة (الخلية) وبدون هذه الأنواع من السلوك المنسق يصعب على النحلة أن تعيش بمفردها كما يصعب بقاء مملكة النحل.

ولأجل أن تبقى المجتمعات الإنسانية لابد وأن تقابل مثل هذه الظروف الضرورية التى تستلزمها المجتمعات الحيوانية، فالمجتمع الإنسانى مرتبط أيضاً بالعوامل البيولوجية الوراثية إلا أن تلك العوامل البيولوجية هى التى تتسبب فى الفروق الكثيرة بين المجتمع الإنسانى ومجتمع الحيوانات، ويمكن بالأخص الإشارة إلى قدرة الإنسان اللانهائية على التعلم والابتكار والتذكر والاتصال والتصور، نتيجة لكل هذه القدرات وغيرها نجده يقابل احتياجاته الضرورية عن طريق السلوك المتعلم أساسياً اى السلوك غير الموروث والذى لم يوجد جاهزاً وإنما المكتسب والمتفق عليه والذى يخضع لنمط أو أنماط معينة من القيم والعرف.

فى ظل هذا النوع من السلوك تكون الأنشطة منسقة ومتكاملة فى نظام اجتماعى قادر على مقابلة المستلزمات الضرورية لاستمرار البقاء وغيره من المستلزمات بدرجة أكثر فعالية من مقابلها عن طريق الجهاز الوراثى وهذا هو أكبر مميز بين المجتمع الانسانى والمجمتع الحيوانى وبسبب الاعتماد على السلوك المتعلم والمنمط ظهرت احتياجات جديدة لأجل البقاء إلا وهى استمرار النظام ألاجتماعى وهذا بدوره تطلب استمرار التعليم واستمرار السلوك المنمط ويظهر ذلك فى حتمية اجراء عملية التنشئة الاجتماعية للصغار وفى أنماط السلوك التى تعمل على الحفاظ على قيم النظام الاجتماعى وفرض أنماط سلوكية.

مما تقدم يتبين أن الكثير من فصائل الحشرات والحيوانات تعيش فى تجمعات منظمة فى نظام فيه تقسيم للعمل مستمر مع الزمن، وتقيم فى مكان معين ولها أهداف مشتركة، فالوقاية وجمع الغذاء والتكاثر كلها أنشطة أمكن تحقيقها عن طريق كثرة العدد والتخصص غير ان التنظيم الاجتماعى للحيوانات يعتمد على الغرائز أى ردود الأفعال الموروثة فتقسيم العمل بين النمل أو النحل مثلاً يقوم على اساس اختلافات فسيولوجية محددة، وفى كل طبقة لا يوجد فردية بمعنى ان كل الذكور أو الشغالات أو الملكات متشابهات تقريباً كل طائفة لها وظائف، هذه المجتمعات لا تتغير بل أنه يقال أن بعضها مستمر منذ ٦٥ مليون عام مضت، وكل فرد منها له ردود أفعال معينة وليس هناك احتياج لعملية تطبيع اجتماعى وليس هناك أشياء مقدسة يحافظ عليها.

ومعظم الحيوانات القريبة الشبه من الإنسان منظمة أيضاً فى عائلات وقطعان وعشائر، انها حيوانات اجتماعية لطول فترة الطفولة بالنسبة للمواليد ولأن الدوافع الجنسية للبالغين لا تعرف مواسم معينة ولأن مواليدها فرادى، أنها تتصل ببعضها عن طريق الإشارات والكثير من سلوكها متعلم وتظهر شعوراً بالانتماء إلى الجماعة وتعبر عن الكثير عن عواطفها كالحب والكراهية، الحزن والسعادة. أهم ما يميز بين هذه المجتمعات والمجتمعات الإنسانية هى الثقافة التى مكنت الإنسان من ان يعيش فى مجتمعات ليست قائمة فقط على اساس التعاون وتبادل المنفعة وإنما أيضاً على أساس الاشتراك فى العقائد والقيم والشعور بالمصير المشترك.



الفصل الأول

المستلزمات الأساسية للمجتمع الانسانى

الاحتياجات الفسيولوجية:

الأفراد فى المجتمع يتطلبون غذاءاً مناسباً وماءاً وملبساً ومأوى وحماية ضد الحوادث أو اعتداءات الأفراد الآخرين أو الحيوانات، وهذا يتطلب بدوره العناية بتربية الصغار ورعاية الكبار عند المرض والحد الأدنى من الظروف اللازم توافرها لبقاء الإنسان تحددها الاحتياجات الفسيولوجية لكل جهاز انسانى فى ضوء الظروف البيئية المحيطة به وعدم توافر هذا الحد الأدنى قد يؤدى إلى موت الإنسان.

ومع هذا فإن الجهاز الإنسانى يستطيع أن يقابل احتياجاته الضرورية بطرق مختلفة كما سبق أن أوضحنا عند الكلام عن الثقافة فالنواحى البيولوجية والظروف الطبيعية وإن كانت تضع حدوداً لعملية السعى وراء البقاء إلا أنها لا تحدد نمط النظام الاجتماعى الذى عن طريقه يمكن تحقيق البقاء فهناك عادة بدائل يمكن للمجتمع الإنسانى عن طريقها أن يحصل على الاحتياجات الفسيولوجية لأعضائه.

تكامل النشاط والعلاقات الاجتماعية المنظمة:

بقاء المجتمع الانسانى يتطلب إلى حد ما تقسيم العمل بين أفراده على أساس الجنس والعمر فالمرأة لا تستطيع مثلاً أن ترعى الصغار من الأطفال وفى نفس الوقت تصيد الحيوانات وحتى هذا النشاط الأخير يجد الرجال أن من المستحسن التعاون فيه مع رجال آخرين على أساس تقسيم العمل وكل عمل من الأعمال يضفى على من يقوم به مكانة اجتماعية معينة.

كما وأن الأعمال المختلفة تتطلب أدواراً مختلفة ويسمى السلوك المتفق عليه والمتوقع لأفراد المجتمع سواء ذلك المتصل بإمكانات أو أدوار معينة بالسلوك المعيارى هذا السلوك يتضمن التقاليد والعادات الشعبية والعرف والطرق التى أصبحت قانونية كما ويشمل الاتجاهات والآراء والقيم والمفاهيم وأساليب التفكير المشتركة والنظام الاجتماعى الموجود بالمجتمع يستند أساسياً إلى المعايير الاجتماعية أى السلوك المتفق عليه والمتوقع لكى يؤدى المجتمع وظائفه.

تعويض الفاقد من الأفراد:

من الواضح أن استمرار المجتمع الإنسانى مرهون بتعويض الفاقد من أفراده، أحياناً ما يتحصل على بعض الأفراد من المجتمعات الأخرى عن طريق الهجرة الاختيارية وأحياناً أخرى عن طريق الشراء أو الغزو غير أن المجتمعات الإنسانية المعاصرة لا تلجأ أساسياً لذلك بتعويض الفاقد من أعضائها، أنها تعتمد اعتماداً كلياً على طريقة التكاثر البيولوجي للأعضاء، وفى الأمد الطويل لا يستطيع مجتمع أن يستمر بدون هذا التكاثر كمصدر رئيسى للحصول على أعضاء جدد بالمجتمع.

الاحتفاظ بالنظام الاجتماعى:

خلافاً لما يحدث فى مملكة النحل التى يأتى أفرادها إلى الحياة بمجموعة من القدرات الوراثية المحدودة فإن الطفل يأتى إلى الحياة بمجموعة من القراتُ الوراثية التى تمكنه من أن يقتبس الطرق العامة للحياة فى أى مجتمع، أنه يستطيع كما سبق الإشارة أن يقتبس أساليب الحياة الانجليزية أو المصرية أو الأمريكية، يمكن أن يكون انساناً متديناً أو مجرماً ففى حدود قدراته لا يستطيع أن يتبنى أى نمط من السلوك يعبر عنه البشر فى أى مكان، بقاء النظام الاجتماعى الإنسانى إذن لا يضمن

تحقيقه مجموعة العوامل الوراثية وحدها وإنما يعتمد أساسياً على السلوك المنمط المتعلم.

ولأجل أن يستمر النظام الاجتماعي لابد أن يكون هناك ما هو اكثر من عملية التنشئة الاجتماعية للصغار ذلك لأن الانحراف عن السلوك المعياري ليس فقط احتمالاً قائماً في أي عمر ولكنه اتجاه وميل مستمر ومهما كان الشخص متشربا للسلوك المعياري السائد في مجتمعه فأن رغباته الخاصة قلما تتفق مع التوقعات الاجتماعية، ومن ثم نجد أنه في كل مجتمع توجد بعض الانحرافات عن السلوك المعياري المثالي.

بل أنه بالنسبة لبعض الأفراد كالمجرمين يعتبر تعلم السلوك الاجتماعي المقبول أمراً في غاية الصعوبة، هذا بالإضافة إلى أنه في المجتمعات الكبيرة توجد جماعة صغيرة عديدة تنمى طرقاً مختلفة من السلوك الانحرافي - وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن بعض الأفراد ينتقلون من جماعة لأخرى وإذا ما أضفنا أيضاً التطور التكنولوجي السريع فإن مشكلة الاحتفاظ بنظام سلوكي متفق عليه يصبح بحق أمراً عسيراً.

الضبط الاجتماعي:

مصطلح كما سبق أن أوضحنا يقصد به كل الطرق والوسائل التي بواسطتها يعمل المجتمع على المحافظة على المعايير الاجتماعية للنظام الاجتماعي – ويعتمد الضبط الاجتماعي أساسياً في ذلك على تشرب الأفراد للمعايير السلوكية، وكلما تغيرت المعايير الاجتماعية كلما تطلب الأمر تغير السلوك المعياري المرتبط بها وفرض سلوك آخر ويتم ذلك من خلال تشرب المعايير الاجتماعية الجديدة، والأفراد في المجتمع يشعرون بأمن ورضى من اتباع المعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع.

والانحراف عن السلوك المعيارى عن حد معين يقابل عادة بمقاومة وعدم رضا يعبر عنها بطرق مختلفة عنها الانسحاب من الجماعة أو قطع الصداقة أو غير ذلك، أما الانحرافات الشديدة فيضع لها كل مجتمع أساليب معينة لمعاقبة المنحرفين مثل السجن والعزل وغير ذلك من الأساليب والتى أصبحت لها اجراءاتها القانونية وأصبحت مهمة الشرطة أن تقوم بتطبيقها لصالح ولرفاهية الجماعة فى حدود الأساليب القانونية المتفق عليها ولهذا فإن نظاماً من السلطة أخذ طريقة فى الظهور حفاظاً على سلامة المجتمع واستمرار بقائه.

الحفاظ على المعنى والغرض:

يختلف المجتمع الانسانى عن المجتمع الحيوانى فى أن الأول لابد فيه من غرس الشعور بالمعنى والغرض والذى يدونهما تختفى الدوافع الاجتماعية فكل مجتمع له أيدولوجية خاصة به والتى تشرح لأعضائه لماذا تعتبر طريقة حياته مهمة أن لم تكن على جانب كبير من الأهمية، هناك أدلة على أنه بدون المعنى والغرض يمكن أن تتعرض حتى الوظائف الفسيولوجية للفرد للخطر ففقدان شعور الإنسان بالمعنى والغرض الذى من أجله يعيش من الممكن أن يحطم صحته بل ويؤثر على الرغبة فى استمرار الحياة وفضلاً عن ذلك فإن الشعور بالمعنى والغرض له علاقة وثيقة بنوع العلاقات التى يقيمها الفرد مع غيره من الأفراد الآخرين.

الرموز الاتصالية:

تعتبر الرموز الاتصالية مهمة حتى فى مجتمع النمل إذ عن طيق الرقص تنقل النملة للآخرين المعانى التى يفهم منها الموقع الغنى بالغذاء، ولو أن النمل يستطيع أن يتصل ببعضه عن طريق رقصاته أى حركاته إلا أن وسائل الاتصال هذه محددة جداً بالموقف والفعل المعين بالطبع بعض وسائل الاتصال بين البشر

شبيهة بهذا النوع من الاتصالات كالجرى والصراخ من شئ معين أو الإشارة إليه غير أن اللغة الحقيقية تتكون أساساً من الرموز الصوتية المتفق عليها والتى تعبر عن الأشياء والأفعال. هذه الرموز تشير إلى معنى أو معانى معينة بالإضافة إلى أنها تشير إلى أنواع مختلفة من التجريد كالوطنية والديمقراطية والعدل...الخ.

البناء الاجتماعى ووظائفه:

البناء الاجتماعى واجزاؤه مثل القيم والمكانات والأدوار والجماعات والمجتمعات المحلية والمؤسسات هى موضع الاهتمام فى هذا المجال، ولقد أظهر الإنسان دائماً اتجاهاً كبيراً نحو تحسين رغباته وزيادتها وتطويرها إلى ما هو أبعد ن الحد الأدنى للاحتياجات الاجتماعية، وأيا كانت الأسباب فأن البناء الاجتماعى أو بعض أجزائه تتطور لكى تحقق أهدافاً معينة أى تقابل احتياجات ورغبات معينة وبمعنى آخر تخدم وظائف معينة.

ما يقال عن البناء الاجتماعى ووظائف اجزائه يمكن أن يقال عن جسم الإنسان - لو أن هدفنا هو الفهم العلمى لجسم الإنسان فإننا سوف نقوم بنفس الأسلوب من التقصى وهو دراسة البناء والوظيفة فتحليل البناء هو التشريع الذى يتناول وصف الأيدى والأعين والارجل والعظام والعضلات والغدد، وسوف ندرس تلك الأشياء الصغيرة التى يطلق عليها بالخلايا والأشياء الكبيرة التى يطلق عليها بالأجهزة.

أن جسم الإنسان لا يمكن أن يفهم بمجرد التعرف على اجزائه أى تشريح أجزائه إذ لابد وأن يكمل ذلك معرفة العلاقة بين الأعضاء وكيف تؤثر وتتأثر ببعضها وكيف تعمل لكى تحافظ على الجهاز بأكمله كوحدة واحدة وهذا ما كان يتناوله علم الفسيولوجى بالدراسة وبالمثل فأن فهم المجتمع الإنسانى يتطلب اكثر من

التعرف على البناء الاجتماعى أنه يتطلب ايضاً معرفة الوظيفة أو الوظائف التى تقدم بها مختلف أجزاء البناء وعلاقة كل جزء بالآخر لأجل الحفاظ على المجتمع ككل أى كوحدة متحدة ومتماسكة.

المنطقة المحدودة:

المجتمع مجموعة من الناس تقيم فى منطقة معينة، بعض المجتمعات القبلية تنتقل فى مساحة واسعة أكبر مما تشغل فى أى وقت معين إلا أنها تنظر إلى كل المناطق التى تنتقل فيها على أنها دولتهم، بالطبع يوجد داخل المجتمع الواحد مجموعات تقيم فى مناطق معينة مثل الأحياء أو الأقسام السياسية كالمراكز والمدن والقرى إلى غير ذلك، المهم أن لكل مجتمع رقعة من الأرض يقيم أفراده عليها.

تلك هى المستلزمات الرئيسية اللازم توافرها لقيام المجتمع الإنسانى فى أى جهة من جهات العالم، والمجتمعات الإنسانية لها خصائص عالمية عديدة منها أنها عادة ما تعيش وتبقى فترة أطول بكثير عن فترة حياة أى فرد من أفرادها، وأن لها وظائف ووحدات عمل ولو أنها تتكون من الأفراد غير انها تقوم بعملها كوحدات قائمة بذاتها وأن الاهتمامات الشخصية للأفراد المكونين لتلك الوحدات تتوارى بجانب اهتمامات المجموع الكلى للجماعة، وفى كل مجتمع يتبين أن أوجه النشاط التى تعتبر ضرورية لبقاء المجموع مقسمة وموزعة بين مختلف الأعضاء، والمجتمع هو الوحدة الأساسية للجنس البشرى والتى تسعى وتناضل من أجل البقاء، وقدر افراده مرتبط بماله من خصائص إذ عليه يعتمدون.

تعريف المجتمع

والآن وبعد أن قارنا بين المجتمع الحيوانى والمجتمع الإنسانى واستعرضنا المستلزمات الأساسية للمجتمع الإنسانى بقى أن نحاول تعريفه، وتعريف المجتمع

كمصطلح لن يكون مرضياً لكافة العلماء ومن ثم يبدو من الأنسب ألا نتقيد بتعريف محدد الألفاظ قدر ما نشير إلى مضمون ومفهوم هذا المصطلح، المجتمع أحياناً ما يعتبر مصطلح رمزى يعبر عن الظواهر الاجتماعية التى تهم علماء المجتمع وعن النسيج من العلاقات التى عن طريقها يتعامل الأفراد مع بعضهم، غير أنه أعطى معنى آخر أكثر تحديداً حيث يعتبر أكبر جماعة اجتماعية والتى تضم كل الجماعات الصغيرة الأخرى التى ينظمها الناس.

وإذا ما علمنا أن الجماعة الاجتماعية هى مجموعة من الناس المشتركين فى أنماط من الفعال المتبادلة والواعين والمدركين لعضويتهم المشتركة لكان مفهوم المجتمع على انه أكبر جماعة اجتماعية يستند إلى التفكير الثقافى الذى جعل من السكان مجموعة مميزة من الناس، بمعنى أن المجتمع يوجد عندما تعرف مجموعة من الناس أنفسها على انها مميزة ثقافياً عن غيرها، وعندما ينتج بناء اجتماعى معقد يعمل على ايجاد طريقة حياة جماعية، ليس هناك جماعة أكبر بحيث تصبح هذه الجماعة جزءاً منها ولا هناك بناء اجتماعى أكبر بحيث يصبح هذا البناء جزءاً منه.

المجتمع إذن هو الجماعة الاجتماعية الكبيرة التى تشمل كل الجماعات الاجتماعية الآخرى الموجودة بين الناس وإدراك المجتمع على هذا النحو لا يعطى أهمية لأى حجم معين فالمجتمعات قد تكون كبيرة أو صغير غير أنه فى العالم الحديث هناك اتجاه نحو المجتمعات القومية الكبيرة المنظمة سياسياً والتى تتمثل فى الأمة والحكومة، والتى تحتكر كل منها السيطرة على منطقة معينة مستوطنة بواسطة الناس والمتعارف أنها مجتمعهم، فى ظل هذا المفهوم يمكن أن تكون القبيلة مجتمعاً حتى ولو كان أفرادها عدة آلاف من الناس.

مؤسسات المجتمع

لفظ مؤسسة مصطلح قديم وله مفهومان يبدو انهما متعارضين ولو أن ذلك غير صحيح، احد هذين المفهومين يعرف المؤسسة على أنها مجموعة معقدة من القيم تدور حول عقائد وأفكار معينة فالقيم تصبح مؤسسة عندما تساندها الجماعة بشدة عن طريق الاتفاق العام وعندما تكون هناك قوة مانعة شديدة للحد من مخالفتها تفرض عن طريق هيئات أى عندما تصبح جبرية، أما المفهوم الثانى للمؤسسة فلا يؤكد تأسيس القيم فقط وإنما أيضاً الفعال الاجتماعية أو أوجه النشاط التى تحكمها القيم بمعنى ان هذا المفهوم يؤسس أيضاً الدوار والعلاقات، وبمعنى آخر يمكن القول أن المفهوم الأول يؤكد القيم والثانى يؤكد الفعال التى تحكمها تلك القيم وواضح أن المؤسسة تتكون من القيم والأدوار معاً.

على ان هناك ثمة تساؤل عن السباب التى جعلت بعض أوجه النشاط مؤسسة والبعض الآخر غير مؤسسة لتوضيح ذلك هناك موضوعان يجب الوقوف عليهما أحدهما ينبعث من طبيعة الإنسان والآخر من طبيعة المجتمع، المفهوم الحالى عن الإنسان أنه لا يوجد لديه مجموعة من العوامل الغريزية التى تتحكم فى سلوكه بطريقة محددة أو نمط معين فالناس يخلقون الأدوات والأساليب وطرق الأفعال والتفكير وذلك من أجل خلق النظام الاجتماعى غير ان العقل البشرى يستطيع أن يدرك أكثر من طريقة منطقية لعمل أى شئ ويفعل ذلك فعلاً ومن ثم تختلف الثقافات.

أما من ناحية المجتمع فلكل مجتمع طريقة حياته الخاصة التى ينهجها على مر السنين وهى مجموعة من الترتيبات التى عن طريقها نظمت الحياة وأحتفظ بها المجتمعات الإنسانية حول العالم اختلفت فى الترتيبات والتنظيمات التى اتبعها بل أنها اتبعت ترتيبات وايضاً تنظيمات متعارضة أو متناقضة، يظهر ذلك بوضوح من

استعراض القيم الثقافية والأنماط المؤسسية حول العالم، ولقد لجأت المجتمعات لأجل بقاء النظام الاجتماعى - إلى خلق طرق منظمة لتناول بعض المشاكل العالمية - فكل مجتمع - على سبيل المثال - أوجد نظاماً لشرعية المولود ورعايته وتنشئته والذى أطلق عليه بالسرية.

هذا الترتيب والتنظيم ليس شيئاً موروثاً ولا هو بالضرورة متشابه فى كل المجتمعات ففى بعض المجتمعات يوجد نظام الزوجة الواحدة وفى البعض الآخر نظام تعدد الزوجات وفى آخر نظام تعدد الأزواج وفى بعض المجتمعات تقع مسئولية الرعاية الاجتماعية للأطفال على عاتق الأب وفى أخرى على عاتق الخال - ليس المهم هنا أى الترتيبات صواب أيها خطأ وإنما المهم أن النظام الاجتماعى بالمجتمع أوجب ضرورة وجود ترتيب وتنظيم معين لأمر هام من الأمور وهو التزواج ورعاية وتنشئة الأطفال بحيث أصبح هذا الترتيب بالنسبة لهذا المجتمع هو الطريقة الصحيحة والمقبولة أخلاقياً واجتماعياً.

لابد وأن نتذكر أن ليس هناك مجتمع يستطيع أن يدرك كل الاحتمالات المنطقية لعل ما يعترضه من مشاكل، فالكثير من المجتمعات التى تعيش فى عزلة يبدو أنها لا تعرف البديلات المنطقية إلى أن تقيم اتصالات مع غيرها من المجتمعات - وعلى ذلك لا يوجد مجتمع يختار كل ترتيباته المؤسسية بطريقة واعية فكل مجتمع يخلق نمط فى الحياة من مجموعة أوضاعه وخبراته التاريخية وجعلها شرعية عن طريق القيم الأساسية التى يعتقد فيها أفراده والتى توضح ما هو صواب وما هو خطأ وما هو أخلاقى وما هو غير أخلاقى من النواحى المختلفة لحياة الناس فيه، **فقيام المؤسسات إذن - أى القيم والأفعال المؤسسية - يحدث فى كل المجتمعات خلال محاولاتها تشكيل بنيانها الاجتماعى المميز لها حول بعض الأمور العالمية الهامة.**

ومن الأمور التى دعت إلى قيام المؤسسة الرغبة فى التحكم فى الاختلاط الجنسى وعمليات إنجاب ورعاية الأطفال وهذا ما دعى إلى قيام البناء الاجتماعى المسمى بالأسرة كما كانت الرغبة فى تنظيم الأفراد فى أعمال إنتاج السلع المادية وتوزيعها سبباً فى ايجاد البناء الاقتصادى بما يتضمنه من حقوق وواجبات الأفراد المشتركين فيه، هذا وقد أدى الشعور بضرورة المحافظة على النظام الاجتماعى إلى وجود ما يسمى بالمؤسسات السياسية.

تلك المؤسسات تطلبت ما يسمى بالسلطة الشرعية التى توضع فى أيدى افراد معينيين لأجل ضمان استمرار النظام الاجتماعى، كما تطلبت سن مجموعة من القوانين التى يشترك فى اتباعها أفراد المجتمع وفضلاً عن ذلك فإن الحفاظ على النظام الاجتماعى استدعى خلق مجموعة من المحرمات التى يجب مراعاتها ومجموعة من الجزاءات لمن يخالف القيم المتعارف عليها كما خلق القوة الشرعية التى يوكل إليها تعريف وإعادة تجديد القوانين والاتفاقيات التى تكفل الوئام والانسجام فى المجتمع وتوفر طريقة شرعية لاتخاذ القرارات.

ولما كان الصغار من افراد المجتمع لابد وأن يقتبسوا الثقافية ويتدرجوا على القيم والكفاءات الاجتماعية كان لابد من وجود نظام تعليمى، هذا النظام فى المجتمعات قبل الصناعة كان يتمثل فى الأسرة التى كانت من مسئولياتها تعليم أفرادها وقليلاً ما كانت هذه المهمة تؤدى فى بناء خاص خارج عنها غير انه فى المجتمعات المعاصرة أنشئ للتعليم مؤسسات تعليمية لها مهامها ووظائفها الخاصة.

وأخيراً كان هناك مجموعة الشعائر الدينية التى تتولاها المؤسسات الدينية والتى تعبر بطريقة منظمة عن العقائد الأساسية والسيطرة الأخلاقية والتى تجعل المجتمع فى انسجام أخلاقى، ويعتقد البعض أن عالمية المؤسسات الدينية فى

المجتمعات البدائية أكثر منها فى المجتمعات المتقدمة، حيث الدين المنظم وفصول عن الدولة وحيث الجماعات الدينية تنافس وتتنازع من بعضها.

هذه هى مجالات العلاقات التى أصبحت أنماطاً اجتماعية فى البناء الاجتماعى للمجتمع والتى عادة ما يطلق عليها علماء المجتمع بالمؤسسات الأسرية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والدينية كل من هذه المؤسسات ما هى إلا مجموعة من القيم المعقدة وأنماط بنيت حول مسائل رئيسية فى صميم تنظيم المجتمع، ولأن المؤسسات الاجتماعية تساندها وتحكمها القيم فأنها أكثر عناصر البناء الاجتماعى استقراراً وأكثر مقاومة للتغير.

هذه هى الحقيقة يجب ألا تترك فى الأذهان الفكرة بان المؤسسات غير قابلة للتغير ـ أنها تتغير ولا شك من آن لآخر على مر فترة طويلة من الزمن، وما نطلق عليه بالثورة الصناعية ما هو إلا إدخال تغييرات على البناء الاجتماعى للمجتمع بما يتضمنه ذلك من تعديلات فى التنظيمات المؤسسية، تلك التغييرات عندما تحدث انقلاباً سريعا في الأوضاع االقائمة تسمى بالثورة.

أنواع المجتمعات:

الدراسة المنظمة للمجتمع لقيت اهتماماً كبيراً نتيجة لما تبين من أن المجتمع الانسانى تغير تغيرات جوهرية نتيجة للثورة الصناعية فقد وجد مفكروا القرن التاسع عشر أن أنماط السلوك الاجتماعى للمجتمع التقليدى تعطلت وضعفت وتفككت والتفكير المحافظ يرى فى هذا التفكك نوعاً من الانحلال للمجتمع الانسان، اما التفكير الليبرالى فيرى فى هذا التغير نوعاً من التقدم والتحرر للفرد من التقاليد والعادات القديمة ولقد حاول علماء المجتمع التوصل إلى أساليب من الدراسة

والتحليل التى تمكن من فهم خواص البنايات الاجتماعية وتيسر المقارنة بينها فأخذوا يخترعون المصطلحات المفيدة فى تحليل بعض الظواهر الاجتماعية المعقدة.

بعض هذه المصطلحات تأتى ثنائية عكسية الاتجاه من حيث نهاياتها التى تقع فى اطراف خط مستقيم أى متصل، أنها نماذج - ربما لا تصف أى حالة معينة وصفاً دقيقاً ولكنها تسمح بتحليل ظواهر معينة عن طريق التعرف على المكان الذى تشغله عناصرها على المتصل Continuum من هذه المصطلحات المجتمعات التقليدية والمجتمعات العصرية الأولى منها يشير إلى المجتمعات خارجى دول العالم الغربى وربما فى بعض المناطق القروية المنعزلة فى أوربا، أما النوع الثانى فيشير إلى المجتمعات التى جاءت مع الثورة الصناعية فى اوربا وأمريكا.

ولفظاً "المجتمعات التقليدية والعصرية" هما لفظان من بين ألفاظ عديدة استخدمت بواسطة الاجتماعيين لوصف الأنواع المختلفة من المجتمعات، وتهدف عادة المقارنة بين هذين النوعين من المجتمعات إلى تحليل عوامل التحول الاجتماعى التى مرت بها الثقافات الغربية فى القرون الخيرة وتوضيح العناصر المميزة لكل من المجتمع التقليدى القديم والمجتمع العصرى، هذه المقاونة لا يقصد بها وصف مجتمعات معينة بالذات وإنما هى مخرج اختبار لبعض العناصر التى وجدت متشابهة فى عدد من المجتمعات.

المجتمع التقليدى:

احد مميزات المجتمعات التقليدية أنها صغيرة الحجم يتفاوت الواحد منها من مجموعة أسر قليلة إلى عدة آلاف من الناس وإذا كان المجتمع التقليدى صغير فى الحجم فإن ذلك ينطبق أيضاً على منظماته الاجتماعية التى تكون أجزاءه فالأسر وجماعات القرابة والبيئة القروية والجماعات الصغيرة الأولية هى أم شبكة للعلاقات

الإنسانية والتى فيها يمارس الفرد نشاطه، تلك العلاقات الاجتماعية أكثر شخصية لأن التفاعل الاجتماعى يتم بين عدد صغير من الأفراد يعرفون بعضهم معرفة الوجه للوجه وفى فترات متعددة.

ومجموعة الأقارب تعتبر مهمة بالنسبة للفرد فى المجتمع التقليدى أنها جماعة متعاونة لغرض مقابلة الكثير من الاحتياجات والوظائف بما فى ذلك النواحى الاقتصادية كما وأنها مصدراً هاماً من مصادر الأمن بالنسبة للفرد ومسئوليات القرابة لا يمكن التحرر منها وأيضاً العلاقات الأسرية قوية ومتينة وهى أساس التنظيم الاجتماعى، هذا التنظيم فرة الثقافة المتكاملة جداً والتى لا تتغير إلا قليلاً وببطء والتى تسير على وتيرة واحدة وتكاد تكون ثابتة، أنها تقدم قيماً وأهدافاً تتفق عليها وأساسية إلى حد أنها لا تحتاج إلى ألفاظ للتعبير عنها ولا حاجة إلى قوانين فالضبط الاجتماعى غير الرسمى كفيل بأن يجعل الأفراد يسلكون السلوك المقبول.

وتقوم المكانات الاجتماعية فى المجتمع التقليدى على أساس الجنس والعمر والأسرة والأدوار الاجتماعية واضحة وتحددها الثقافة والعلاقات المتبادلة، وأنماط السلوك لا يتغير إلا قليلاً من جيل لآخر وما يقوم به الرجل يقوم به كل الرجال وما يعرفه أو يعتقد فيه يعرفه ويعتقد فيه الآخرون فالناس فى المجتمعات التقليدية سلوكها متشابهة وتفكيرها متشابهة وأنهم متشابهون إلى حد كبير كأشخاص.

ليس إذن غريباً فى مثل هذه المجتمعات حيث العلاقات الشخصية القوية وبين الأفراد وحيث يوجد عدد قليل من العلاقات مع أفراد خارجيين أن يوجد شعور قوى بانتماء الناس بعضهم لبعض وانتمائهم إلى مجتمعهم، والمجتمع التقليدى مجتمع يسوده الشعور بالقدسية ويتأثر أفراده طوال حياتهم بهذا الشعور فى الكثير من أوجه نشاطهم حتى فى نشاطهم الزراعى من صيد وقنص حيث يتم هذه النشاط فى ظل طقوس معينة.

والتضامن والتكامل فى المجتمع التقليدى يتم بيسر نتيجة الاهتمامات والخبرات المشتركة الكثيرة والتراث البيولوجى والثقافى المشترك وحيث السلوك المستقر على مدى فترة طويلة من الزمن فى ظل العادات والتقاليد التى توصل اليها عن طريق الاتفاق العام والتقاليد السائدة على مر فترة طويلة من الزمن والمقبولة من الجميع تؤدى إلى شعور عميق بالفخر بالنسبة لطرق سلوك الجماعة، كما تعتبر السبب وراء المقاومة التى عادة ما تظهر عندما يحدث تعارض مع القيم المغروسة فى الحياة التقليدية.

وهناك العديد من الأشياء فى المجتمعات التقليدية تعامل بطريقة مقدسة ومن ثم فإنها عادة محاطة باحتفالات وطقوس وفى المجتمع التقليدى مجتمع زراعى بدون ميكنة أو استخدام للأساليب العلمية ومن ثم فن أفراده قليلى لتخصص فى المهن والوظائف الاقتصادية وينقصه التقسيم المعقد للعمل وفيه عادة توزيع العمال الاقتصادية بين أفراده من الرجال والنساء والأطفال وفقاً لقدراتهم الجسمانية، ومقدار الأعمال التى تؤدى عادة قليلة والخبرات والقدرات التى يتمتع بها الأفراد محدودة.

وهو عادة مجتمع مكتفى ذاتياً ينتج أفراده ما يحتاجون إليه من سلع وما يتطلبون من خدمات ونظراً لأن تقسيم العمل المحدود فى المجتمع التقليدى لا يتطلب من الأفراد قدراً كبيراً من لتخصص فى المهارات أو المعارف أو الأفكار فإن المعارف التى لدى الأفراد و آراؤهم فى العادة محدودة للغاية والمعاييو التى تنظم السلوك و تتحكم فيه واحدة تقريباً بالنسبة لكل أفراد المجتمع التقليدى مجتمع متجانس من الناحية الثقافية.

المجتمع العصري:

فى الطرف الأخر من المتصل Continuum يوجد المجتمع العصرى على درجة عالية من التحضر والتصنيع ويعتمد على المجتمعات الأخرى فى الحصول على المواد الخام وعلى الأسواق لتصريف المنتجات وهو مجتمع غير مكتفى ذاتياً بالمرة، وتقسيم العمل الدقيق يجعل كل فرد من أفراده يعتمد على الآخرين فى سد احتياجاته والتخصصات المختلفة منسقة فى نظام كبير معقد للإنتاج والتوزيع، والمجتمع عادة خليط من ثقافات مختلفة فأفراده من عناصر وثقافات وأديان متباينة، ونتيجة لذلك هناك قيم مختلفة وتسامح بالنسبة للأنماط المختلفة من السلوك.

والمجتمع العصرى مجتمع كثير التغير فيه القليل من الأشياء التى ينظر إليها على أنها مقدسة وقليل جداً من أوجه النشاط غايات فى حد ذاتها وليست وسائل وبمعنى آخر هناك تمييز بين الوسيلة والهدف والكثير من أنواع السلوك فى المجتمع العصرى تقوم على أساس من التفكير المنطقى المحسوب، والتقديس بالنسبة للدين فقط وبالنسبة لقليل من القيم كالوطنية والعلم والدستور، فالتقاليد الملزمة فى المجتمع العصرى قليلة ومن ثم فإن الشعور بالفخر من وراء التمسك بها قليل، وفضلاً عن ذلك فإن استخدام العلم والتكنولوجيا الحديثة شجع على اجراء الاختبارات العلمية للأشياء التى يعتقد فيها تقليدياً وأوجد اتجاهاً يرحب الأفكار والمعارف الجديدة فالتغيير لم يعد فقط شيئاً مقبولاً بل وعادة ما يرحب به كشئ مطلوب

وفى المجتمع العصرى فقدت الجماعات القرابية أهميتها وهذا هو أحد السباب التى حملت على إحلال الجماعات الكبيرة محلها لقد حلت المنظمات غير الشخصية فى المجتمع العصرى محل الجماعات الصغيرة المتقاربة والبناء الأمن بالمجتمع التقليدى فالمجتمع العصرى يتكون من العديد من المنظمات الكبيرة فيه تنظم الكثير من أفعال الناس على أسس غير شخصية حيث يجدون أن من

الضرورى أن يتعاملوا يومياً مع أفراد آخرين لا يعرفونهم إلا من حيث المواقف التى يظهرون فيها.

وشبكة العلاقات فى المجتمع العصرى متعددة ومتداخلة والكثير من المكانات الاجتماعية مفتوحة لمن يستطيع الحصول عليها، والمجتمع العصرى مجتمع غير متجانس ثقافياً فبنيانه الداخلى يتصف بوجود عدد كبير من الجماعات الفرعية التى تختلف عن بعضها من حيث القيم وأيضاً كثيراً ما يجدون أنفسهم فى مواقف وعلاقات وادوار غير معروفة ثقافياً وغير واضحة كما يجدون أحياناً الأنماط القديمة غير مناسبة.

وكلما أصبحت التقاليد الشعبية والعرف عاجزة عن أن تحافظ على النظام اجتماعى القائم - خاصة فى ظل تصارع الجماعات ذات التقاليد والاهتمامات المختلفة - تظهر الحاجة إلى القوانين والتشريعات والمؤسسات الجديدة التى لابد من عملها لتوضيح الأدوار والمكانات وللتوفيق بين الاهتمامات المتضاربة مما يؤدى إلى قيام العلاقات الرسمية والتى تصبح أمراً ضرورياً للضبط الاجتماعى، والشعور بالانتماء إلى الجماعة فى المجتمع العصرى ضعيف عنه فى المجتمع التقليدى.

والبيروقراطية هى أحد الصفات للتنظيم الاجتماعى فى المجتمعات العصرية والمقصود بالبيروقراطية سلسلة الإجراءات الطويلة التى يمر بها سير العمل، على ان التنظيم البيروقراطى أساسياً يستهدف جعل المنظمات كبيرة الحجم أكثر كفاءة وفعالية ليس فقط فى الحكومة وإنما ايضاً فى المؤسسات والمنظمات الأهلية كالمدارس والشركات التجارية والجمعيات الخاصة ويحدد البعض أربع خواص للتنظيم البيروقراطى هى التخصص مع وضوح قاطع لتقسيم العمل والمسئوليات، والتنسيق بواسطة سلطات عليا متدرجة، ووجود تعليمات وتشريعات تحدد معايير إجراءات العمل، وعلاقات ثانوية وغير رسمية.

وتنشأ البيروقراطية فى المجتمعات ذات المشاكل المعقدة لتتناول هذه المشاكل بالحل، ومن مميزات التنظيم البيروقراطى أنه نظام يمكن فى ظله تحقيق كفاءة إنتاجية عالية عن طريق التحديدات التى بعضها التنظيم وتخصص العاملين واستمرار العمل المنتظم بغض النظر عن التغييرات التى تطرأ على الأفراد الذين يشغلون مكانات معينة، كذلك من مميزاته العدالة والبعد عن التمييز فى معاملات الأفراد بقدر المستطاع.

على أن هناك بعض العيوب للنظام البيروقراطى والتى منها التمسك بشدة القوانين والتشريعات مما يخلق حالة من عدم المرونة عندما تطرأ ظروف متغيرة أو حالات فريدة أو غير عادية وقد يقلل النظام من روح الابتكار بل وقد لا يستطيع البيروقراطيين أحياناً أن يروا الأهداف من وراء التنظيم فى ظل الكثير من التعليمات واللوائح والأعمال الإدارية العديدة ـ فالقائمون بأعمال التفتيش يميلون إلى حد ما إلى الاكثار من التعليمات والمذكرات التفسيرية التى تنتج عنها مذكرات أخرى وهكذا.

على ان بعض المتخصصين فى النظام البيروقراطى الحديث يعلقون على هذه العيوب بقولهم أنها ليست عيوباً وراثية فى النظام نفسه لو أننا فهمنا البيروقراطية على انها ببساطة النظام الذى يرفع من الكفاءة الإدارية وليس النظام ذو الإجراءات الجامدة.

والبيروقراطية كما يقولون تختلف عن الديموقراطية فى أنها ليست رغبة الأغلبية ولا اختيار الفرد أو عصبه من الأفراد الحاكمين فى النظام المعين ولكنها التسليم برأى الخبراء والاعتبارات التى تعطى الكفاءة قبل كل ما عداها فعندما تتحدد الأهداف الاجتماعية سواء أوتوقراطياً أو ديمقراطياً فإنها توضع موضع التنفيذ عن طريق الوسائل الفعالة والتى منها البيروقراطية.

وأخيراً يجب الإشارة إلى أن بعضاً من مشاكل تقييم المجتمع العصرى هو انه يقارن عادة بالمجتمع التقليدى فكثيراً ما يصور المجتمع التقليدى المحلى على أنه مجتمع خال من المنازعات والضغوط والتوترات التى تجعل الحياة صعبة بالنسبة للرجل العصرى غير أن وصفاً كهذا إنما يعبر عن المجتمع المثالى وليس المجتمع الحقيقى.

يؤيد ذلك ما توصل إليه بعض علماء الأنثربولوجى الذين درسوا المجتمعات التقليدية والذين أوضحوا أن هناك أيضاً فى هذه المجتمعات عدم وفاق وخوف وحقد وعدم ثقة وأنواع من السلوك الانحرافى غير المقبول وإذا كانت المجتمعات التقليدية كثيراً ما يوضح جوانبها الإيجابية فإن للمجتمعات العصرية هى الأخرى مثل هذه الجوانب الإيجابية.

إذا ما قيل عن المجتمع العصرى أنه مجتمع تقوم فيه العلاقات الإنسانية على أسس غير شخصية ومصطنعة، أو أنه مجتمع كثير الحركة والتنقل تقوم فيه العلاقات على أساس المنفعة والتنافس وحب الامتلاك والشراهة نحو المكانة الاجتماعية فإنه يجب أيضاً إبراز النواحى الأخرى من أنه مجتمع تسود فيه الحرية الشخصية وحرية اختيار الأصدقاء والمهنية تتحدد المكانة الاجتماعية وفقاً للإنجازات وليس عن طريق الوراثة، وفيه توجد قيم مختلفة متعددة ومعايير كثيرة للحكم على سلوك الناس، وليس فيه سيطرة من قبل جماعة من الناس على بقية أفراد المجتمع.

المجتمع القروى:

نشأت فكرة المجتمعات التقليدية من خلال الدراسات التى آجراها علماء الأنثروبولوجى عن المجتمعات البدائية التى ليس لها لغة مكتوبة. هذه المجتمعات

وأن كانت قد سبقت المجتمعات العصرية الصناعية إلا أنها لا تمثل كل المجتمعات التى سبقت التصنيع فقد كان يوجد قبل الثورة الصناعية مجتمعات أخرى بأعداد كبيرة من السكان تشغل مناطق جغرافية واسعة تلك المجتمعات يطلق عليها بالمجتمعات القروية والتى لا تزال موجودة حتى اليوم فى بعض جهات العالم.

هذه المجتمعات تتشابه فى الكثير من خواصها مع المجتمعات التقليدية فهناك القرى الصغيرة التى يقطنها القرويون والمنعزلة نسبياً والتى تنظم فيها الحياة وفقاً للتقاليد التى يبدو وكأنها لم تتغير منذ عدة قرون، وهناك أيضاً يوجد منطق المجتمعات التقليدية والذى نقل اليها عن طريق وسائل الاتصال الشفوية، كما وهناك التنظيم الاجتماعى الذى يقوم على اساس القرابة.

ويرتبط القرويين بالمجتمع الكبير دينياً وسياسياً واقتصادياً وحياتهم تحددها القرارات التى تتخذ من المدن البعيدة عن طريق رجال الحكم الرسميين، وتمد القرى المدن بالسكان الذين وأن كانوا يصبحون سكاناً حضريين إلا أنهم ليسوا من المشتغلين بالصناعة والمجتمع القروى أكثر تعقيداً من المجتمع التقليدى وسكانه إلى حد ما غير متجانسين ثقافياً ومختلفين مهنياً وكذا فهم متباينون من حيث الخبرات فهناك التجار والزراع ورجال الدين والحكم وغيرها.

وتعتبر التقاليد مهمة فى المجتمع القروى وأن كانت ليست ملزمة بالنسبة للجميع فتقاليد الزراع موجودة إلى جانب تقاليد أخرى لغيرهم والشعور بالتغير محدود بعض سكان المجتمع القروى يلمون بالقراءة والكتابة ومن ثم فهناك فئة متعلمة وفى المجتمع القروى وإن كان المتعلم عادة هو رجل الدين إلى جانب بعض المتعلمين الآخرين، وفى المجتمع القروى يوجد تفاوت فى الثراء عنه فى المجتمع التقليدى إذ فى الآخير يلاحظ أن المجتمع متساوون أو متقاربون من حيث مستواهم الاقتصادى والاختلافات فى السلطة عادة قليلة.

وفى المجتمع القروى تعتبر المدينة المركز الذى تتجمع فيه الطبقة الصغيرة من صفوة القوم وحلقة الاتصال بين المجتمع وباقى جهات العالم الخارجى، فضلاً عن أنها ملتقى طرق المواصلات وفيها توجد الأسواق حيث يبيع القرويون منتجاتهم، ويسود المدينة جو حضارى وحياة تتميز بوضوح عن حياة الفقراء غير المتعلمين من الزراعيين وسكان المدن عادة ما ينظرون بازدراء إلى سكان القرى وإلى طريقة حياتهم وفى المجتمع القروى الاقطاعى ملكية الأرض عادة بأيدى قلة من الناس الذين يجبرون القرويين على دفع الضرائب نقداً أو عيناً أو فى صورة خدمات، ولما كان على القرويين أن يدفعوا الكثير من إنتاجهم فى صورة ضرائب فقد كانت حياتهم تسودها الفقر.

تلك هى بعض أنواع المجتمعات وهى كما سبق القول لا تمثل نماذج قائمة قدر ما تمثل أنواعاً تجمعت فيها صفات جعلتها مميزة عن غيرها، وبين المجتمعات التقليدية والعصرية كما تبين وجدت المجتمعات القروية وتلك لها أنواع عديدة سواء القديم منها والمتمثل فى المجتمع القروى فى عهود الإقطاع أو الحديث منها كالموجود حالياً فى المجتمعات الزراعية المعاصرة.

الباب الرابع

خصائص السكان المصريون



تمهيد

من الحقائق الهامة فى العلوم الإنسانية، أن السكان هم المحور الرئيسى الذى تدور حوله، وتنبع منه كثير من الدراسات فى شتى المجالات، ومن هنا تصبح دراسة السكان ذات أهمية قصوى، حيث تتأثر حياة المجتمعات ببعضها البعض، ولذلك فإن معرفة الحقائق السكانية تعد أساساً هاماً لفهم الكثير من المتغيرات الدولية. وتتناول الدراسة الجغرافية للسكان ثلاثة جوانب هى:

- نمو السكان.
- توزيع السكان على سطح الأرض.
- تركيب السكان.

وأساس هذه الدراسة هو العلاقات المكانية التى تميز جغرافية السكان عن الديموغرافيا، ويمكن تعريف جغرافية السكان بأنها فرع يعالج الإختلافات المكانية للخصائص الديموغرافية للتجمعات السكانية، ويدرس النتائج الاقتصادية الاجتماعية الناتجة عن التفاعل المرتبط بينها وبين الظروف الجغرافية القائمة فى وحدة مساحة معينة، ومن أبرز ملامح الارتباط الديموغرافى والجغرافى دراسة مستقبل السكان وتخطيط مواردهم وكذلك دراسة الهجرة السكانية وفوداً أو نزوحاً.

الفصل الأول

مقاييس كثافة السكان وتوزيعهم

مصادر دراسة السكان يمكن تقسيمها إلى مجموعتين:

١- مصادر البيانات الثابتة، وتمثلهما التعدادات والمسح بالعينة

٢- مصادر البيانات غير الثابتة، وتمثلها سجلات المواليد والوفيات وسجلات الهجرة وحالات الزواج والطلاق

أولاً مصادر البيانات الثابتة:

١- التعداد

يعد المصدر الرئيسى فى جميع دول العالم لدراسة توزيع السكان وتركيبهم وقد أخذ أقدم تعداد فى العصر الحديث فى اسكنديناو وبعض الولايات الإيطالية والألمانية خلال القرن الثامن عشر، والتعداد يعنى العملية الكلية لجمع وتجهيز وتقويم وتحليل ونشر البيانات الديموغرافية والإقتصادية والاجتماعية المتعلقة بكل الأفراد فى قطر أو جزء محدد المعالم من قطر وفى زمن معين، ويجب ان تتوافر فى التعداد الشامل عدة خصائص هى العد الفردى والشمول، وكذلك الدورية المحددة وتختلف طرق أخذ التعداد أحياناً من دولة لأخرى، ولا تختلف دول العالم فى دورية التعداد بها ولا فى طريق أخذها، ويسجل التعداد السكانى خصائص متعددة للسكان، مثل العمر والنوع والحالة المدنية ومحل الميلاد والديانة والحالة التعليمية والمهن وتعدد اوجه استخدام التعدادات السكانية، وتعد معرفة التوزيع السكانى على رقعة الدولة ضرورة من ضرورات التخطيط السكانى (الاقتصادي والاجتماعي) بغرض تنمية المجتمع.

٢- المسح بالعينة:

العينة جزء من المجتمع، تختلف عما يسمى بالحصر الشامل، وتتميز عنه بأنها توفر جزءاً من الجهد والنفقات وتكون بياناتها دقيقة، وقد مزجت بعض الدول حديثاً بين أجزاء التعداد وأسلوب العينة بقصد الحصول على بيانات إضافية من الصعب الحصول عليها من التعداد خشية عدم دقتها، مما يلزم اختبار، عينة من السكان وتوجد مجموعة من الأسئلة الإضافية إلى أفرادها وتصمم للحصول على بيانات تطبق على المجتمع السكانى بأكمله.

ثانياً مصادر البيانات غير الثابتة:

الإحصاءات الحيوية

وتعد احصاءات المواليد من أهم الإحصاءات الحيوية حيث يمكن من خلالها معرفة حركة النمو الطبيعى للسكان، وبالرغم من أن دولاً كثيرة تتوفر لديها فى الوقت الحاضر إحصاءات حيوية دقيقة، إلا أن هناك دولاً أخرى لا تملك حتى البيانات الأولية، وعلى العموم فمعدل المواليد والوفيات ليس من السهل الحصول عليه بدق كاملة لحوالى نصف سكان العالم، فالصين من أكبر دول العالم سكاناً ولا تتوفر عنها بيانات دقيقة.

سجلات الهجرة:

تعد بيانات الهجرة أقل قيمة من بيانات الإحصاءات الحيوية لاختلاف تعريف المهاجر من مكان لآخر، وتتوفر بيانات الهجرة الدولية لدى كثير من دول العالم، حيث تقوم بذلك فقط الجمارك والجوازات والجنسية فى الموانئ والمطارات وأماكن العبور، ويلاحظ أن معظم خصائص المجموعات المهاجرة يتغير لن السكان يغيرون بصفة مستمرة من نشاطهم الإقتصادى وحالتهم المدنية والتعليمية، ولذلك فإن سجلات الهجرة ليست محل ثقة فى البحث عن أسباب الهجرة ودوافعها.

مقاييس كثافة السكان وتوزيعهم:

يتم دراسة السكان بمعرفة حجم السكان فى مساحة محدودة بهدف تحليل صورة التوزيع السكانى فى الدولة، ويلجأ الباحث فى محاولة للوصول لتحديد رقم معين يبين العلاقة العددية بين السكان والمساحة التى يعيشون فيها لاستخدام بعض المقاييس البسيطة على النحو التالى:

١- الكثافة الحسابية أو الخام

$$\text{الكثافة الحسابية أو الخام} = \frac{\text{جملة عدد السكان فى منطقة ما}}{\text{المساحة الكلية لهذه المنطقة}}$$

وهذا النوع لا يعطى إلا فكرة بسيطة عن مدى تركز السكان فى الإقليم وتتناسب فائدته تناسباً عكسياً مع حجم المساحة الأرضية، فكلما كبرت المساحة كلما كان مدلول الكثافة الخام سطحياً وعاماً، ومن ثم فهى ذات أهمية قليلة فى دراسة العلاقة بين السكان والموارد.

٢- الكثافة الفيزيولوجية

$$\text{الكثافة الفيزيولوجية} = \frac{\text{جملة عدد السكان فى منطقة ما}}{\text{مساحة الأراضى الزراعية فى هذه المنطقة}}$$

والكثافة الفيزيولوجية تفوق الكثافة الخام للسكان دائماً، وتعد مصر من الأمثلة التقليدية على ذلك فى الدراسات السكانية، ويجب التعامل مع تلك الكثافة، نجد أن السكان يختلفون ثقافياً وحضارياً، ومهنياً، مما يصعب معه الوصول لصورة دقيقة للعلاقة بين توزيع السكان والأرض الزراعية، ومع كل ذلك فهى تعد تطويراً للكثافة الخام وتعطى الملامح العامة لهذه العلاقة.

٣- نسبة التركيز السكانى

نسبة التركيز السكانى = ١/٢ مج | س - ص|
س= نسبة مئوية لمساحة المنطقة لجملة مساحة الإقليم الكلية.
ص= نسبة مئوية لعدد سكان المنطقة لجملة سكان الإقليم الكلية.
مج= مجموع الفرق الموجب بين هذه النسب وبعضها.

ومعنى ذلك ان نسبة التركز تساوى إحصائياً نصف مجموع الفرق الموجب بين النسبة المئوية للمساحة والنسبة المئوية لعدد السكان فى كل منطقة من مناطق الإقليم، وتبعاً للدراسات نقول أن ظاهرة التركز السكانى فى طريقها إلى التناقص ولكن ببطء، وبدأ السكان يتوزعون فى مساحات أوسع مما كانت عليه فى مطلع هذا القرن.

٤- درجة التزاحم السكانى:

كثافة السكان هى العلاقة بين المساحة الكلية وعدد السكان، وتعد درجة التزاحم السكانى من أنسب مقاييس تركز السكان وأبسطها فى حسابها، وتحسب كما يلى:

$$\frac{\text{ما يخص الحجرة الواحدة من الأفراد}}{\text{مجموع عدد الفرق التى يقطنها هؤلاء السكان}}$$

وتعد من المقاييس الهامة فى الحكم على المستوى الاجتماعى والاقتصادى السائد فى دراسة السكان، وتعد مؤشراً من المتغيرات الديموغرافية.

أنماط التوزيع السكانى

كقاعدة عامة فإن توزيع السكان على سطح الأرض، يعد توزيعاً غير متجانس سواء فى التوزيع العددى المطلق، أو فى نسبته او فى كثافته، ويبدو أن

معظم سكان العالم يتركزون فى العالم القديم ويختلف التوزيع السكانى حسب دوائر العرض، إختلافاً جوهرياً ويبدو التباين فى توزيع السكان وكثافتهم على المستوى القومى بوضوح، ويبدو واضحاً من دراسة خريطة توزيع السكان فى العالم أنها تتباين من قارة لأخرى تبايناً واضحاً، كذلك فإن مدى التباين فى داخل القارة الواحد كبير هو الآخر، وإذا كانت العالم تتباين حسب حجم السكان بكل منها، فإنها تختلف ايضاً حسب مستوى التقدم الحضارى الذى يعكسه متوسط نصيب الفرد من الخدمات والدخل القومى، ويمكن أن يقسم العالم بصفة عامة فى هذا المجال إلى قسمين غير متساويين يتمثل احدها فى الدول المتقدمة والتى يعيش بها ١١٠٨ مليون نسمة، ٣٥,٥٪ من سكان العالم، والآخر فى الدول النامية أو دول العالم الثالث، ويعيش بها ٧٦٪ من سكان العالم، وتدل المؤشرات الديموغرافية أن نصيب الدول النامية من جملة سكان العالم أخذ فى التزايد بدرجة كبيرة، ويمكن النظر إلى صورة التوزيع السكانى على الأرض من خلال نطاقين، أحدهما يتميز بالتشتت والتبعثر والآخر بالتركز والازدحام، وفيما بينهما أقاليم تعد امتداداً لكلا النطاقين.

أقاليم التوزيع السكانى المبعثر:

تعد المناطق الجافة والغطاءات القطبية والجبال المرتفعة والغابات الكثيفة أقاليم التبعثر السكانى، والصحارى بصفة عامة تعد أقل مناطق العالم كثافة للغاية، وتصل بعض مناطقها الكثافة بها إلى فرد واحد لكل عشرة ك $م^2$، وتساعد الأمطار التى تسقط فى بعض المناطق الجافة على قيام حياة رعوية تمد أعداداً قليلة من السكان باحتياجاتهم الرئيسية، أما البرودة فلها تأثير على توزيع السكان أقل من الجفاف، ومع ذلك فإن شعوب القنص والصيد البدائية فى النطاق القطبى قليلة العدد، وتقل أعدادها بالاتجاه شمالاً، وعلى النقيض مما سبق، فإن المحرت العمرانية التعدينية لا تخضع لظروف البرودة أو لظروف الجفاف، حيث أنشأت فى كليهما مراكز تعدين طالما توفرت مقومات حرفة التعدين فى هذه المناطق، وفى سيبريا

السوفيتية أدى اكتشاف الذهب والبترول والفحم والمعـادن النـادرة إلـى إنشـاء سلسـلة من المدن عبارة عن محلات عمرانية صغـيرة وتتمثـل منـاطق الـتركز البشـرى فـى الشمال البارد لدى بعض الجماعات، مثل الاسكيمو واللاب والصامويد، وتوجد علـى الحواف الجنوبية للنطاق البارد فى نصف الكرة الشمالى مراكز عمرانيـة قرب خـط عرض ٦٠° شمالاً مثل ليننجراد وهلسنكى وكويبك فى كندا، أما فى الجبال فيقل عدد السكان بالارتفاع، ولذا فإن الجبال الشاهقة غير معمورة دائمـاً، وعلـى ذلـك فالجبـال تتباين فى دورها فى توزيع السـكان حسـب العروض التـى توجـد بهـا حيـث يـتركز السكان فى المناسيب التـى تلائـم ظروفهـا الطبيعيـة معيشـتهم، وقـد يكـون اسـتخراج المعادن من المناطق الجليد سبباً فى جذب السكان وتركزهم فى المرتفعات، مثلما فى بـيرو، وتشـجع ظـروف الحـرارة والأمطـار فـى المنـاطق الجبليـة العاليـة فـى البيئـة المدارية على تركز السكان كما فى المكسيك وكولومبيا وبيرو، أمـا المنـاطق الغابيـة فيصعب إقامة عمران عليها، وتتميز كل هذه الأقاليم المبعثرة السكان. بملمح مشترك وهو العمران غير المنتظم ذو النمط المشتت.

اقاليم التوزيع السكانى الكثيف:

تبدو على خريطة العالم أربعـة منـاطق كثيفـة السـكان يفصلهـا عـن بعضـهـا البعض صحارى أو بحار، وهذه المناطق هى:

١- شرق الولايات المتحدة الأمريكية + أوروبا

٢- الهند ٣- الصين ٤- اليابان

وفيما عدا اليابـان، فـإن هـذه المنـاطق تتمـيز بسـمة مشـتركة فـى انهـا كلهـا مناطق ذات سهول واسعة تتكون من أودية نهرية مثل الهوانجهو واليانجسـتى كيـانج والجانج، وأودية الميسسبى وروافده، وأصبحـت كلهـا منـاطق إنتـاج الحبـوب بوفـرة خاصة القمح والذرة والأرز.

توزيع السكان فى أفريقيا:

تعد نيجيريا ومصر والجزائر وأثيوبيا وجمهورية جنوب أفريقيا أكبر الوحدات السياسية سكاناً، ونيجيريا ومصر أكثرها كثافة فيزيولوجية، وتتمثل المناطق المبعثرة السكان من النطاق الصحراوى فى الشمال والجنوب الغربى وبعض مناطق النطاق المدارى، وبالنسبة لنيجيريا ففى الجنوب تسود الزراعة المتنقلة للمحاصيل المعاشية، أما فى الوسط فقد تنتج محاصيل مشابهة، لخلو هذه الأقاليم من ذبابة تسى تسى، أما الإقليم الشمالى وهو اكبر الأقاليم الثلاثة فتربى فيه الماشية وتقوم الزراعة المستقرة المرتبطة بتركز سكانى كبير، وقد نتج عن هذا الاختلاف فى الأقاليم الطبيعية اختلاف فى الأقاليم السكانية، حيث أرتبط توزيع السكان بالأقاليم الزراعية إرتباطاً وثيقاً.

خصوبة السكان:

خصوبة السكان، لفظ يطلق للدلالة على ظاهرة الإنجاب فى أى مجتمع سكانى، وينبغى ان نميز بينها وبين لفظ القدرة على التوالد، وهى التى يقصد بها المقدرة الفسيولوجية.

وتختلف الخصوبة من مجتمع لآخر ومن مكان لآخر وذلك نتيجة عدة عوامل اجتماعية واقتصادية وبيئية، ومن هنا تكون أهمية دراستها حيث يؤدى هذا الاختلاف فى مستويات الخصوبة إلى أثر بالغ فى حركات السكان، وفى نواح شتى من حياتهم، وللخصوبة أثر عميق فى تركيب السكان العمرى، لأن ارتفاع مستواها يؤدى إلى زيادة التراكم العددى فى قاعدة الهرم السكانى، وأتساعها ووجود ما يعرف بظاهرة الإشباب.

وتعد الخصوبة من العناصر الرئيسية فى دراسة السكان، ليس فقط لأنها غالباً ما تفوق الوفيات والهجرة، لأنها أكثر صعوبة فى فهمها عن الوفيات وهى أكثر تأثراً بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية.

مقاييس الخصوبة:

١- معدل المواليد الخام = $\frac{\text{عدد المواليد أحياء فى السنة}}{\text{عدد السكان فى منتصف السنة}} \times ١٠٠٠$

ويتميز بأنه ابسط مقاييس الخصوبة وأكثرها مزايا وعيبه الجوهرى أنه يمزج مجموعات سكانية كثيرة تختلف الخصوبة بينها اختلافاً واضحاً، ولا يميز بين طبقاتها المختلفة، ومدى تباينها.

٢- معدل المواليد العام = $\frac{\text{عدد المواليد الأحياء فى السنة}}{\text{عدد الإناث فى مرحلة العمر من ١٥-٤٩ فى منتصف السنة}} \times ١٠٠٠$

٣- معدل الخصوبة العمرية النوعية الخاصة =

$\frac{\text{عدد المواليد خلال السنة (الوالدات) فى فئة عمرية}}{\text{عدد الإناث فى نفس الفئة العمرية فى منتصف السنة}} \times ١٠٠٠$

٤- معدل الخصوبة الكلية =

مجموع معدلات الخصوبة الخاصة بالمرأة الواحدة أو لألف إمراة مضروباً فى (٥) (طول الفئة العمرية)

وتعد دراسة الخصوبة الخاصة، محاولة للتعمق فى إظهار المستوى الحقيقى للخصوبة ومقارنته مع غيره من المقاييس، والغرض الأساسى من تحديد عدد المواليد فى كل فئة عمرية إلى الإناث فى نفس الفئة هو محاولة تحديد اختلاف

إسهام الإناث فى الخصوبة حسب الأعمال ومعدل الخصوبة العمرية النوعية تختلف من شعب لشعب نتيجة عدة عوامل منها:

١- متوسط السن عند الزواج عند الأنثى ونسبة الترمل للإناث اللاتى فى سن الخصوبة ومعدل زواج الأرامل منهن.

٢- مدى ممارسة وتنظيم الإنجاب.

يتباين شكل منحنى الخصوبة العمرى من دولة لأخرى، وقد يتغير فى المجتمع الواحد بين كل فترة زمنية وأخرى ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من المنحنيات هى:

١- نوع القمة المبكرة، وتصل فيه الخصوبة لأقصاها (٢٠-٢٤) سنة.

٢- نوع القمة المتأخرة، يكون الحد الأقصى فى الفئة (٢٥-٩) سنة.

٣- نوع القمة العريضة، وتصل فيها معدلات المواليد أقصاها مع الفئتين (٢٠-٢٤)، (٢٥-٢٩) وليس هناك اختلاف كبير بين الدول عالية الخصوبة ومنخفضة الخصوبة فى توزيع قمة الخصوبة العمرية.

وفى الدول منخفضة الخصوبة تسود القمة المبكرة، أما نمط القمة المتأخرة فيسود فى جنوب أوروبا، أما النمط ذو القمة العريضة فيسود فى أمريكا اللاتينية. وعلى ذلك فإن متوسط السن عند الزواج يعد عاملاً هاماً فى تحديد النمط العمرى للخصوبة، وبصفة عامة فإن القمة المبكرة تتفق مع الزواج المبكر، بينما القمة المتأخرة مع الزواج المتأخر.

٥- معدل التكاثر الإجمالى:

هو تطوير بسيط لمعدل الخصوبة الكلية والتميز الوحيد بينهما أن معدل التكاثر الإجمالى يخص المواليد الإناث بدلاً من جملة المواليد، ويعد معدل التكاثر الإجمالى عن عدد الإناث للمرأة الواحدة فى المدى العمرى ١٥-٤٩ سنة. وهناك تقديراً آخر لقياس عدد الأمهات فى المستقبل يأخذ فى الاعتبار عامل الوفاة ويعرف بمعدل التكاثر الصافى ويحسب بطريقة تعتمد على جدول الحياة.

٦- نسبة الأطفال إلى النساء فى سن الحمل:

هو مقياس شـائع يعتمد على بيانات التعداد السكانى، حيث نحصل عليه بقسمة عدد الأطفال الذين يقل عمرهم عن ٥ سنوات، ويرتبط هذا المقياس بالتعداد السكانى، ولذلك فإن الدقة فى البيانات تؤثر على دقة هذا المقياس، وإن كان أبرز عيوبه هو أن البسط ـ أى عدد الأطفال دون الخامسة يمثل الباقى على قيد الحياة من جملة الذين تم إنجابهم خلال السنوات الخمس السابقة على التعداد.

وعلى الرغم من أن معظم المحللين والمخططين الاجتماعيين يدركون أن مشكلة عدم الاتزان بين الموارد والامكانات المتاحة من ناحية، وتزايد السكان وتزايد متطلباتهم من ناحية اخرى، لا يمكن حلها إلا من خلال سياسة تنموية شاملة تأخذ فى اعتبارها التوسع فى استزراع الأراضى الصحراوية، ومواصلة التنقيب عن المعادن والطاقات الأرضية، وتطوير الزراعة والصناعة، وتنمية القدرات الإبداعية والابتكارية للسكان، وتحريرهم من القيم والتقاليد التى تعوق تقدمهم، ألا انهم يكادون يجمعون على اعتبار أن الحد من الزيادة السكانية وخفض معدل المواليد ينبغى أن يكونا من أهم متضمنات مثل تلك السياسة التنموية الشاملة. ومن هنا كان الاهتمام المتزايد بمسألة تنظيم الأسرة من جانب مختلف الأجهزة والهيئات المعنية والمهتمة بقضية التنمية فى مصر، وقد بدأت الجهود الفعلية فى مجال تنظيم الأسرة سنة ١٩٥٣ حين أنشئت اللجنة الأهلية لمسائل السكان والتى عرفت بعد ذلك باسم جمعية الدراسات السكانية، وتتابعت الجهود بعد ذلك أهلية وحكومة حتى دعمت بإنشاء المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة فى ١٩٦٥، ووزارة السكان والأسرة فى ١٩٩٣.

على أنه ينبغى ادراك أن توافر خدمات تنظيم الأسرة، وسهولة الحصول على وسائل منع الحمل ليس كافياً فى حد ذاته لاقبال الناس على استخدامها، فالأهم من عرض هذه الخدمات هو الطلب عليها، وهذا لا يتأتى إلا إذا أحس الفرد بحاجته إليها، وتوفر له دافع حقيقى لاستخدامها، وهذا بدوره يتوقف على مدى تأثره بالعوامل الموقفية والمعيارية التى يعيش فى ظلها.

الفصل الثانى

السلوك الإنجابى

يمكن تفسير تباين الأفراد فى سلوكهم الانجابى فى ضوء بعض النظريات الاجتماعية، وفى ضوء نتائج بعض الدراسات الميدانية، وملاحظات وآراء المحللين الاجتماعيين.

أولاً: تفسيرات نظرية لتباين السلوك الإنجابى للسكان الريفيين

يحفل التراث النظرى لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى بنظريات عديدة، تحاول أن تفسر السلوك الانسانى بصفة عامة، مثل نظرية الدور الاجتماعى، ونظرية المقايضة الاجتماعية، ونظرية الفعل الاجتماعى، ونظرية الحاجات الانسانية، وسوف نحاول الاستفادة من هذه النظريات فى تفسير تباين الأفراد فى سلوكهم الإنجابى.

١- نظرية الدور الاجتماعى: Social Role Theory

ترى نظرية الدورالاجتماعى أن جانباً كبيراً من السلوك البشرى يتسق ويأخذ شكلاً معيناً ليقابل التوقعات الاجتماعية المرتبطة بالمراكز والمكانات الاجتماعية التى يشغلها الأفراد فى البنيان الاجتماعى حيث تمارس هذه التوقعات ضغطاً على سلوك الأفراد يدفعهم لأن يسلكوا السلوك الذى يتوقعه منهم المجتمع.

وفى اطار الثقافة المصرية ـ وبخاصة الثقافة الريفية ـ يتوقع المجتمع من الأفراد الذين يشغلون مراكز اجتماعية عالية أن يعملوا على توفير مستوى معيشى مرتفع لأفراد أسرهم مما قد لا يتأتى فى وجود عدد كبير من الأفراد، كما يتوقع أن تأخذ اهتماماتهم العملية ومسئولياتهم قدراً أكبر من طاقاتهم ووقتهم مما قد لا يترك

لهم القدر الكافى من الوقت والجهد لرعاية عدد كبير من الأبناء، بالإضافة إلى ذلك فإن المجتمع يتوقع من الأشخاص الذين يشغلون مواقع قيادية وأولئك الذين يشغلون مراكز اجتماعية مرتفعة ان يكونوا أكثر وعياً بالمشكلة السكانية وآثارها السلبية على المجتمع وأن يكونوا قدوة لغيرهم فى تنظيم الأسرة والحد من الانجاب، أما الأفراد الذين ينتمون للطبقة الوسطى فيسعون عادة إلى تحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية للحاق بالطبقة العليا ويكون التعليم وسيلتهم للالتحاق بوظائف مرموقة بالإضافة للرغبة فى تحسين مستوى معيشة أبنائهم، مما قد يدفعهم إلى محاولة خفض عدد أبنائهم ليتيسر لهم تحقيق ذلك، أما أبناء الطبقة الدنيا الذين غالباً ما يتسمون بمستويات تعليمية واقتصادية منخفضة فلا يتوقع منهم المجتمع توفير مستوى معيشى مرتفع لأبنائهم، وبالتالى يقل الضغط الاجتماعى الواقع عليهم للاهتمام بتعليم ابنائهم، أو توفير مستويات مرتفعة من الرعاية الاجتماعية الواقع عليهم للاهتمام بتعليم أبنائهم، أو توفير مستويات مرتفعة من الرعاية الاجتماعية والصحية لهم مما قد لا يجعل للحد من الإنجاب أهمية كبيرة بالنسبة لهم.

بالإضافة إلى تباين الضغوط الاجتماعية الواقعة على الأفراد نتيجة لتباين أدوارهم فإن الأدوار المهنية المختلفة كثيراً ما ترتبط ببعض المتغيرات المشجعة على مزيد من الإنجاب أو على الحد منه، فعلى سبيل المثال فغن المزارعين، وخاصة فى ظل الزراعة التقليدية، قد ينظرون إلى الأبناء على أنهم مصدر دخل للأسرة حيث يمكنهم الاسهام فى كثير من العمليات الزراعية التقليدية، وبالتالى لا يوجد لديهم الدافع لأن يعمدوا إلى الحد من الإنجاب، والزوجة العاملة قد تجد ان مسئوليات العمل بجانب مسئولياتها المنزلية لا تترك لديها الوقت والجهد الكافيين لرعاية عدد كبير من البناء، وبالتالى قد يدفعها ذلك إلى الاكتفاء بعدد قليل منهم، هذا بالإضافة إلى ما قد يؤدى إليه عمل الزوجة من قلة اعتمادها اقتصادياً على زوجها، ومن تحسين لوضعها الاجتماعى، مما لا يجعل من إنجاب عدد كبير من الأطفال

وسيلة لرفع مكانتها في الأسرة، وتأمين حياتها الزوجية كما هو الحال بالنسبة للزوجات غير العاملات وخاصة في المناطق الريفية.

٢- نظرية المقايضة الاجتماعية: Social Exchange Theory

ترى هذه النظرية أن الأفراد يدخلون بصفة مستمرة في عمليات تبادل المنافع مع النظم الاجتماعية التي يعيشون في ظلها، حيث يعطون ويأخذون في المقابل أشياء ذات قيمة بالنسبة لهم، والمنظرون لنظرية المقايضة الاجتماعية يوسعون المفهوم الاقتصادي لتبادل السلع ليشمل تبادل القبول الاجتماعي والاحترام والتقدير والحب والأمن وغير ذلك من الأشياء المعنوية، كما ان وجود بدائل يؤثر على قيمة الأشياء المتبادلة.

وفي ضوء هذه النظرية يمكن القول بان المرأة الريفية التي غالباً ما تكون أمية أو ذات مستوى تعليمي واقتصادي منخفض قد لا تجد لديها من الموارد التي يمكن ان تقايض بها من أجل الحصول على المكانة الاجتماعية، والمشاركة في القرارات السرية، وكسب رضا الزوج، سوى اللجوء إلى الإنجاب، وربما الاستمرار في الإنجاب حتى تأتي بمولود ذكر، ويختلف هذا في حالة عمل الزوجة حيث أنها تعطي بعضاً من وقتها للعمل مقابل حصولها على الدخل الذي يمكنها من المساهمة في ميزانية الأسرة، وبالتالي يرفع مكانتها في الأسرة، ويزيد من قدرتها على اتخاذ القرارات السرية، لذلك يتوقع أن تكون المرأة العاملة أكثر تنظيماً للأسرة، وأقل خصوبة، وكلما تعددت مصادر القوة الأخرى التي تمتلكها الزوجات الريفيات فمن الطبيعي أن يقل اعتمادهن على الإنجاب كوسيلة لزيادة قوتهن وتدعيم مكانتهن في الأسرة.

٣- نظرية الفعل الاجتماعى الارادى: Voluntraristic Action Theory

تفترض نظرية الفعل الاجتماعى الإرادى لبارسونز أن الأفراد يسعون إلى تحقيق أهداف شخصية فى ظل مواقف وأوضاع معينة يتوفر فيها وسائل بداية لتحقيق الأهداف، ولكنهم فى سعيهم لتحقيق أهدافهم يكونون محدودين بعديد من الظروف الموقفية، مثل خصائصهم البيولوجية وظروف بيئتهم الطبيعية والإيكولوجية، كما ان سلوك الأفراد أيضاً يكون محدوداً بالقيم الاجتماعية والمعايير السلوكية والأفكار السائدة فى المحيط الذى يعيشون فيه، وكل هذه المحددات الموقفية والمعيارية تؤثر على قدرتهم فى اختيار الوسائل التى يمكن أن تحقق أهدافهم من بين مختلف الوسائل البديلة.

ووفقاً لهذه النظرية يمكن افتراض أن الأفراد يهدفون إلى تحقيق قدر مناسب من الأمن والوصول إلى مكانة اجتماعية واقتصادية معينة، وفى سعيهم لتحقيق هذه الأهداف فإنهم محدودين بعدد من المحددات الموقفية والمعيارية فى اختيار الوسائل التى تمكنهم من تحقيق هذه الأهداف، فنجد أن بعض الأفراد يحققونها عن طريق الجاه والنفوذ وهؤلاء هم غالباً أبناء الطبقات العليا، أما الطبقات الوسطى فإنهم قد يسعون لتحقيق أهدافهم عن طريق التعليم، والعمل على زيادة دخلهم، بينما نجد أن ابناء الطبقات الدنيا - ومنهم معظم الريفيين - لا يتوفر لهم عوامل الجاه أو النفوذ، أو الحصول على قدر مناسب من التعليم، كذلك قد لا يجدون وسيلة لتحقيق هذه الأهداف إلا من خلال كثرة الإنجاب، وزيادة أعداد الذكور من أبنائهم، ليكونوا لهم عزوة فى المستقبل حيث يساعد ذلك على تقوية شعورهم بالأمن فى الحاضر والمستقبل.

ومن العوامل الموقفية التى قد ينتج عنها اختلاف فى سلوك الأفراد الإنجابى المهنة، فالمزارعون مثلاً يحتاجون إلى أيدى عاملة كثيرة ورخيصة، ويعتبرون أن

زيادة عدد أبنائهم وسيلة لتحقيق ذلك، بعكس المهنيين مثلاً كالأطباء والمحامين ورجال الأعمال والتى لا تسمح ظروف عملهم بالاستفادة بجهود أبنائهم، كما أن أعمالهم لا تترك لهم الوقت ولا الجهد الكافيين لتربية عدد كبير من الأبناء، ومن العوامل الموقفية التى قد يكون لها أثر على الإنجاب أيضاً المعيشة فى أسرة ممتدة حيث يقع على الزوجات فى مثل هذه الأسرة ضغوط من الأقارب من اجل مزيد من الإنجاب، كذلك فغن اختلاف الأفراد فى بعض الخصائص كالعمر والمستوى التعليمى والاقتصادى، وكذا مدى توافر الخدمات - وبخاصة الخدمات الصحية والتعليمية - ومدى توفر فرص العمل بالمجتمع المحلى تعتبر أيضاً من العوامل الموقفية التى قد تؤثر على نظرة الآباء إلى الأبناء، وبالتالى على تجاهم نحو تنظيم أسرهم.

وقد أكدت نظرية الفعل الاجتماعى على أهمية العوامل المعيارية من قيم ومعتقدات ومعايير ثقافية فى التأثير على السلوك البشرى، وربما لم تلق هذه العوامل أهتماماً كبيراً من جانب الدارسين للسلوك الانجابى على الرغم من اهميتها، إلا أنه من الملاحظ أن بعض التوجيهات القيمية للأفراد مثل اعتقادهم بأن تنظيم الأسرة يتعارض مع تعاليم الدين، أو سيادة القيم المفضلة للذكور على الإناث، أو تلك التى تعطى للقدرة الإنجابية للمرأة أهمية كبيرة فى تحديد مكانتها الاجتماعية، بالإضافة إلى قيمة الزواج المبكر للفتيات فى المناطق الريفية قد تكون من أهم العوامل المعيارية التى قد يعزى اليها ارتفاع الخصوبة فى المناطق الريفية.

٤- نظرية الحاجات الإنسانية: Human Needs

تفسر نظرية الدوافع جانباً كبيراً من سلوك الإنسان، ومن هذه النظريات تفترض نظرية الحاجات التى قدمها ماسلو أن حاجات الإنسان تنتظم فى سلم هرمى تشغل فيه الحاجات الفسيولوجية قاعدة هذا الهرم، يعلوها الحاجة إلى الأمن، ثم

الحاجة إلى الحب والانتماء، ثم الحاجة إلى الاحترام والتقدير، ثم تحتل قمة الهرم الحاجة إلى تأكيد الذات.

وفى ظل الثقافة الريفية التقليدية وسيادة نمط الزراعة التقليدية قد ينظر الأفراد إلى كثرة الإنجاب كوسيلة لإشباع الحاجة إلى الأمن والحب والانتماء، حيث يعتبر معظم الريفيين الذكور عزوة وسنداً للأهل فى المستقبل مما يعطيهم شعوراً بالأمن، كما ينظر للأسرة كبيرة العدد على أنها مجال أوسع لتبادل الحب بين أفرادها، ويفخر الأبناء بالانتماء اليها، بالإضافة لذلك فإن كبر حجم الأسرة وخاصة زيادة أعداد الذكور فيها قد يرفع من قيمة الأسرة فى المجتمع، وبالتالى يسهم فى اشباع الحاجة إلى الاحترام، والمرأة الريفية تنظر إلى الإنجاب وخاصة إنجاب الذكور كوسيلة لتحقيق الاستقرار فى حياتها الزوجية، ورفع مكانتها فى الأسرة مما يسهم فى إشباع حاجتها إلى الأمن، وتختلف نظرة الأفراد إلى الإنجاب فى حالة ارتفاع المستوى التعليمى والاقتصادى مما يوفر لهم احساساً بالأمن ويحقق لهم قدراً أكبر من الاحترام، كذلك فإن الذين يسعون إلى إشباع الحاجة إلى تقدير الذات، والحاجة إلى تأكيد الذات قد يتحتم عليها إعطاء عملهم قدراً أكبر من الجهد والوقت والاهتمام مما لا يترك لديهم متسعاً لإنجاب عدد كبير من الأبناء.

المتغيرات المرتبطة والمؤثرة على السلوك الإنجابى للسكان الريفيين

فما يلى عرض ومناقشة للعوامل المؤثرة على السلوك الإنجابى للسكان الريفيين كما نبين من نتائج بعض الدراسات التى أجريت فى هذا المجال وتشتمل هذه العوامل على مجموعة من العوامل الموقفية والمعيارية المتشابكة التى قد تؤثر على اتخاذ القرارات الإنجابية، وتتضمن بعض الخصائص الشخصية للأفراد، بجانب الخصائص البنيانية للأسرة والمجتمع المحلى، وطبيعة القيم الاجتماعية والمعايير السلوكية والأفكار السائدة فى المحيط الذى يعيشون فيه.

١ - المستوى التعليمى

اتفقت نتائج كثيرة من الدراسات على وجود علاقة موجبة بين المستوى التعليمى للزوجين وممارسة أساليب تنظيم الأسرة، وعلاقة سالبة بين المستوى التعليمى لكل من الزوجين والخصوبة مقاسة بعدد الأطفال المولودين أحياء، واشارت نتائج بعض الدراسات إلى أن تعليم المرأة أهم من تعليم الرجل فى خفض معدل الخصوبة، وقد يعزى تاثير التعليم على الخصوبة إلى عدة أسباب من بينها أن طول فترة الدراسة قد تؤدى إلى التأخير فى الزواج، وبالتالى تقصير فترة الإنجاب، كما قد يكون للمعارف المكتسبة عن طريق التعليم أثرها فى زيادة وعى الأفراد وشعورهم بالمسئوليات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية المترتبة على إنجاب الأطفال، وعلى تطلعهم إلى مستوى معيشى مرتفع قد لا يمكن تحقيقه فى ظل وجود عدد كبير من الأطفال، كذلك فإن ارتفاع المستوى التعليمى والثقافى للفرد قد يساعده على الاستمتاع بالموسيقى والرحلات والقراءة والمشاركة فى اوجه النشاط الاجتماعى والثقافى والسياسى فى المجتمع الذى يعيش فيه، مما قد يغير من اهتماماته ونظرته إلى الأطفال، بحيث لا يرى فى إنجاب عدد كبير منهم كل ما فى الكون من سعادة، بل ويرى فى كثرتهم أعباءاً وقيوداً تحد من قدرته على الاستمتاع بتلك النشطة. كذلك فإن التعليم يساعد على الاستخدام الملائم لوسائل تنظيم الأسرة.

ويزيد من أهميته تعليم المرأة الريفية فى تخفيض الخصوبة وتنظيم الأسرة ما أظهرته نتائج بعض الدراسات من أن الزوجة الريفية تلعب دوراً مؤثراً فى اتخاذ قرار تنظيم النسل، وكثيراً ما يرتبط تعليم النساء باشتغالهن مما لا يوفر لهن الوقت أو الجهد الكافى لتربية عدد كبير من الأطفال، بالإضافة إلى أن ما يضفيه عمل المرأة عليها من مكانة اجتماعية، وما يجلبه لها من دخل خاص يسهم فى تدعيم مكانتها الاجتماعية والاقتصادية فى الأسرة، ولا يجعل الأولاد هم مصدر الأمان الوحيد فى حياتها الزوجية، والمحدد الأهم لمكانتها، لذا تبدو أهمية العمل على

تكثيف الجهود المبذولة فى مجال التعليم ومحو الأمية وتعليم الكبار، وبصفـة خاصـة تلك الموجهة نحو تعليم المرأة الريفية.

٢- عمل الزوجة

أتفقت نتائج كثير من الدراسات على ان المرأة العامة اكثر استخداماً لوسـائل تنظيم الأسرة، وأقل أنجاباً من المرأة غير العاملة، وقد يرجـع ذلـك إلـى أن اشـتغال الزوجة يخلق اهتمامات جديدة لديها، ويسـتغرق جـزءاً كبيراً مـن جهدهـا ووقتهـا لا يمكنها معه الوفـاء بأعبـاء ومتطلبـات أسـرة كبيرة العـدد، كمـا أن العمـل يرفـع مـن مكانتها الاجتماعية والاقتصادية، ولا يجعـل قدرتهـا الإنجابيـة هـى المحـدد الرئيسـى لمكانتها فى الأسرة، كما قد يؤدى التحاق المراة بعمل إلى تأخير سن زواجها.

وقد أشارت بعض الدراسات أن عمل المرأة فـى النشـاط الزراعـى العـائلى، وبصفـة خاصـة فـى ظـل الزراعـة التقليديـة التـى لا تعتمـد علـى اسـتخدام الأسـاليب التكنولوجية الحديثة ليس له تأثير على خفض خصوبتها، بعكس العمـل فـى مجـالات النشاط الاقتصادى الأخرى، حيث لا يسهم عملها فى مجال النشاط الزراعى العـائلى فـى رفـع مكانتهـا الاجتماعيـة، أو توليد اهتمامـات لديهـا محبـذو لتفضيـل الأسـرة الصغيرة.

٣- مهنة الزوج

دلت نتائج بعض الدراسات علـى وجـود علاقـة بيـن مهنـة الـزوج والسـلوك الإنجابى نتيجة لارتباط بعض المهن بقيم واتجاهات معينة، وتشير بعـض الدراسـات إلى وجود ارتفاع نسبى فى الخصوبة بين المزارعين، وإلى أن نسبة ممارسة أساليب تنظيم الأسرة أقل بين أسر المزارعين منها بين أسر غير المزارعين، ويعتقد البعض أن اسباب هذا الاختلاف يرجع ولو جزئياً إلى طبيعة مهنـة الزراعـة، فالزراعـة فـى رأيهم تحتاج إلى أيدى عاملـة كثيرة نسبياً بمقارنتهـا بـالمهن الأخـرى، وأنهـا تتيـح

فرص العمل لأفراد الأسرة على اختلاف أعمارهم ذكوراً واناثاً، فالمزارع قد يشعر بأن اضافة أى طفل جديد إلى الأسرة يعنى إضافة يد عاملة جديدة تخفف عن الأسرة بعض أعباء العمل المزرعى والمنزلى خصوصاً فى ظل الزراعة التقليدية التى تعتمد فى أداء معظم عملياتها على القوى البشرية، هذا فضلاً عما يعنيه أبناء الزراع من الناحية الاقتصادية لأبائهم فهم مصدر دخل فى حالة عملهم لدى الغير، ومصدر تأمين فى المستقبل للأباء فى حالة المرض أو العجز أو الشيخوخة، خاصة وأن طائفة الزراع ليس لديهم وسائل التأمين الاقتصادى ما هو متوافر عادة لدى الطوائف غير الزراعية كالمعاشات أو مكافآت نهاية الخدمة أو غير ذلك.

٤- المستوى الاقتصادى للأسرة:

أوضحت كثير من الدراسات أن هناك علاقة عكسية بين مقدار دخل الأسرة وارتفاع مستواها الاقتصادى عموماً من جهة وعدد ما تنجبه من أطفال من جهة أخرى، فمن الملاحظ أن الأسرة ذات مستوى المعيشة العالى لا تنجب عادة إلا عدداً قليلاً من الأطفال، بينما تنجب الأسر ذات الدخول المحدودة ومستوى المعيشة المنخفض عدداً أكبر منهم.

ويعزو بعض المحللين تباين الخصوبة بين الطبقات المتباينة فى الدخل إلى اختلاف اتجاهات وميول كل طبقة، فالطبقات ذات الدخل العالى يكون لديها شعور قوى بالأمن الاقتصادى، وبذلك فهى ليست فى حاجة إلى إنجاب عدد كبير من الأطفال حتى يكونوا مصدر دخل للأسرة، أو وسيلة لتأمين الآباء اقتصادياً عند العجز أو الكبر، كما أنها غالباً ما تكون أكثر حرصاً على المحافظة على مستوى المعيشة العالى الذى درجت عليه، وأكثر دأباً على العمل من اجل توفير ما يكفل استمرار هذا المستوى إن تحسينه، وفى سبيل ذلك قد تنظر إلى إنجاب عدد كبير من الأطفال على انه يعنى مستوى معيشة أقل لهم، وتقسيم الثروة على عدد كبير من

الأطفال مستقبلاً يقلل من احتمال توفير المستوى المعيشى العالى الذى يطمح إليه الآباء والى عادة ما يود الآباء ألا يقل عن المستوى الذى ألفوه.

وهناك من يعزو انخفاض الخصوبة بين الطبقات ذات الدخل العالى وارتفاعها بين الطبقات الفقيرة إلى قدرة الطبقات الغنية على تحمل تكاليف خدمات تنظيم الأسرة غير ان انتشار هذه الخدمات بتكاليف رمزية فى معظم المناطق الريفية الحضرية يقلل من أهمية عامل التكاليف، ويبدو أن العوامل الأكثر تأثيراً على مدى الإقبال على تنظيم الأسرة هو اتجاهات السكان فى الطبقات والمستويات المعيشية المختلفة، وما يرتبط بها من اختلافات فى المستويات الثقافية والاجتماعية بما فى ذلك القيم والتقاليد التى تشكل الاتجاه نحو تنظيم النسل وحجم الأسرة المرغوب.

٥- العمر عند الزواج

اتفقت نتائج كثير من الدراسات على وجود علاقة عكسية بين العمر عند الزواج والخصوبة حيث ان انخفاض العمر عند الزواج يؤدى إلى إطالة فترة الخصوبة، وبالتالى ارتفاع عدد الأطفال المحتمل إنجابهم.

ويرى بعض المحللين ان الزواج المبكر للفرد فى الريف من الأسباب المساعدة على زيادة النسل، ليس بسبب طول فترة الخصوبة فقط، ولكن أيضاً لأن الزوجة الصغيرة قد يضعف تأثيرها فى عملية اتخاذ القرارات السرية، ومنها تلك المتعلقة بتنظيم النسل خاصة فى وجود ضغوط اجتماعية عليها من جانب أقارب الزوج، الذين عادة ما يقيمون معها فى ظل الأسرة الممتدة، فالزواج المبكر للفتاة الريفية يعد من العوامل المسئولة عن انخفاض المكانة الاجتماعية للمراة الريفية، ومازال الزواج المبكر شائعاً فى مصر عامة، وفى الريف خاصة.

ولقد أثار موضوع الزواج المبكر للفتاة تعليقات كثيرة من المحللين فهم يبرزون أن الفتاة الريفية كثيراً ما يكون زواجها قبل اكتمال نضجها الجسمانى، ومع ذلك فهى تجهد نفسها بأعمال شاقة، فمن إنجاب الأطفال الكثيرين لمساعدة زوجها فى الحقل وتدعيم وضعها ومركزها الأسرى، إلى القيام بشئون منزلها المتعددة، مما كان سبباً فى أن تبدو فى الشيخوخة بينما هى لا تزال فى عمر الشباب وقد ذكر بعض المحللين أن ذلك كان من ضمن الأسباب التى تجعل الأزواج الريفيين يميلون للزواج بأخرى شابة، كذلك فإن عدم حصول الفتاة الريفية على قط من التعليم، وقلة اختلاطها بالناس وعدم التحدث أمامها عن شئون الحياة أو الأسرة فيما عدا توجيه النصائح لطاعة الزوج واحترامه، بالإضافة إلى كثرة الحمل، وسوء التغذية يؤدى إلى ضعف المراة، وانعدام شخصيتها، ويقصر وظائفها على إنجاب الأطفال وخدمتهم وخدمة زوجها، مما يدعم وضعها التقليدى.

٦- صلة القرابة بين الزوجين:

تسهم صلة القرابة بين الزوجين فى تشكيل العلاقة بينهما. وقد يكون لهذه الصلة علاقة غير مباشرة على الخصوبة، فمن ناحية قد يؤدى زواج الأقارب إلى زيادة الاتجاه نحو تنظيم الأسرة وخفض الخصوبة نتيجة لشعور الزوجة بالأمان نسبياً، وأن زواجها لن يتهدد لعدم إنجابها أو اقتصار إنجابها على البنات، إلا أنه من الناحية الأخرى - هذا هو المرجح - فإن زواج الأقارب قد يؤدى إلى رفع الخصوبة لارتباطه غالباً ببعض العوامل المؤثرة على الخصوبة مثل الزواج المبكر والمعيشة فى أسرة ممتدة، إذ أن الزواج المبكر والمعيشة فى أسرة ممتدة المرجح أن يكونا أكثر انتشاراً فى الأسر التى يوجد بها صلة قرابة بين الزوجين، ومن المعتقد أن هذين العاملين يسهمان فى رفع الخصوبة، وقد بينت نتائج دراسة عن الاختلافات فى العمر عند الزواج أن الفتيات اللاتى يتزوجن من أقاربهن عادة ما يتزوجن فى عمر اصغر من الفتيات اللاتى يتزوجن من خارج نطاق العائلة مما يؤدى إلى إطالة فترة الخصوبة وبالتالى يزيد من احتمال إنجاب عدد أكبر من الأطفال.

٧- وفيات الأطفال

لاحظ بعض الباحثين أن خصوبة المرأة تتأثر إذا مرت بتجربة وفاة طفل لها أو أكثر، حيث أن موت طفل رضيع يقلل من الفترات بين الحمل، بالإضافة إلى أنه يؤثر على العدد الكلى للأطفال المولودين أحياء للمرأة كرد فعل تعويضى تأمينى مبالغ فيه، بحيث أن فقد طفل قد لا يؤدى إلى تعويضه بإنجاب طفل بديل، ولكنه يشجع على إنجاب أكثر من طفل لضمان تعويضه بإنجاب طفل بديل، ولكنه يشجع على إنجاب أكثر من طفل لضمان تحقيق الحد الأدنى المرغوب فيه من عدد لأطفال، وبذلك يؤدى فقد الأطفال إلى زيادة حجم الأسرة وتؤيد نتائج كثير من الدراسات الملاحظات السابقة من حيث وجود علاقة موجبة بين وفيات الأطفال سواء الرضع أو غير الرضع والخصوبة.

٨- مدة الزواج

لا يمكن الحكم الدقيق على السلوك الإنجابى للأفراد سواء من حيث اتجاههم نحو تنظيم الأسرة أو من حيث معدلات الخصوبة دون الأخذ فى الاعتبار مدة الزواج، حيث انها هى التى تحدد العدد الذى يمكن عند الرغبة فى عدم التنظيم، وهى التى تسمح بإنجاب العدد المرغوب فيه من الأبناء.

وقد دلت نتائج بعض الدراسات على وجود علاقة مغزوية موجبة بين مدة الزواج ومتوسط عدد الأبناء المولودين أحياء. وكثير من المحللين الذين يعتبرون الزواج المبكر أحد أسباب ارتفاع الخصوبة يرجعون ذلك فى المقام الأول إلى أنه يطيل من فترة الخصوبة، وبالتالى يزيد من احتمال إنجاب عدد أكبر من الأطفال بافتراض ثبات العوامل الأخرى المؤثرة على الخصوبة.

٩- نوع الأسرة

يعتقد بعض المحللين الاجتماعيين أن نظام المعيشة فى أسرة ممتدة الشائع فى المناطق الريفية ـ والذى يتقلص باستمرار ـ يعتبر أحد الأسباب التى قد يعزى

إليها إرتفاع الخصوبة فى الريف. ويرجع هذا إلى أنه فى ظل نظام الأسرة الممتدة فأن الزوجة تتعرض إلى ضغوط اجتماعية من جانب والدة وأقارب الزوج الذين يقيمون معها من أجل مزيد من الإنجاب، كما قد يرجع أيضاً إلى أنه فى ظل المعيشة فى أسرة ممتدة فأن مسئولية تربية الأبناء ورعايتهم قد لاتقع على كاهل الزوجين مباشرة، إذ أن وجود الأجداد والأقارب بالأسرة قد ينقل مسئولية وعبء تربية الأبناء إليهم، مما قد يقلل من إحساس الآباء بعبء تربية الأطفال، وبالتالى تقل دوافعهم للحد من الإنجاب. وقد دلت نتائج إحدى الدراسات على أن معدلات الخصوبة أعلى فى الأسرة الممتدة منا فى الأسرة النووية، وأن التعليم كمتغير خافض للخصوبة يقل تأثيره عندما تعيش الزوجة فى أسرة ممتدة.

١٠- مكانة المرأة الريفية

يفضل كثير من الريفيين الذكر على الأنثى، ويجعلونها أقل منه فى الحقوق، ويضعونها فى مكانة أقل منه منذ بداية نشأتها. وترجع المكانة المتدنية للمرأة الريفية إلى كثير من الأفكار التقليدية السائدة عن قصور طبيعة المرأة، ودورها فى المجتمع والذى تؤكد عليه أجهزة التطبيع الاجتماعى المختلفة، وتعكسها أجهز الإعلام، حيث تؤكد هذه الأفكار على أن الدور المعيارى للمرأة خاصة الريفية هو دور التابعة الضعيفة أمام الرجل المسيطر القوى. ومن دواعى الأسف أن الوضع التقليدى الجائر للمرأة لريفية يعود فى كثير من الأحيان إلى تصورات دينية خاطئة تراكمت على مر العصور أدت إلى عدم التكافؤ بين الرجل والمرأة، وإهدار مبدأ المساواة بينهما، فى حين ن الدين الإسلامى قد كرم المرأة كأم وكزوجة وكأخت وأبنة وأعطاها من الحقوق والواجبات ما لم تحظ به المرأة إلا فى العصور لحديثة.

وترى سامية الساعاتى أن المرأة الريفية تستمد قوتها من ثلاث عناصر هى جاه أهلها أى عصبيتهم، وممتلكاتها مالا وعقارا، وذريتها وبخاصة لذكور، ولا تتوفر هذه العناصر الثلاثة إلى فى الطبقة الريفية المتميزة فقط، أما فى الطبقة الفقيرة

التى تمثل السواد الأعظم من أهل الريف فإن قوة المرأة ومكانتها فـى الأسرة تتمثل فقط فى كونها منجبة، وترتفع مكانتها بكثرة الإنجاب خاصة إنجاب الذكور. وقد دلت نتائج إحدى الدراسات على أن المجتمع الريفى يعطى أهمية للإنجاب والمرأة الولـود عن المجتمع الحضرى. كما أشارت نتائج دراسة أخرى إلى أنه يتم النظر إلى مكانـة المرأة الريفية من خلال الإنجاب، لذلك فإن الريفيين يرون عقـم الزوجـة أمـراً مهينـاً ويرفعون قيمة الزوجة الولود.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين مكانة المرأة وسلوكها الإنجابى، فقد اتفقت كثير من الدراسـات علـى أن ارتفـاع مكانـة المرأة فـى الأسـرة مـن خـلال تعليمهـا ووضعهـا الاجتماعى والاقتصادى يؤدى إلى خفض معدلات الخصوبة وزيادة استخدام وسـائل تنظيم الأسرة.

١١- عدد الأبناء المفضل

يؤثر عدد الأبناء المفضل لكـل مـن الزوجيـن علـى سـلوكها الإنجـابى، فـإذا كانت لظروف مواتية للإنجاب فسوف يستمر الزوجان فـى الإنجـاب حتـى الوصـول إلى العدد المرغوب من الأبناء، وإذا كـان العـدد المرغـوب فيـه مـن الأطفـال كبيـراً فسوف يؤدى ذلك إلى ارتفاع الخصوبة مـالم تتدخـل عوامـل أخـرى. وقـد أوضحـت نتائج إحدى الدراسات فى بعض المناطق الريفية أن أكثر مـن نصـف أربـاب الأسـر يفضلون الخلفة الكبيرة العدد التى تزيد على ثلاثة أبناء، وإن عدد الأبناء فـى الأسـر التى ترغب فى عدد أكبر من الأطفال يزيد عنه فى الأسر التى ترغب فى عدد أقـل، وأن كـان قـد لوحـظ أن كثيراً مـن الأزواج الذيـن أوضحـوا أنهـم يفضلـون الخلفـة الصغيرة قد أنجبوا عدداً من الأطفـال أكبر مـن المرغـوب فيـه. وقـد أشـارت نتـائج بعض الدراسات إلى وجود إتساق بين الرغبة فى الأسـرة الصغيرة الحجـم واسـتدام وسائل تنظيم الأسرة. وأوضحت نتائج دراسة أجريت فى محافظـة سـوهاج أن ١٨٪

من الزوجات اللاتى لايمارسن تنظيم الأسرة يرجعن السبب فى ذلك إلى عدم إكتمال العدد المرغوب فيه من الأبناء.

ويرى بعض المحللين وجود علاقة طردية بين العدد لمفضل إنجابه من الأطفال وبين قيمة العزوة لدى الريفيين. حيث يعتبر خلف الأطفال موضوعاً للتفاخر عند الريفيين لأنهم سيكونون عزوة، ويزيدون من حجم الأسرة وتفرعها بالزواج والمصاهرة والاندماج فى أسر أخرى. والاعتزاز بالعصبية مظهر من مظاهر التمسك بقيمة قديمة تمتد جذورها فى أغوار المجتمع الاقطاعى القديم الذى عاش فيه الناس محرومين من كل ثقة فى الإدارة الحكومية ومناصرتها للضعيف أمام ظلم القوى وطغيان المتحكم ونفوذ الإقطاعيين المطلق. فلا عجب إذن إذا كان الشخص يجد أمنه وطمأنينه فى حماية عزوته وعصبيته له ليس فى حماية القانون وسلطته. ولاشك أن زوال النفوذ الاقطاعى، وقيام الدولة وأجهزتها بمسئولية حفظ الأمن، والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها مصر فى العقود الأخيرة قد أضعفت من قيمة العصبية والعزوة فى الريف، غير أنها ما زالت موجودة.

١٢- النظر إلى الأولاد كمصدر دخل للأسرة

من معوقات تنظيم النسل أيضاً أن الأسر الزراعية والأسر الفقيرة بشكل عام تعتبر الأطفال رصيداً اقتصادياً للأسرة، فالأطفال فى الريف يستفاد بهم كأيدى عاملة فى كثير من العمليات الزراعية، خاصة فى ظل الزراعة لتقليدية التى لاتعتمد على الميكنة الحديثة. ومما زاد من أهمية الأطفال فى العمل الزراعى هجرة الكثير من الأيدى العاملة الزراعية للعمل فى الدول العربية أو ترك الزراعة إلى أعمال أخرى. وكما يستفاد من الأطفال الذكور فى الأعمال الزراعية فإن الأطفال الإناث يساعدن أمهاتهن فى الأعمال المنزلية وبعض الأعمال المزرعية أيضاً.

وبالإضافة إلى اعتبار الأطفال مصدراً للدخل فإن تكاليف وأعباء تربيتهم لا تكلف أبويهم عناء ومشقة، حيث لا يحرص الآباء بمعظم المناطق لريفية وكثير من المناطق الشعبية في الحضر على توفير سبل الرعاية اللائقة لأبنائهم من تعليم ورعاية صحية وترفيهية وأقامية وغيرها. وفي ظل نظام الأسرة الممتدة الذى لا يزال موجوداً فى كثير من المناطق الريفية يلقى الآباء كثيراً من مسئوليات تربية أبنائهم على أجدادهم وأقاربهم.

ولعل من أهم العوامل التى ساعدت على استغلال الأطفال كأيدى عاملة عدم اهتمام كثير من الآباء وبخاص فى الريف بتعليم أولادهم نظراً لانخفاض قيمة التعليم من وجهة نظرهم، خاصة وأن غالبية الآباء والأمهات أميون، بالإضافة إلى التهاون فى تطبيق قانون التعليم الإلزامى. كما أن سوء حالة المدارس، وانخفاض مستوى أداء العملية لتعليمية، وعدم ملائمة كثير من مناهج الدراسة فى الريف للمتطلبات الوظيفية البيئية تسهم أيضاً فى نظرة الآباء السلبية إلى التعليم. خلاصة القول، إذا كان الأطفال يعتبرون مصدراً للدخل، ولا يشكلون عبئاً على أسرهم التى لا تهتم بتوفير سبل الرعاية الكريمة لهم، فلم إذن يهمدون إلى الحد من الإنجاب؟.

١٣- الرغبة فى إنجاب الذكور

ترتفع قيمة خلف الذكور عند الريفيين على الرغم من أن كثيراً منهم لا يبرون عن ذلك صراحة. ويرجع ذلك إلى كون الذكور هم اليد العاملة، وهم مصدر طمأنينة الأسرة على ممتلكاتها، وتخليد أسمها، وحماية نسائها والدفاع عن شرفها. كما أنهم عامل كبير فى تقوية العصبية واتساعها عن طريق النسب، وهم الذين يرعون الوالدين أثناء الكبر ويتكلفون بهما، بالإضافة إلى أن الريفيين يرون أن تربية الذكور أسهل من تربية الإناث، حيث أن الذكر غالباً ما ترتد إليه تصرفاته مباشرة، فإذا أتى بسلوك منحرف فإن سلوكه فى الغالب يعود عليه مباشرة، ولا يشين أسرته، كما يشينها أقل انحراف من الأنثى. ويعتبر الكثير خلف الأنثى هم لايفارهم حتى

تتزوج، وحتى زواجها لايضع حداً لقلق أهلها خاصة إذا لم تنجب وبالذات إذا لم تنجب ذكوراً، إذ يمكن أن تطلق، لذلك فإن تربية الأنثى مقرونة فى الأذهان بالمشقة النفسية والقلق والتوتر، لذلك يتوق الريفيون إلى خلف الذكور.

وقد دلت كثير من الدراسات على أن تفضيل الذكور ما زال فى المجتمع المصرى بشقيه الريفى والحضرى بغض النظر عن مكانة المرأة أو موقعها، وعلى أن هناك إرتباطاً بين حجم الأسرة وقيمة تفضيل الذكور، حيث تدل على أن الرغبة فى إنجاب ذكر تعتبر أحد العوامل المسئولة عن كثرة المواليد فى الأسرة المصرية وبصفة خاصة فى الريف. وقد أظهرت نتائج إحدى الدراسات عن الدوافع المسببة لتنظيم الأسرة فى مصر الدافعة لتنظيم الأسرة أقل لدى الأزواج الذين ليس لديهم أبناء ذكور إناث منها بين الذين لديهم ابن واحد على الأقل.

١٤- الأعتقاد بأن تنظيم النسل حرام:

ثار جدل طويل حول نظرة الدين إلى موضوع تنظيم الأسرة حيث أنه يقوم على إتخاذ وسيلة لمنع الحمل، الأمر الذى قد ينظر إليه لبعض على أنه معارضة لإرادة الله وأنه يحول دون كثرة الذرية التى يوصى بها الدين. فكيف يباح تنظيم الأسرة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "تناكحوا تناسلوا فأنى مباه بكم الأمم يوم القيامة" ويتناسى هؤلاء أن رسول الله لا يفاخر بالكم وحده، وإنما يفاخر بالكم والكيف معاً، بل قد يكون الكيف أهم، حيث يقول الرسول ﷺ "المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف".

هذا ونص الفقهاء قديماً وحديثا على بعض الأسباب التى تجيز للناس شرعاً استخدام وسائل تنظيم الأسرة، ومنها أن يكون الحمل والولادة ضاراً بصحة الأم أو مهدداً لحياتها بالخطر، والرغبة فى المحافظة على جمال المرأة، ورغبة الزوج فى التخفيف عن نفسه عبء المعيشة بالتقليل من النسل حتى لا يضطر إلى ارتياد موارد

السوء وكسب الحرام من أجل سد حاجات من يعولهم، وأن يكون للمرأة من الأعمال مالا تستطيع النهوض به مع الحمل فتتعرض لمشقة العمل والحمل معاً.

يتضح مما سبق أن الدين الإسلام لم يقف عائقاً فى سبيل تنظيم النسل أو يتخذ موقف سلبيا منه، ومع ذلك فهناك بعض التحفظات والمشاعر المتضاربة بشأن تنظيم الأسرة نتيجة لسوء فهم موقف الدين من هذه المسألة، وقد يرجع هذا إلى قصور التوعية الدينية فى هذه المسألة.

وقد سعت بعض الدراسات إلى اختيار العلاقة بين القيم الدينية وممارسة تنظيم الأسرة. وقد دلت نتائج هذه الدراسات على أن الدين كما يفهمه كثير من الريفيين يعتبر أحد العوامل الهامة فى تكوين الاتجاه نحو تنظيم الأسرة، وأن ١٧٪ من الذين لا يمارسون تنظيم الأسرة تسهم المعتقدات الدينية فى الحيلولة دون اقتناعهم بمبدأ تنظيم الأسرة كما تبين من خلاله دراسة أخرى عن اتجاهات الخصوبة فى الريف المصرى أن للمفاهيم الدينية أثر على ارتفاع معدلات الإنجاب فى الريف المصرى. وقد دلت إحدى الدراسات التى أجريت على عينة من الأسر فى محافظة سوهاج على أن أهم أسباب عدم ممارسة أساليب تنظيم الأسرة هو الاعتقاد بأن تنظيم الأسرة يتعارض مع تعاليم الدين وأن كل شئ بأمر الله، وأن حوالى ٣٥٪ من الزوجات لايمارسن التنظيم لهذا السبب.

١٥- التشكك فى جدوى وسائل تنظيم الأسرة والتخوف من آثارها

يوجد لدى كثير من الريفيين اعتقاد بأن وسائل منع الحمل كالحبوب واللوالب لا يمكن أن تمنع الحمل لأن ذلك يرتبط بإرادة الله، ويبررون ذلك بأن بعض من استعملن الحبوب أو تركيب اللولب، كما أن هناك اعتقاد شائع لدى غير الممارسات لتنظيم الأسرة بصفة خاصة بأن وسائل تنظيم الأسرة وبخاصة الحبوب تسبب ضرراً

للمرأة كالعقم والضعف العام وهبوط القلب وزغللة العين والصداع والألم، وأن اللولب يحدث نزيفاً دائماً للمرأة الأمر الذى يؤدى إلى ضعفها أيضاً.

وقد دلت نتائج بعض الدراسات على أن الخوف من الآثار الجانبية لتلك الوسائل من أهم أسباب عدم ممارسة أساليب تنظيم الأسرة. وقد يرجع الخطأ فى استعمال هذه الوسائل إلى إرتفاع نسبة الاعتماد على الأقارب والمعارف فى الحصول على المعلومات لخاصة بتنظيم الأسرة.

١٦- الوعى بالمشكلة السكانية

من المرجح أنه كلما زاد وعى الفرد وإدراكه لأبعاد المشكلة السكانية وما يترتب عليها من ضغط على المرافق والخدمات وما يؤدى إليه من انخفاض فى مستوى المعيشة كلما كان أكثر تبصراً لعواقب عدم تنظيم نسله. وعلى الرغم من أن تأثير هذا لعامل على الخصوبة لم يلق اهتماماً يذكر من جانب الباحثين، إلا أن الانخفاض النسبى لوعى الريفيين بأبعاد وآثار المشكلة السكانية نتيجة لارتفاع نسبة الأمية بينهم وانخفاض مستوياتهم التعليمية قد يكون أحد العوامل لمفسرة لارتفاع معدلات الخصوبة فى الريف عنها فى الحضر.

غير أنه ليس من المحتمل أن يدرك معظم السكان – وبخاصة الريفيون – المشكلة السكانية بأبعادها القومية المختلفة، وحتى إذا تسنى لهم ذلك فأنه لن يحرك دوافعهم بالدرجة الكافية، ولكن من المرجح أن ما يحرك استجابتهم هو إدراكهم واقتناعهم بالعوائد الإيجابية التى ستعود عليهم من جراء تنظيم نسلهم، وصغر حجم أسرهم، والجوانب السلبية والمشكلات التى ستواجههم نتيجة لكبر حجم أسرهم. فالمطلوب إذن تبنى سياسة لتنظيم الأسرة تستند إلى الترغيب والترهيب معاً. الترغيب فى الأسرة الصغيرة، والترهيب من الأسرة الكبيرة، مع العمل على تهيئة

الظروف الموضوعية المساعدة على مواجهة المعوقات القيمية وغير القيمية السابق ايضاحها لمساندة السياسة المقترحة.

١٧- المستوى التنموى للقرية

يرى بعض المحللين الاجتماعيين أن الدوافع للأسرة الكبيرة أو الصغيرة تتأثر بخواص القرية، وأن متغيرات التحديث قد تلعب دوراً أكثر أهمية فى تفسير السلوك الديموجرافى من المتغيرات الثقافية، وأن تولد فرص اقتصادية غير زراعية وتحديث لممارسات الزراعية يقلل من الاعتماد على الأطفال كقوة عمل ومصدر للدخل، حيث تتيح الزراعة التقليدية فرصاً لعمل الأطفال مما لا يجعل من إنجاب عدد كبير من الأطفال مشكلة، بل على العكس قد يكونون مصدراً لزيادة الدخل. كذلك فإن توفر الفرص التعليمية للأطفال فى القرية قد تساعد على توجيههم إلى التعليم بدلاً من العمل، وبالتالى تقل قيمتهم الاقتصادية مما لا يشجع على مزيد من الإنجاب. وبالإضافة إلى ذلك فإن توافر الخدمات الصحية، وتحسين نوعيتها، وبصفة خاصة خدمات رعاية الأمومة والطفولة قد تساعد على خفض معدلات وفيات الأطفال المعروف بارتباطها طردياً مع الخصوبة.

ومما لاشك فيه أن اضطراد عمليات التنمية الشاملة سوف يوفر مناخاً ملائماً لخفض معدلات المواليد، وتشجيع عملية تنظيم الأسرة. وتوجد دلائل كثيرة على أن الدول الأكثر تقدماً ينخفض بها معدلات المواليد. وهنا يتأكد رأى العيسوى الذى يقول: "... الأمر ليس مجرد خدمات تنظيم الأسرة، وإنما الطلب عليها، وهو لايتولد إلا إذا توافر مناخ تنموى شمل للنواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مرات لخفض الخصوبة.

أهم العوامل المؤثرة فى خصوبة السكان

أولاً: عوامل تؤثر فى العلاقة الجنسية وتقسم لقسمين:

(أ) عوامل تتحكم فى حدوث أو عدم حدوث الإخصاب فى فترة القدرة على الإنجاب وتشمل:

١- سن الزواج.

٢- نسبة النساء اللاتى لم يسبق لهن الزواج.

٣- المدة التى تقضيها المرأة فى سن الإنجاب خارج الحياة الزوجية بسبب الطلاق أو الترمل.

(ب) عوامل تؤثر فى العلاقة الجنسية أثناء الزواج، ومنها:

١- الابالة التطوعية.

٢- الإبالة غير التطوعية والناتجة عن مرض أو انفصال مؤقت بين الزوجين لظروف خاصة.

٣- عدد مرات الاتصال الجنسى (فيما عدا فترات الابالة)

ثانياً: عوامل تتحكم فى التعرض للحمل:

القدرة على الإنجاب أو عدم القدرة عليه، نتيجة أسباب مقصودة أو غير مقصودة.

ثالثاً: عوامل تتحكم فى حياة الجنين

(أ) وفاة الجنين نتيجة أسباب غير مقصودة.

(ب) وفاة الجنين نتيجة أسباب مقصودة.

والعلاقة بين مستوى لخصوبة ودرجة التقدم الاقتصادى والاجتماعى تبدو من مقارنة معدل التكاثر الإجمالى ببعض المؤشرات الهامة، مثل:

١- نصيب الفرد من الدخل القومى ومن الطاقة المستهلكة.

٢- درجة التحضر العمرانى ونسبة الأمية لدى الإناث.

وقد أوضحت النتائج أن مستويات الخصوبة العالية تتمشى مع إنخفاض درجة التقدم الاقتصادى الاجتماعى.

وقد حسب معامل الارتباط بين الخصوبة وهذه المؤشرات وتأكدت بموجبه العلاقة القوية بين الخصوبة وكل من هذه المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية ويمكن أن نربط هذه التيجة ونظرية الانتقال الديموغرافى وتطبيقها فى إمكان التنبؤ باتجاهات الخصوبة ونمو السكان فى الدول النامية فى المستقبل. وتقوم هذه النظرية على أساس العلاقة بين المواليد والوفيات، وبات الارتفاع الملموس فى مستوى لخصوبة فى المجتمعات ما قبل الصناعية كان مرتبطاً بمستويات حضارية منخفضة، وكلما اتجهت هذه المجتمعات نحو التصنيع، فأنها تتجه نحو انخفاض الخصوبة.

والخصوبة تتأثر فى مستواها بالعوامل لوسيطة والتى تعد بدورها إنعكاساً للظروف البيئية والحضارية مثل التقاليد السائدة فى المجتمعات النامية والتركيب السرى بها.

ومن الواضح أن وسائل التحكم فى مستوى الخصوبة السائدة فى المجتمعات المتقدمة مثل تأخير سن الزواج وعدم الزواج إطلاقاً، وكذلك استخدام وسائل منع الحمل - تعد عوامل أساسية وانخفاض معدل المواليد بهذه الدول.

ولكن هذه العوامل ليست سائدة بنفس الدرجة فى الدول النامية، مما يجعلها تعيش فى مرحلة الخصوبة الطبيعية. وإن استشعرت بعض الدول خطورة التضخم السكانى على خطط التنمية بها وما يلقيه من أعباء على كاهل المجتمع خاصة فى توفير الغذاء والخدمات وكذلك رفع مستوى العيش للسكان.

الفصل الثالث

الوفيات ومقاييس الوفاة

تعد الوفيات عنصر هام من عناصر تغير السكان، حيث تفوق فى أثرها عامل الهجرة، وإن كانت الخصوبة تسبقها وتتناقص مع الخصوبة فى أنها أكثر ثباتا، ويمكن التحكم فى مستواها. وترتبط الوفيات بمستوى التعمر، وقد شهدت معظم دول العالم إنخفاضاً فى مستوى الوفاة بين سكانها بسبب التقدم الطبى، ويعد انخفاض الوفيات السبب الرئيسى فى ظاهرة الانفجار السكانى والتى تعد أهم ملامح التاريخ البشرى الحديث وخاصة فى الدول النامية، حيث يمثل تحدياً ضخماً لمواردها.

تعتمد كثير من دراسات الوفيات حسب العمر والنوع وعلى ما يعرف بجدول الحياة. وتعتمد دقة هذا الجدول على دقة الإحصاءات الحيوية والتعدادات السكانية، ومن ثم فإنه من السهل إنشاؤها فى الدول المتقدمة، وبالرغم من ذلك فإن جانباً كبيراً من تحليل الوفاة يتم دون الرجوع إليها مقاييس الوفاة.

١- معدل الوفيات الخام = $\frac{\text{عدد الوفيات المسجلة خلال سنة ميلادية}}{\text{عدد السكان الكلى فى منتصف السنة}} \times ١٠٠٠$

أبرز عيوبه المزج بين مجموعات سكانية كثيرة تختلف الوفيات فيما بينها إختلافاً واضحاً، حيث يمزج هذه العناصر دون تمييز ومن أهم عيوبه أنه يبين مستوى الوفاة لمجتمع بأكمله فى سنة ما.

٢- معدل الوفيات حسب العمر:

معدل خاص بكل فئة عمرية، حيث ينسب عدد الوفيات التى حدثت فى كل فئة إلى جملة السكان فى نفس الفئة مضروباً فى ١٠٠٠، وتتأثر الوفاة بعامل السن

والنوع، وقد تقسم معدلات الوفيات العمرية هذه إلى أربع فترات من فترات العمر وهى: فترة الرضاعة وفترة الطفولة وفترة العمل والانجاب هم الكهولة والشيخوخة.

٣- معدل وفيات الرضع:

نحصل عليه بقسمة عدد وفيات الأطفال الذى تقل أعمارهم عن سنة على مجموع عدد الوفيات أحياء خلال نفس السنة مضروباً فى ١٠٠٠ وهو يعكس ما تقدمه الدولة من خدمات صحية لمواطنيها وصيغته كالآتى:

$$\text{معدل وفيات الرضع} = \frac{\text{عدد حالات الوفاة للأطفال أقل من سنة}}{\text{مجموع عدد المواليد الأحياء فى نفس السنة}} \times ١٠٠٠$$

٤- معدل الوفيات حسب السبب

وهو يبين مستوى الصحة العامة والأمراض السائدة وصيغة المعدل كالأتى:

$$\frac{\text{عدد الوفيات الناتجة عن سبب ما فى سنة معينة}}{\text{جملة عدد السكان فى منتصف السنة}} \times ١٠٠٠$$

وتتأثر بيانات أسباب الوفاة بتفاوت المهارات الطبية والتوزيع الجغرافى للخدمات الطبية.

٥- معدلات الوفيات حسب المهنة والحالة الاجتماعية والاقتصادية:

$$\frac{\text{عدد الوفيات فى مهنة معينة في سنة ما}}{\text{عدد السكان فى نفس المهنة ونفس السنة}} \times ١٠٠٠$$

وترجع أهمية معدل الوفيات المهنى لتحديد مخاطر الوفاة المرتبطة بالمهن المتعددة التى يشملها النشاط الاقتصادى فى المجتمع. وتبدو الفوارق العرقية من السمات الهامة لمظاهره.

ومن الواضح أن معدلات الوفيات مرتبطة بتباين التركيب العمرى والنوعى، كذلك تعد الفوارق الحضرية الريفية ظاهرة هامة فى اختلاف مستويات الوفيات. ويبدو ذلك بوضوح فى الدول النامية التى يقل فيها معدل الوفيات فى الحضر عنه فى الريف ومع ذلك فليست هذه هى القاعدة العامة فى تباين الوفيات الحضرى الريفى لأن التناقض ينهما يكون كبيراً فقط فى وفيات الأطفال الرضع.

تقارب معدلات الوفيات فى الدول المتقدمة والدول النامية

شهد العالم انخفاضاً كبيراً فى معدلات الوفيات بعد الحرب العالمية الثانية، بالأخص فى الدول النامية اقتصادياً، وكان من العوامل التى ساعدت على ذلك التعاون الدولى لتوفير الخدمات الصحية، التقدم الكبير فى الوسائل الوقائية والعلاجية للأمراض المعدية والأمراض الصدرية، والتقدم الاقتصادى وارتفاع مستوى المعيشة وتوفير المال للبرامج الصحية. ونتيجة لذلك فقد أصبح انخفاض معدل الوفيات الذى كان من صفات الدول المتقدمة فى متناول عدد كبير من الدول النامية، واضمحلت الفجوة بين الدول المتقدمة والنامية فى الفترة ٨٥ - ١٩٩٠ حيث بلغ هذا المتوسط حوالى ٩ فى الألف.

ولايمكن تفسير التقارب بين معدل الوفيات فى الدول المتقدمة والدول النامية على أساس تقارب مستوى الرعاية الصحية فى كل منهما، فهذا غير صحيح، فمن المؤكد أن حجم ومستوى الرعاية الصحية فى الدول المتقدمة أفضل كثيراً مما هو عليه الحال فى الدول النامية، غير أن تحسن مستوى الخدمات الصحية وارتفاع مستوى المعيشة فى الدول المتقدمة فى أدى إلى إرتفاع متوسط الأعمار فى تلك الدول، وإلى إرتفاع نسبة كبار السن بها، ومن الطبيعى أن يكون معدل الوفيات بين كبار السن أعلى منه بين صغار السن الذين يشكلون نسبة عالية من سكان الدول النامية.

إتجاه معدلات الوفيات فى مصر

شهد معدل الوفيات الخام انخفاضاً ملحوظاً خلال النصف الثانى من القرن العشرين، حيث انخفض من ١٦,٩ فى الألف ١٩٦٠ إلى ٦,٨ فى اللف فقط فى ١٩٩٧. ويعتبر معدل الوفيات هذا أقل من متوسط معدلات الوفيات فى الدول النامية والدول المتقدمة على السواء، حيث بلغ هذا المتوسط ١٠ فى الألف فى الدول المتقدمة، ٩ فى الألف فى الدول النامية، و ٩ فى الألف على مستوى العالم فى ١٩٩١.

أمد الحياة

كان لاستمرار إنخفاض معدل الوفيات وخاصة فى الأعمار المبكرة أثره الواضح فى إرتفاع متوسط طول عمر الفرد، مما أدى لتزايد عدد السكان الذى يصلوا لأعمار متقدمة فوق لستين أو الخامسة والستين.

ويقاس أمد الحياة باستخدام أساليب إحصائية تعتمد على جدول الحياة وهو عبارة عن عدد السنوات التى يتوقع أن يعيشها الفرد فى أى سن معلومة، وتوقع الحياة يكون بالنسبة للإناث أكبر منه كثيراً بالنسبة للذكور فى كل الفئات العمرية، وذلك لما تتصف به الإناث من إمكانية البقاء على قيد الحياة لفترة أطول منها عند الذكور ويعتبر ذلك إلى حد بعيد الزيادة الكبيرة فى عدد الأرامل من الإناث عنها فى الذكور وذلك فى المراحل المتأخرة من العمر.

ويرجع الإرتفاع فى متوسط أمد الحياة لمجموعة من العوامل أبرزها التقدم السريع الذى أحرزته البشرية وخاصة فيما بعد الحرب العالمية الثانية فى مجال مقاومة الأمراض خاصة المعدية، فيما يعرف بالمضادات الحيوية.

وتختلف دول العالم فى أمد لحياة لسكانها إختلافاً كبيراً مثل إختلافها فى كثير من المقاييس الحيوية الأخرى ويمكن تقسيم هذه الدول إلى ثلاث مجموعات رئيسية حسب توقع الحياة عند المولد.

(١) **المجموعة الأولى:** يقل بها أمد الحياة عن ٤٥ سنة وتشمل دول إفريقيا المدارية.

(٢) **المجموعة الثانية:** يتراوح متوسط أمد الحياة بها بين ٤٥ – ٦٥ وتشمل الغالبية العظمى من الدول النامية فى أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا وأفريقيا.

(٣) **المجموعة الثالثة:** يزيد أمد الحياة بدولها عن ٦٥ سنة وتشمل الدول المتقدمة فى العالم سواء فى أوروبا أو أمريكا الشمالية أو أمريكا اللاتينية، وهذه الدول المتقدمة حققت تقدماً كبيراً فى العقود الأخيرة وبين هذه الدول من يربو أمد الحياة فيها على ٧٠ سنة، مثل كندا والولايات المتحدة.

وعموماً كلما ارتفع عدد السنوات التى يتوقع أن يعيشها الطفل المولود حديثاً كلما دل ذلك على تحسن المستوى الصحى فى المجتمع. وفى مصر بلغ العمر المتوقع عند الميلاد ٦٧,١ سنة للذكور، مقابل ٧١,٥ سنة للإناث وذلك فى عام ٢٠٠١.



الفصل الرابع

النمو السكانى

يعد النمو السكانى فى العالم أبرز الظاهرات الديموغرافية المميزة فى العصر الحديث، حيث يمثل تحدياً هاماً للبشرية، خاصة بالنسبة للشعوب النامية، ويرتبط نمو السكان بالزيادة الطبيعية وهى الفرق بين المواليد والوفيات دون أن تدخل الهجرة فى حسابها، ولذلك فإن دراسة النمو السكانى القائم على أساس الزيادة الطبيعية فى بلد ما، يسهم فى تحديد المدة التى يستغرقها هذا البلد فى الوصول لحجم معلوم إذا استمرت المعدلات بنفس مستواها.

وتعتمد دراسة النمو السكانى على معدل النمو السكانى وهى أساس الدراسة، ودرجة التغير فى حجم السكان فى إقليم ما فى فترة زمنية محددة، ويحسب بطريقتين إحداهما هى حساب الفرق بين أعداد السكان فى تعدادين مختلفين، والأخرى هى تقدير معدل التغير من سجلات المواليد والوفيات والهجرة.

والطريقة الأولى التى تعتمد على جملة عدد السكان فى تعدادين مختلفين، هى الطريقة الشائعة لحساب معدل تغير السكان فى المجتمع، ويمكن الحصول على هذا المعدل باستخدام طريقتى المتواليتيين العددية والهندسية.

الضوابط البيئية للنمو السكانى

إرتبط إرتفاع مستوى الوفيات بعدد من العوامل البيئية التى كنت ضابطة للنمو ومتحكمة فى حركته بدرجة كبيرة، وأبرز هذه العوامل:

المجاعات التى كانت تتعرض لها أقاليم كبيرة من العالم القديم، ثم الأمراض الوبائية التى كانت قوة الإنسان وقدراته عاجزة عن مقاومتها، وأخيراً الحروب بين المجتمعات.

(أ) المجاعات:

لم تسلم قارات العالم القديم من المجاعات بسبب الكوارث الطبيعية، مثل الفيضانات ونقص الأمطار وترتب على كل ذلك تناقص كبير فى عدد السكان.

ومن أبرز المجاعات الى شهدتها أوروبا فى العصر الحديث تلك التى تعرضت لها أيرلنده فيما بين سنتى ١٨٤٦ - ١٨٥١، وكانت هذه المجاعات من المؤثرات الهامة فى تحديد نمو السكان فى الأقاليم المختلفة فى العالم، وبالإضافة إلى الجفاف كعامل خلاف فقد تعرض شمال غرب الصين لفيضان نهر اليانجستى وأدى ذلك لحدوث مجاعات، وقد شهدت الهند مجاعات ضخمة فى سنوات متتالية مثلما حدث فى سنتى ١٨٠٣ - ١٨٠٤ وفى ١٨٣٧ - ١٨٣٨ وكان ضحاياها بالملايين، مما أثر تأثيراً كبيراً على نمو السكان بالهند.

ولم تسلم مصر فى تاريخها السكانى من المجاعات والأوبئة والتى كانت عنصراً هاماً من عنصر الوفيات وارتبطت المجاعات بانخفاض منسوب مياه لنيل وعجزها عن الوفاء باحتياجات الزراعة فى البلاد ومن أمثال ذلك الشدة المستنصرية.

(ب) الأمراض الوبائية:

من أبرزها التيفود والجدرى والسل والحصبة والسعال الديكى والحمى القرمزية والدفتيريا والتى كانت كلها تؤدى بنسبة ليست صغيرة من السكان.

وقد شهد العالم بعض الأوبئة التى كان لها أثر كبير على نمـو سـكانه، ومـن أشهرها الموت الأسود أو مرض الطاعون الذي انتشر فـى الفترة ١٣٤٨ – ١٣٥٠ فى قارة أوربا. وفى العصر الحديث شـهد العـالم إنتشـار وبـاء الإنفلونـزا فـى سـنتى ١٩١٨ – ١٩١٩ والذى أثر فى كثير من الدول.

(جـ) الحروب:

كانت الحروب لها أثـر فـى تـأخير نمـو السـكان فـى مرحلـة مـا قبـل الثـورة الصناعية فى المجتمعات القبليـة وليسـت هنـاك تقديـرات عـن خسـائر الحـروب فـى البشر على إمتداد التـاريخ، وكـانت الخسـائر العسـكرية فـى الحـرب العلميـة الأولـى كبيرة بسبب ضخامة القوات المحاربة.

وكانت أكبر الخسائر فى الحرب من نصيـب روسـيا، حيـث يقدرهـا البعـض بحوالى مليونى نسمه خسائر مباشرة باسـتثناء المدنيين، والنقص فـى المواليد، وقـد انعكس ذلك على انخفاض معدل النمو السكانى فى روسيا، وسـاعد علـى ذلـك أيضـاً الحرب الأهلية ثم المجاعة ١٩١٨ – ١٩٢٢ وانتشار الطاعون.

وفى الحرب العالمية الثانية تعرضت أوروبا لخسائر بشرية كبيرة ومـن بيـن كل الدول كان الإتحاد السوفيتى أكثرها خسارة بشرية كبيرة ومن بين كل الدول كان الإتحاد السوفيتى أكثرهـا خسـارة بشـرية إذ يقـدر جملـة خسـائره فـى هـذه الحـروب ٣٧,٥ مليون نسمة، منها ٧ مليون خسائر عسكرية، و ١٨,٥ مليون خسـائر مدنيـة، ١٠,٩ مليـون خسـائر ناتجـة عـن النقـص فـى المواليـد، و ١,٣ مليـون خسـائر عـن الهجرة المغادرة، وبالإضافة إلى هاتين الحربين فقد شهدت مناطق أخرى مـن العـالم حروباً إقليمية أودت بالعديد من أرواح أبناءها.

عوامل النمو السكانى فى العصر الحديث

١- الثورة الزراعية فى وسائل وأساليب الإنتاج.

٢- الإنقلاب الصناعى فى القرن ١٨ وما صاحبه من زيادة فى الإنتاج وتطور وسائل النقل واختراع الآلة البخارية سنة ١٦٩٨ واستخدام البخار فى السكك الحديدية والسفن، وقد ساعد التحسين فى فنون النقل على فتح أراضى جديدة شاسعة وما ترتب على ذلك من هجرة.

٣- الاستقرار السياسى النسبى من العوامل الهامة التى أدت لتزايد سكان الغرب زيادة سكانية رهيبة.

وقد بدأت معدلات المواليد فى دول شمال وغرب أوروبا فى الهبوط منذ سنة ١٨٥٠ بسبب الأمراض الوبائية، ومعنى ذلك أن الطفرة السكانية فى العصر الحديث نتجت عن الزيادة الطبيعية الكبيرة والتى نتجت بدورها عن انخفاض معدل الوفيات مع بقاء معدلات المواليد ثابتة.

وقد بدأ الانخفاض الواضح فى معدلات الوفيات فى دول شمال أوروبا فى وقت مبكر من القرن ١٩ واستمر هذا الانخفاض بدرجة ملحوظة فى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، ولكن فى العقود الأخيرة أصبحت القارات تعانى من نمو السكان السريع. والواقع أن الدول الأوربية لم تشهد فى تاريخها معدلاً للنمو السكانى كالذى تشهده حالياً كثير من الدول النامية.

ونظراً لتباين معدلات المواليد والوفيات بين مناطق العالم الجغرافية فأنها تختلف كذلك فى معدلات نمو السكان بها، ويمكن تقسيم العالم إلى نطاقين كبيرين، أحدهما يتمثل فى الدول المتقدمة فى أوروبا وأمريكا الشمالية والإتحاد السوفيتى،

حيث ينخفض معدل النمو السكانى بها، والنطاق الآخر فيتمثل فى القارات النامية، آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

مراحل النمو السكاني:

أدت دراسة النمو السكانى لمحاولة تقسيمه لمراحل رئيسية ديموغرافية تتميز كل منها بسمات خاصة معتمدة على تطور المواليد والوفيات وتعرف هذه النظرية بنظرية النمو الطبيعى للسكان أو بالنظرية الديموغرافية الانتقالية، وأقيمت على أساس تجارب بيولوجية معملية. وتعد نظرية الانتقال الديموغرافى من أبرز المظاهر المرتبطة بدراسة السكان، وربما حظيت باهتمام كبير يماثل الاهتمام الذى قوبلت به نظرية فالتوس من قبل وهى باختصار تمثل العلاقة بين معدل المواليد والوفيات وما تنتجه مُن مؤثرات ديموغرافية تنعكس على معدل النمو السكانى فى المجتمع وهى تعتمد على عنصر الزمن لتحديد تطور منحنى النمو.

١ - المرحلة الأولى:

تعرض بالمرحلة البدائية، تتميز بارتفاع معدل لمواليد والوفيات، ويتعرض السكان فيها لأوبئة ومجاعات ترفع معدل الوفيات إلى أرقام كبيرة وكذلك ترتفع بينها معدلات وفيات الأطفال الرضع.

وقد مرت كل شعوب العالم بها حتى القرن ١٧، ولكن قلت المجتمعات التى تتمثل فيها هذه المرحلة فى العصر الحديث قلة واضحة وأصبحت مقصورة على بعض أجزاء وسط أفريقيا.

٢ - المرحلة الثانية:

تعرف بمرحلة التزايد السكانى المبكر أو المرحلة الديموغرافية الشابه، وتتميز بالنمو المتزايد والسريع للسكان الناتج عن إنخفاض معدل الوفيات مع

استمرار معدل المواليد مرتفعـاً. ويتميز الهرم العمرى للسكان باتساع القاعدة أى إرتفاع نسبة الصغار وتعيش معظم دول العالم النـامى فـى هذه المرحلـة، وقد دخل كثير من الدول تلك المرحلة منذ مقدار عقدين من الزمان.

ودول هذه المرحلة تعيش الآن مرحلة الانفجار السكانى الذى يعد من أبـرز مشكلاتها المعاصرة، ويعد التطور التكنولوجى الكبير مـن أهم العوامل التى مكنت الدول من الدخول إلى المحطة الثانية - مرحلة الانفجار السكانى - حيث استطاعت بواسطته أن تسيطر على الأمراض الوبائية وأن تخفض من معـدل الوفيات بها فى فترة قصيرة مع بقاء معدل المواليد مرتفعاً. ولذلك فإن ديناميكيـة الإنفجـار السكانى ترجع فى الأساس إلى الهبوط الكبير فى معدل الوفيات نتيجة السيطرة على أسبابها.

٣- المرحلة الثالثة:

تعرف بمرحلة التزايد السكانى المتأخر وهى المرحلة التى تعيشـها الدول ذات الخصوبة المتوسطة. ويتميز النمو السكانى بأنه أقل من مستواه من المرحلة السابقة ذات التزايد المبكر، وفى هذه المرحلة توجد دول مثل الأرجنتين حيث يصل معدل النمو السكانى فيها ١,٥٪، شيلى بمعدل ١,٩٪، أورجواى بمعـدل ١,١٪، كذلك دول الكاريبى. وفى هذه الدول يلعب تنظيم الأسرة دوراً هاماً فى خفض مستويات الخصوبة، وتعد هذه المرحلة أولى المراحل التى تضم سكاناً من سكان العالم المتقدم والعالم النامى معاً، ويشبه معدل النمـو لديها معدل النمو العالمى فى الوقت الحاضر.

٤- المرحلة الرابعة:

هى المرحلة الأخيرة فى الدورة الديموغرافية وتشمل الدول التى وصلت إلى مرحلة الثبات والاستقرار الديموغرافيين. حيث إنخفض فيها معدل المواليد ومعدل

الوفيات إنخفاضاً ملحوظاً وبالتالى هبط معدل النمو السكانى بها إلــى أدنـى مستوياته فى العالم اليوم، حيث يقل متوسطه من ٠,٦٪ سنوياً.

كانت هناك ثلاث دول يصل معدل النمو السكانى بها إلى درجة الصفر، وهى النمسا ولكسمبرج والسويد، وتعرضت ثلاث دول لنقص طبيعى هى الدنمارك والمجر وألمانيا الإتحادية، حيث وصل معدل النمو بها إلى -٠,٢٪.

تمثل اليابان نوعاً فريداً فى العصر الحديث، حيث استطاعت أن تمر من المرحلة الثالثة إلى المرحلة الرابعة التى تعيشها حالياً فى أقل من ٢٠ سنة، وذلك نتيجة سياسية حازمة لتخفيض معدل النمو السكانى بها، وهى تعد بذلك الدولة الأسيوية الوحيدة التي تعيش فى المرحلة الرابعة.

وبالرغم من أنه يمكن التنبؤ بأن كثير من الدول ستصل إلى المرحلة الرابعة فى النهاية إلا أن ذلك الانتقال المرحلى يرتبط بتغيرات جذرية بمعدلات المواليد والوفيات إلى المستوى المنخفض لسائد فى دول المرحلة الرابعة من الدورة الديموغرافية.

الفصل الخامس

التركيب العمرى والنوعى للسكان

ويقصد بالتركيب العمرى والنوعى للسكان توزيعهم وفقاً للجنس والعمر، ويعبر عن التكوين النوعى والعمرى للسكان فى المجتمع برسم بيانى يسمى بالهرم السكانى، يمثل المحور الرأسى فيه العمر، بينما يمثل المحور الأفقى فيه الفئات العمرية. وتعد دراسة التركيب العمرى والنوعى Age-Sex composition على قدر كبير من الهمية فى دراسة السكان، ذلك لأنها توضح الملامح الديموغرافية للمجتمع ذكوراً وإناثاً وتحدد الفئات المنتجة فهو التى يقع على عاتقها عبء إعالة باقى أفراده.

أولاً التركيب العمرى:

تعد بيانات السن كما أوردتها التعدادات السكانية المصدر الرئيسى لدراسة التركيب العمرى، وينقسم السكان إلى ثلاث فئات عمرية عريضة سواء كانت أرقاماً مطلقة أو نسباً مئوية من جملة السكان، وهذه الفئات هى:

١- صغار السن (صفر -١٤ سنة)

وهذه الفئة تمثل قاعدة الهرم السكانى الذى سنشير غليه فيما بعد، وتتصف بانها غير منتجة، كما انها أكثر الفئات تأثراً بعاملى المواليد والوفيات، وذلك لأن الوفيات ترتفع نسبتها بين صغار السن.

٢- متوسطو السن (١٥-٦٤):

وهى الفئة المنتجة فى المجتمع - كما أنها الفئة التى تسهم فى نمو السكان وتعتمد عليها الفئتان الأخريان - هذه الفئة هى الأكثر قدرة على الحركة والهجرة، وفى الدول المتقدمة حيث تنخفض معدلات المواليد والوفيات.

نسبة الإعالة: Dependency Ratio

ترتبط نسبة الإعالة بالتركيب العمرى للسكان، وتقوم على أساس أن كل فرد فى المجتمع مستهلك، أما المنتجون فهم بعض أفراده فقط، فالقطر الذى تزيد فيه نسبة السكان المنتجين للسلع والخدمات أفضل حالاً من الناحية الاقتصادية من قطر تقل فيه هذه النسبة وذلك بإفتراض تساوى الظروف الاجتماعية والديموغرافية الأخرى فى القطرين.

وتتفق معظم الدراسات السكانية على إعتبار من تقل سنهم عن الخامسة عشر "معولين صغار" ومن تزيد أعمارهم على الستين "بالمعولين الكبار أو المسنين" أما قطاع السكان الباقى الذى يتراوح عمر أفراده بين ١٥ – ٦٥ سنة فيمثلون القطاع النشيُط اقتصادياً من السكان والذى تقع عليه عبء إعالة المجتمع. وتحسب نسبة إعالة الصغار بالصيغة التالية:

$$\frac{\text{عدد السكان أقل من ١٥ سنة}}{\text{عدد السكان فى المدى العمرى (١٥–٥٩)}} \times ١٠٠$$

وبنفس الطريقة تحسب نسبة إعالة الكبار على النحو التالى:

$$\frac{\text{عدد السكانسن ٦٠ سنة فأكثر}}{\text{عدد السكان فى المدى العمرى (١٥–٥٩)}} \times ١٠٠$$

ومن الحقائق الهامة الأخرى التى يمكن استنتاجها، أن العلاقة بين فئتى نسبة إعالة الصغار والكبار من ناحية، ونسبة الإعالة الكلية من ناحية أخرى ليست واحدة فى كل الدول فيبدو كقاعدة عامة أن نسبة إعالة الصغار تفوق نسبة الكبار.

بيد أن نسبة الإعالة كقاعدة عامة - تعد نتاجاً للتركيب العمرى للسكان، كما أنها يمكن أن تكون مقياساً من مقاييس التفرقة بين الدول النامية والدول المتقدمة، ومن المفارقات العجيبة أن الدول النامية التى تبذل جهوداً ضخمة فى سبيل زيادة إنتاجها ورفع مستوى معيشتها هى الدول التى تعانى من زيادة عبء الإعالة الكلية.

ثانياً التركيب النوعى:

بالرغم من أن أعداد الذكور والإناث ليست متباينة تبايناً واسعاً فى المجتمعات المختلفة فإن دراسة التركيب النوعى هامة فى دراسة السكان، ويمكن حساب نسبة النوع Sex Ratio أو ما تسمى أحياناً بنسبة الذكوره - على أساس قسمة عدد الذكور على عدد الإناث وضرب الناتج فى مائة.

وتتأثر نسبة النوع فى المجتمعات زيادة ونقصاناً ببعض العوامل التى أهمها:

أ- الهجرة الوافدة أو المغادرة لكل من الذكور والإناث.

ب- تباين معدل الوفيات بالنسبة لكلا النوعين فى الأعمال المختلفة.

جـ- الخطاء فى البيانات التى يشملها التعداد.

د- الحروب التى تؤدى إلى زيادة كبيرة فى وفيات الذكور.

وقد إنعكست الصورة فى دول المهجر التى إستقبلت أعداداً كبيرة من الذكور تفوق أعداد الإناث حتى الحرب العالمية الأولى.

وفى كثير من الدول النامية ما زال الذكور يكونون النسبة الأكبر من المهاجرين إلى المدن، ويبدو ذلك بوضوح فى الفئات العمرية الوسطى، ففى مصر مثلاً ترتفع نسبة الذكور على الإناث فى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية.

الهرم النوعى للسكان: Age-Sex Population Pyramid

يعد الهرم النوعى للسكان أسهل أنواع التمثيل البيانى فهما لاختلافات التركيب العمرى النوعى بين المجموعات السكانية فى الدولة الواحدة أو بين الدول بعضها وبعض.

ويتأثر شكل الهرم السكانى بارتفاع أو إنخفاض كل من المواليد والوفيات والهجرة فى فترات سابقة ويبدو ذلك فى نسب كل فئة عمرية لمجموع السكان منناحية وعلاقتها بالفئات الأدنى والأعلى من ناحية أخرى.

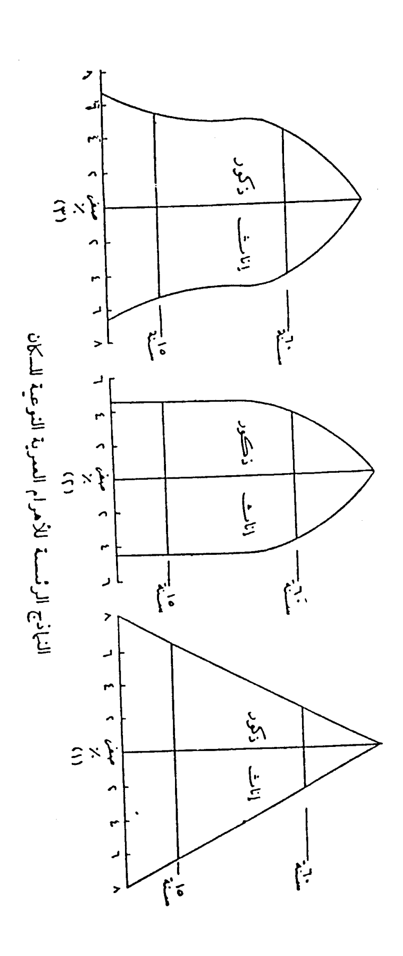
تصنيف الأهرام السكانية:

هناك ثلاث صور من الأهرام السكانية تكشف عن الجوانب الديموغرافية فى المجتمع، وهذه الصور يبينها الشكل التالى وهى:

١- الهرم ذو القاعدة العريضة والجوانب المنحدرة برفق نحو القمة، وهذا الهرم يمثل البلاد التى ينمو فيها السكان بمعدل كبير نتيجة إنخفاض وفيات الأطفال ولم تخفض من معدل المواليد لديها.

٢- الهرم ذو القاعدة الضيقة والقمة المحدبة، وهو يشبه خلية نحل من الطراز القديم ويمثل البلاد التى تتميز بإنخفاض معدل المواليد وإنخفاض معدلات الوفيات، ويتمثل هذا النمط من الأهرام السكانية فى معظم دول اوربا.

٣- الهرم ذو القاعدة المتوسطة وهو وسط بين الهرمين الفتى والمسن، ويتمثل فى الدول التى حدث لتركيبها السكانى تغير واضح كما هى الحال فى الولايات المتحدة وكندا.



النماذج الرئيسية للأهرام العمرية النوعية للسكان

التركيب الاقتصادى للسكان

تعد دراسة التركيب الاقتصادى من العناصر الهامة فى دراسة تركيب السكان فيمكن من خلال هذه الدراسة تحديد ملامح النشاط الاقتصادى وأهمية عناصره وارتباطها بظروف البيئة الجغرافية.

تعريف:

بالرغم من أن المفهوم الأساسى الذى يحدد النشاط الاقتصادى لا يختلف كثيراً من تعداد لآخر - فإن السكان ذوى النشاط الاقتصادى Economically Active Population يمكن تعريفهم بوجه "الأفراد الذين يشتركون فى تقديم العمل لإنتاج السلع الإقتصادية والخدمات"، وعلى ذلك فإن القوة البشرية فى المجتمع يمكن أن تنقسم إلى قسمين:

١ - لأفراد داخلون فى القوة العاملة:

وهم جميع الأفراد الذين يسهمون فعلاً بمجهودهم الجسمانى أو العقلى فيأن العمل يتصل بانتاج السلع أو الخدمات سواء كانوا يعملون بأجر او بدون أجر أو لحسابهم الخاص أو أصحاب أعمال.

٢ - الأفراد الخارجون عن القوة العاملة:

وهم الأفراد الذين يقومون بأعمال لا تسهم مباشرة فى إنتاج السلع والخدمات، وتشمل هذه الفئة ربات البيوت والطلبة، كما يدخل فى عدادها غير القادرين على العمل مثل العجزة الذين لا يمكنهم أداء عمل مثمر بسبب عاهة مقعدة أو مرض مزمن أو غير ذلك، كما يدخل فى عدادها الأطفال دون سنة السادسة، والمحالين إلىالمعاش وكبار السن الذين تزيد أعمارهم على الخامسة والستين ما دامو لا يمارسون عملاً مثمراً.

ومحاولة للوصول إلى معدلات أكثر دقة من المعدل الخام فإن الأمر يتطلب معرفة نسبة العاملين إلى جملة السكان حسب كل فئة عمرية نوعية.

العمالة والتركيب العمرى:

يعتمد حجم القوة العاملة فى المجتمع على العوامل الديموغرافية والاجتماعية وليس من شك فى أن ذلك يرتبط بحجم السكان ككل، أن الصغار وكبار السن يقومون فى الدول النامية بدور كبير فى النشاط الاقتصادى بل أن الإناث يشتركن فى ذلك حيث تنخفض بها أعباء الإعالة لإنخفاض مستوى الخصوبة وقلة عدد الأطفال الصغار (أقل من ١٥ سنة) وبالإضافة إلى ذلك فإن التعليم يكون إجبارياً فيها للسكان حتى سن معينة ومن ثم يكون كل الأطفال خلال هذه السن خارج نطاق القوة العاملة.

معدلات النشاط الاقتصادى للإناث:

من المعتاد فى تعدادات السكان أن تصنف الإناث ضمن القوى العاملة طالما أنهن يمارسن عملاً خارج المنزل، ومع ذلك فإن هناك اختلافاً بين الدول لأن هناك بعض الدول تدخل الإناث اعاملات فى الزراعة ضمن قوة العمل والبعض الاخر يستثنيهن فى ذلك.

ومعدلات النشاط الاقتصادى للإناث من سن ١٥ إلى سن ٢٥ سنة، ومن المعتاد فى البلاد المتقدمة صناعياً أن تدخل اعداد كبيرة من الفتيات فى القوة العاملة عندما يتجاوزن سن الخامسة عشرة.

ويتأثر دخول المرأة لسوق العمل بمجموعة من العوامل الإجتماعية والإقتصادية مرتبطة فى ذلك بمدى مكانة المراة فى المجتمع ومستويات التعليم التى وصلت إليها والدور الذى تلعبه فى النشاط الاقتصادى.

تصنيف النشاط الإقتصادي: Industry or Economic Activity

يعرف النشاط الإقتصادى فى ثلاث مجموعات رئيسية كبرى هى:

١- مجموعة الأنشطة الأولية: Primary Group

وتشمل قطاع الزراعة والرى والغابات وصيد البر والبحر.

٢- مجموعة الأنشطة الثانوية: Secondary Group

وتشمل قطاع المناجم والمحاجر والصناعات التحويلية والبناء والتشييد.

٣- مجموعة الأنشطة الثالثة: Tertiary Group

وتشمل القطاعات الأخرى ـ أى الكهرباء والغاز والمياه والتجارة والنقل والمواصلات والخدمات وغيرها.

التركيب المهنى Occupation

ويتحدد التركيب المهنى فى عشر مجموعات هو الآخر على النحو التالى:

١- أصحاب المهن الفنية والعلمية ٢- المديرون.

٣- المشتغلون بالعمال الكتابية. ٤- المشتغلون باعمال البيع

٥- المشتغلون بأعمال الزراعة والصيد وقطع الأشجار.

٦- المشتغلون بالمناجم والمحاجر.

٧- المشتغلون بالنقل والمواصلات.

٨- أصحاب الحرف والصناع والعمال والفعلة ومن إليهم.

٩- المشتغلون بالخمات الرياضية والترفيهية وغيرها.

١٠- عمال غير مصنفين فى حرف أخرى.

وغالباً ما تتحدد هذه المهن الرئيسية المذكورة للأفراد الذين بلغوا من العمر ١٥ سنة فأكثر.

وفقاً لتصنيف الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء للسكان الذين تبلغ أعمارهم ١٥ سنة فأكثر حسب أقسام المهن المختلفة فى ١٩٩٦ فإن جملة عددهم

تبلغ حوالى ١٧,٢ مليون نسمة، منهم حوالى ١٤,٦ مليون من الذكور و٢,٦ مليون من أفناث، وإن أكبر نسبة يعملون فى مجال الزراعة وتربية الحيوانات ٢٧,٢، تليها نسبة الحرفيين ١٤٪، الفنيون ومساعدو الأخصائيين ٩,١٪ ثم عمال المصانع ٦,٢٪ ثم كبار المسئولين والمديرين ٤,٣٪ وأخيراً عمال المهن العادية ٢,٤٪ كما هو موضح فى جدول (١).

جدول (١) التوزيع العددى والنسبى للسكان (١٥ سنة فأكثر) حسب المهنة فى ريف وحضر الجمهورية فى ١٩٩٦ (العدد بالألف)

القطاع	ريف		حضر		جملة	
المهن	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
رجال التشريع وكبار المسئولين والمديرين	١٧٨	١,٩	٥١٦	٧,١	٧٣٩	٤,٣
الأخصائيون (أصحاب المهن العلمية)	٦٥٩	٧,١	١٤٢٢	١٧,٩	٢٠٨١	١٢,١
الفنيون ومساعدو الأخصائيين	٦٣٤	٦,٨	٩٣٢	١١,٧	١٥٦٦	٩,١
القائمون بالأعمال الكتابية ومن إليهم	٤٩٣	٥,٣	٦٣٢	٧,٩	١١٢٥	٦,٥
العاملون فى الخدمات ومجال البيع	٦٦٩	٧,٢	٧٩٢	٩,٩	١٤٦١	٨,٥
المزارعون وعمال الزراعة والعاملون بالصيد	٤١٨٢	٤٥,١	٥٠١	٦,٣	٤٦٨٣	٢٧,٢
الحرفيون ومن إليهم	٩٣١	١٠,١	١٤٧٩	١٨,٦	٢٤١٠	١٤,٠
عمال المصانع ومشغلو الماكينات	٤٦١	٥,٠	٦٠٩	٧,٧	١٠٦٩	٦,٢
عمال المهن العادية	١٥٦	١,٧	٢٦٤	٣,٣	٤٢٠	٢,٤
الذين لا يمكن تصنيفهم حسب المهنة	٩١٤	٩,٨	٧٦٤	٩,٦	١٦٧٨	٩,٧
الجملة	٩٢٧٧	١٠٠,٠	٧٩٥٥	١٠٠,٠	١٧٢٣٢	١٠٠,٠

المصدر: جمعت البيانات من الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ـ الكتاب الاحصائى السنوى ١٩٩٩. (جدول ١-١٥)

وبالنسبة للتوزيع المهنى وفقاً للجنس يتبين أن أعلى نسبة من الذكور تمتهن الزراعة ٣٠,٦٪ يليها الحرفيون ١٦,١٪ ثم المهن العلمية ٩,٨٪ فالخدمات ٩,٢٪، أما بالنسبة للإناث فالنسبة الأكبر منهن يعملن فى المهن العلمية ٢٤,٨٪، يليها الأعمال الكتابية ١٦,٦٪ ثم الفنية ١٦,١٪، ثم الزراعية ٨٪. (جدول٢).

وعلى مستوى الريف يتبين أن ٤٥,١٪ من اصحاب المهن يعملون فى الزراعة وتربية الحيوان وتبلغ النسبة للذكور ٤٨,٤٪ وللإناث ١٨,٩٪، ثم الحرفيون بنسبة ١٠,١٪ (١١٪ للذكور، ٢,٣٪ للإناث)، ثم الخدمات ٧,٢٪ (ذكور ٧,٧٪، إناث ١٢,٩٪) بينما فى الحضر فإن النسبة الكبرى هى نسبة الحرفيين ١٨,٦٪ (٢٢,٧٪ للذكور، ٢,٢٪ للإناث)، ثم المهن العمية ١٧,٩٪ (١٤,٦٪ للذكور، ٣١٪ للإناث)، ثم الفنيون ١١,٧٪ (١٠٪ للذكور، ١٨,٧٪ للإناث)

من البيانات السابقة نستخلص ما يلى:

١- إن أكبر المهن من حيث عدد المشتغلين بها فى ١٩٩٦ هى الزراعة وتربية الحيوان على مستوى الجمهورية (جدول ٣)

٢- إن أكبر المهن من حيث عدد الذكور العاملين بها هى الزراعة أيضاً (٣٠,٦٪)، ومن حيث عدد الإناث هى المهن لالعلمية، ثم الأعمال الكتابية.

٣- إن اكبر المهن من حيث عدد العاملين بها فى الريف هى الزراعة والتى عمل بها ٤٥٪ من اصحاب المهن و ٤٨,٤٪ من جملة الذكور، ١٩٪ من جملة الإناث، أما فى الحضر فإن أكبر مهنة هى الحرفيون والتى يعمل بها ١٨,٦ من أصحاب المهن فى الحضر.

٤- من الواضح أن هناك عرقة بين نوع المهنة والجنس فبينما يعمل غالبية الذكور **فى العمال التى تتطلب قوة عضلية كالزراعة والحرف، بينما غالبية الإناث يعملن فى مهن لا تتطلب قوة عضلية أو مجهوداً بدنياً كالمهن العلمية والفنية والكتابية،**

وهو الأمر الذى يتفق مع طبيعة نظرة المجتمع للعمل الذى يتناسب مع المرأة وتؤكد عليه عمليات التطبيع الاجتماعى المتعلقة بأدوار كل من الذكر والأنثى.

٥- بينما يوجد تركيز كبير واضح للعمل فى مجال مهنى واحد هو الزراعة وتربية الحيوان فى الريف، فإنه لا يوجد مثل ذلك التركيز على مجال واحد فى الحضر، حيث يبدو أن الحضريين يعملون فى مهن أكثر تنوعاً، وأن التكوين المهنى فى الحضر أكثر تبايناً منه فى الريف.

٦- أن نسبة الممتهنين للزراعة فى الريف على الرغم من ارتفاعها الواضح كما يظهر من الأرقام السابقة، هى فى الواقع أكبر مما تظهره هذه الأرقام، إذا ما أخذ فى الحسبان أن معظم الذين يدخلون سوق العمل فى مرحلة مبكرة (أقل من ١٥ عاماً) يعملون بالزراعة، وأن أعداداً كبيرة من النساء الريفيات اللاتى يشاركن فى العمل الزراعى العائلى لا يصنفن ضمن قوة العمل كما سبق ذكره.

جدول (٢) التوزيع العددى والنسبى للسكان (١٥ سنة فأكثر) حسب المهنة فى ريف وحضر الجمهورية فى ١٩٩٦

القطـــــاع	ريـــــف		حضـــــر		جملـــــة	
المهـــــن	ذكور٪	إناث٪	ذكور٪	إناث٪	ذكور٪	إناث٪
رجال التشريع وكبار المسئولين والمديرين	٢,٠	١,٥	٧,٧	٤,٦	٤,٤	٣,٤
الأخصائيون (أصحاب المهن العلمية)	٦,١	١٥,٣	١٤,٦	٣١,٠	٩,٨	٢٤,٨
الفنيون ومساعدو الأخصائيين	٦,١	١٢,١	١٠,٠	١٨,٧	٧,٨	١٦,١
القائمون بالأعمال الكتابية ومن إليهم	٤,٠	٢٦,٠	٥,٥٧	١٧,٠	٤,٧	١٦,٦
العاملون فى الخدُمات ومجال البيع	٧,٧	٢,٩	١١,٠	٥,٨	٩,٢	٤,٧
المزارعون وعمال الزراعة والعاملون بالصيد	٤٨,٤	١٨,٩	٧,٦	٠,٩	٣٠,٦	٨,٠
الحرفيون ومن إليهم	١١,٠	٢,٣	٢٢,٧	٢,٢	١٦,١	٢,٢
عمال المصانع ومشغلو الماكينات	٥,٥	٠,٩	٩,١	٢,١	٧,١	١,٥
عمال المهن العادية	١,٧	١,٣	٣,٩	٠,٩	٢,٧	١,١
الذين لا يمكن تصنيفهم حسب المهنة	٧,٥	٢٨,٨	٧,٧	١٦,٨	٧,٦	٢١,٦
الجملة	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠

المصدر: جمعت البيانات ثم حسبت من: الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ـ الكتاب الاحصائى السنوى ١٩٩٩. جدول (١-١٥)

جدول (٣) التوزيع العددى والنسبى للسكان (١٥ سنة فأكثر) حسب المهنة فى ريف وحضر الجمهورية فى ١٩٩٦ (العدد بالألف)

القطـــاع	ريـــف		حضـــر		جملـــة	
المهـــن	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
رجال التشريع وكبار المسئولين والمديرين	١٦٢	١٦	٤٨٨	٧٣	٦٥٠	٨٩
الأخصائيون (أصحاب المهن العلمية)	٥٠١	١٥٨	٩٢٦	٤٩٦	١٤٢٧	٦٥٤
الفنيون ومساعدو الأخصائيين	٥٠٩	١٢٥	٦٣٣	٢٩٩	١١٤٢	٤٢٤
القائمون بالأعمال الكتابية ومن إليهم	٣٢٨	١٦٥	٣٦٠	٢٧٢	٦٨٨	٤٣٧
العاملون فى الخدمات ومجال البيع	٦٣٩	٣٠	٦٩٩	٩٣	١٣٣٨	١٢٣
المزارعون وعمال الزراعة والعاملون بالصيد	٣٩٨٦	١٩٦	٤٨٧	١٤	٤٤٧٣	٢١٠
الحرفيون ومن إليهم	٩٠٧	٢٤	١٤٤٤	٣٥	٢٣٥١	٥٩
عمال المصانع ومشغلو الماكينات	٤٥٢	٩	٥٧٧	٣٢	١٠٢٨	٤١
عمال المهن العادية	١٤٢	١٤	٢٥٠	١٤	٣٩٢	٢٨
الذين لا يمكن تصنيفهم حسب المهنة	٦١٥	٢٩٩	٤٩٥	٢٦٩	١١١٠	٥٦٨
الجملة	٨٢٤١	١٠٣٦	٦٣٥٨	١٥٩٧	١٤٥٩٩	٢٦٣٣

المصدر: جمعت البيانات ثم حسبت من: الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء - الكتاب الاحصائى السنوى ١٩٩٩. جدول (١-١٥)

الفصل السادس

الهجرة السكانية

تعد الهجرة عنصراً رئيسياً من عناصر الدراسة السكانية لأنها فيما عدا الزيادة الطبيعية تعد المصدر الوحيد لتغير حجم السكان، وتسمى الهجرة أحياناً بالانتقال الأفقى، الذى يشير إلى تغيير محل الإقامة والإنتقال من مكان إلى مكان جغرافى معين إلى مكان آخر وذلك تمييزاً لها عن نوع آخر من الانتقال يسمى الانتقال الرأسى، ويقصد به الانتقال إلى أعلى أو إلى أسفل السلم الاجتماعى، أو من طبقة اجتماعية إلى أخرى، وقد يصاحب كلا من هذين النوعين من الانتقالات الأفقية والرأسية انتقالات عديدة، كالانتقال من مهنة إلى مهنة أخرى، أو من عمل إلى عمل. وكلا النوعين من الانتقالات وثيق الصلة بالآخر، إذ كثيراً ما ينتقل الأفراد أفقياً من مكان لآخر بدافع الرغبة فى الانتقال رأسياً، أى الرغبة فى تحسين أوضاعهم الاجتماعية على السلم الطبقى، غير أنه ليس كل انتقال أفقى يصاحبه انتقال رأسى بالضرورة، والعكس صحيح.

أسباب الهجرة:

تختلف أسباب الهجرة إختلافاً واضحاً وإن كانت معظم الدوافع متشابهة فى أغلب الأحيان سواء فى الهجرات طويلة المسافة أو قصيرتها، وتوجد عوامل كثيرة ومتشابكة فى بعض الأحيان تؤدى إلى الهجرة، ويمكن تصنيف هذه العوامل إلى عوامل دافعة وعوامل جاذبة، وفيما يلى نبذة عن كل منهما:

أولاً: العوامل الدافعة: وتوجد بالمناطق المهاجر منها ومن أمثلتها ما يلى:

١- الزيادة الكبيرة فى عدد السكان بمنطقة معينة قد تكون عاملاً دافعاً إلى الهجرة منها إلى مناطق أخرى، خاصة إذا لم يصاحب تلك الزيادة زيادة مناسبة فى الموارد الاقتصادية.

٢- استنفاد الموارد الطبيعية فى بعض المناطق قد تكون سبباً فى هجرة السكان إلى المناطق الأخرى، من أمثلة لك بعض المناطق التى يعيش السكان فيها على التعدين (استخراج الفحم أو الحديد أو غيرها من المعادن) أو استخراج البترول، إذ عندما تنضب المناجم أو الآبار يضطر السكان المعتمدون عليها فى عملهم ومعيشتهم إلى الهجرة إلى مناطق أخرى.

٣- الظروف الطبيعية غير المرضية كثيراً ما تدفع الأفراد والجماعات إلى الهجرة، من أمثلة ذلك الزلازل والبراكين التى أحياناً ما تهدد المواطنين فى بعض المناطق وتلحق بهم أضرار جسيمة فى الرواح والممتلكات، كذلك الفيضانات العالية التى أحياناً ما تجتاح مناطق شاسعة مسببة خسائر فادحة، والجفاف الشديد خصوصاً إذا ما تعاقب عاماً بعد عام فى مناطق يعتمد فيها السكان على الأمطار التى تنمو عليها الأعشاب والمحاصيل.

٤- عدم القدرة على التكيف اجتماعياً أو سياسياً أو عنصرياً فى بعض المناطق قد يكون سبباً من الأسباب التى تدفع بعض الأفراد إلى الهجرة إلى مناطق أخرى، فالخلافات حول العقائد الاجتماعية أو الدينية أو السياسية أو الاقتصادية أو غيرها كانت ولا تزال سبباً فى لجوء بعض الأفراد إلى الهجرة بسبب عدم قدرتهم على التكيف مع الآخرين فى المناطق التى يعيشون فيها، هذا إلى جانب إلى أن الحروب والثورات أو على الأقل احتمالاً نشوبها فى بعض المناطق هى من العوامل التى قد تدفع بعض الأفراد إلى الهجرة وترك أوطانهم إلى مناطق أكثر أمناً واستقراراً.

٥- على أن هناك دوافع أخرى شخصية متعددة منها الرغبة فى تحقيق مستوى اقتصادى مرتفع أو مركز اجتماعى واقتصادى افضل من الوضع القائم، أو الرغبة فى اكتساب خبرات جديدة والاستفادة من المعارف والخبرات المكتسبة أو فى تحقيق مستوى معيشة أعلى ومستوى أرفع من الرفاهية، أو الانتقال إلى حيث يوجد الأهل أو الأصدقاء، هذا إلى جانب بعض الدوافع كالخوف من القوانين أو

التشكك فيها، والخوف من الخزى أو العار بسبب فقدان المركز الاقتصادى أو الاجتماعى، أو كثرة الخلافات بين الأهل والأقارب أو الجيران.

ثانياً العوامل الجاذبة: وتوجد عادة بالمناطق المهاجر إليها ومن أمثلتها:

١- اكتشاف واستغلال موارد جديدة قد تكون عاملاً هاماً فى جذب بعض الأفراد والجماعات إلى حيث توجد تلك الموارد الجديدة المكتشفة أو المستغلة حديثاً.

٢- التوسع الصناعى فى بعض المناطق قد يجذب كثيراً من الأيدي العاملة من مناطق أخرى، وبخاصة الريفيين للاستفادة من الأجر المرتفعة نسبياً، والامتيازات التى تمنحها الصناعة.

٣- تمتع بعض المناطق بمميزات خاصة، من أمثلة ذلك المناخ المعتدل الذى يسود فى بعض المناطق مما يجعلها مناطق جذب لبعض الأفراد الذين يلائمهم هذا المناخ، كذلك وجود بعض الخدمات كالخدمات الصحية أو التعليمية أو الترويحية ببعض المناطق يجعلها أيضاً مناطق جذب لبعض السكان الراغبين فى المعيشة فى مناطق تتوافر فيها مثل الخدمات. وقد كان خلو المناطق الريفية من الكثير من الخدمات وتركيزها بالمناطق الحضرية ما جعل الأخيرة مناطق جذب قوى للكثير من السكان الريفيين.

وقد لاتكون عوامل الجذب عوامل حقيقية قدر ما تكون تصورات لا أساس لها من الواقع. فقد يندفع عدد كبير من السكان الريفيين إلى منطقة حضرية تحت ضغط الظروف الاقتصادية السيئة ومستوى المعيشة المنخفض فى الريف، اعتقاداً منهم بوجود فرص عمل وفيرة وأجور مرتفعة فى المدينة، غير أن الحقيقة قد تظهر أن تلك الفرص غير متوافرة أو على الأقل ليست كافية لمقابلة احتياجات الأعداد الكبيرة من المهاجرين فتكون النتيجة زيادة البطالة المقنعة والسافرة بالمناطق الحضرية، وخلق العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بها.

وبطبيعة الحال فإن عوامل الجذب (+) والطرد (-) فى كل من منطقتى الأصل والوصول تتباين لكل مهاجر أو من ينوى الهجرة. وهناك اختلافات جوهرية وهامة بين العوامل المرتبطة بمنطقة الأصل وتلك المرتبطة بمنطق الوصول، وفى ضوء العوامل المؤثرة فى أماكن الأصل والوصول للمهاجرين حاول "ايفريت لى" أن يقنن ظاهرة الهجرة، وصاغ هذه العلاقات بين عوامل الجذب والطرد فيما يمكن تسميته بقوانين الهجرة، وقد خلص بعدة حقائق أبرزها.

١- أن حجم الهجرة داخل منطقة معينة يتباين مع درجات الاختلافات البيئية التى تتميز بها هذه المنطقة.

٢- أن حجم الهجرة يختلف باختلاف السكان وتنوعهم.

٣- أن حجم الهجرة يرتبط بالقدرة على تخطى العوائق المختلفة فيما بين منطقتى الأصل والوصول.

٤- أن الهجرة تتأثر بالتقلبات الاقتصادية إلى حد كبير.

٥- أنه إذا لم تفرض ضوابط صارمة للحد من الهجرة فإن حجمها ومعدلها يميلان للتزايد بمضى الزمن.

ومن البديهى أن حجم الهجرة ومعدلها يتأثران بمستوى لتقدم فى القطر أو المنطقة تأثراً جذرياً.

أنواع الهجرة

توجد تصنيفات كثيرة للهجرة منها تصنيفها إلى هجرة داخلية وخارجية

أولاً: الهجرة الداخلية:

تعد الهجرة الداخلية من المظاهر الهامة لحركة السكان داخل الأقاليم أو القطر، وتختلف عوامل الجذب والطرد للمهاجرين من بيئة لأخرى بطريقة تجعل تيارات الهجرة تأخذ إتجاها مختلفة على رقعة الدولة، وينظر إلى العوامل الاقتصادية

على أنها العناصر المؤثرة فى الهجرة جذباً وطرداً. ويقصد بالهجرة الداخلية إنتقال الأفراد من مكان إلى مكان آخر داخل الدولة بقصد الإقامة الدائمة فى المكان الجديد.

وتعد الهجرة من الريف إلى الحضر Rural- Urban Migration أهم مظاهر الهجرة الداخلية وخاصة فى الدول التى أخذت بأسباب التنمية الصناعية حديثاً أثر فى تقدمها الاقتصادى وارتفاع دخول أفرادها فى القطاعات المرتبطة بالصناعة، ودفع بأعداد كبيرة من السكان الريفيين إلى الإتجاه نحو المراكز الحضرية والتى غالباً ما تكون مراكز رئيسية للصناعة.

وتكون الهجرة عاملاً هاماً من عوامل المراكز الحضرية وتختلف درجة أسبابها فى هذا النمو باختلاف العوامل الكامنة فى تلك المراكز، وتتفق معظم دول العالم النامى فى تلك الظاهرة والتى تجلت فى تدفق أعداد كبيرة من سكان الريف إلى المدن.

مقاييس الهجرة الداخلية:

إن المقام المستخدم فى كل المقاييس هو إجمالى عدد السكان فى كل من المنطقتين كما تبين الصيغ التالية لحساب هذه المقاييس:

١- معدل الهجرة الوافدة = $\frac{\text{عدد المهاجرين إلى المنطقة}}{\text{جملة عدد سكان المنطقة}} \times ١٠٠$

٢- معدل الهجرة المغادرة = $\frac{\text{عدد المهاجرين من المنطقة}}{\text{جملة عدد سكان المنطقة}} \times ١٠٠$

٣- معدل الهجرة الصافية =

$$\frac{\text{عدد المهاجرين إلى المنطقة} - \text{عدد المهاجرين من المنطقة}}{\text{جملة عدد سكان المنطقة}} \times ١٠٠$$

٤- معدل الهجرة الكلية =

$$\frac{\text{عدد المهاجرين إلى المنطقة + عدد المهاجرين من المنطقة}}{\text{جملة عدد سكان المنطقة}} \times ١٠٠$$

وبالإضافة إلى هذه المعدلات العامة فهناك معدلات نوعية ترتبط بأعمار المهاجرين ونوعهم ولذا تعرف بالمعدلات العمرية النوعية.

طرق تقدير حجم الهجرة الداخلية:

هناك ثلاث طرق يمكن بواسطتها تقدير حجم الهجرة الدالية واتجاهاتها، وتعتمد هذه الطرق على مصدرين رئيسيين هما التعداد والإحصاءات الحيوية. والطرق الثلاث لتقدير حجم الهجرة الداخلية هى الطرق الآتية:

١- طريقة محل الميلاد:

تستخدم جداول محال الميلاد مقارنة بمكان الإقامة وقت التعداد، وباستخدام هذه الطريقة فى عدة تعدادات متعاقبة فإنه يمكن معرفة تطور حركة الهجرة الداخلية فى البلاد.

على أنه ينبغى الإشارة إلى أن طريقة محال الميلاد فى دراسة الهجرة الداخلية لاتخلو من عيوب، ذلك لأنه ليس من المتوقع أن يحظى سؤال بسيط عن محل الميلاد بإجابات دقيقة من كل السكان. كذلك فقد تؤدى التغيرات المستمرة فى الحدود الإدارية إلى عدم الدقة فى بيانات محال الميلاد.

٢- طريقة معادلة الموازنة:

يعتمد تحديد دور الهجرة فى نمو السكان على طريقة تعرف بمعادلة الموازنة، وهى تعتمد على الإحصاءات الحيوية من ناحية وبيانات التعداد العام للسكان من ناحية أخرى، حيث يكون من السهل تقدير الزيادة الطبيعية بين التعدادين

ومقارنتها بالزيادة الكلية فى الفترة التعدادية، ويمثل الفرق بينهما الهجرة الصافية سواء كانت هجرة وافدة أو مغادرة فى المكان الواحد.

٣- طريقة نسبة البقاء Surival Ratio Method

بالإضافة إلى الطريقتين السابقتين هناك طريقة ثالثة لدراسة خصائص المهاجرين مثل العمر والنوع وتعتمد على ما يعرف بنسب البقاء (Surival Ratio) أى احتمال البقاء لفوج من السكان فى فئة عمرية فى تعداد معين (ت) إلى التعداد التالى (ت + ن)، والبيانات المطلوبة حينئذ هى عدد الأشخاص حسب العمر والنوع فى تعدادين متتالين ثم مجموعة من نسب البقاء التعدادية فى كل فئة عمرية والتى يمكن تطبيقها على لسكان فى التعداد الأول حتى يمكن اشتقاق تقدير لعدد السكان المتوقع أن يظل علىُ قيد الحياة فى التعداد التالى.

تيارات الهجرة الداخلية

الهجرة الداخلية لها إتجاهات مختلفة تتبلور عادة فيما يسمى بتيارات الهجرة، وليست هناك دولة فى العالم إلا وشهدت حركة سكانية داخلية على رقعتها وان كان ذلك بدرجات متفاوتة، وتتميز بعض الشعوب بحركتها القوية وعدم الاستقرار الدائم مثل الشعوب السلافية.

وتعد الولايات المتحدة من أكبر دول العالم فى حركة السكان الداخلية ويقدر أن خمس سكانها على الأقل ينتقلون بين ظهرانيها كل عام.

وترجع زيادة حركة الهجرة الداخلية فى الولايات المتحدة إلى ضخامة الدولة واتساعها وتباين أقاليمها الطبيعية والاقتصادية. وعموماً كل تيار من تيارات الهجرة يختلف عن الآخر فى دوافعه وقوته (أى فى عدد المهاجرين) وفى خواص سكانه،

وفى أثاره الاجتماعية والاقتصادية على المنطقة المهاجر منها وإليها. وفيما يلى عرض لبعض تيارات الهجرة الدالية فى مصر:

تيارات الهجرة الداخلية من الريف إلى الحضر:

الهجرة من الريف إلى لحضر أو ما يطلق عليه أحياناً من القرية إلى المدينة ليست أمراً حديثاً وإنما تحدث منذ زمن بعيد عندما أخذ الإنسان بنظام التخصص وتقسيم العمل.

واتجه بعض السكان إلى العمل بمهنة الزراعة وإلى الإقامة بالقرى قريبين من الأراضى الزراعية، واتجه البعض الآخر إلى العمل بالمهن غير الزراعية من صناعة وتجارة وخدمات وغيرها إلى الإقامة فى المدن. وكلما زاد عدد سكان القرى وزاد ضغطهم على الموارد الأرضية الراعية المحدودة، وكلما قل نصيب الفرد من الدخل وانخفض مستوى المعيشة، وكلما ظهرت لدى بعض السكان الزراعيين مهارات وقدرات فى أعمال غير زراعية، كلما ترك بعض السكان الريفيين قراهم صوب المدن سواء أكان لديهم معرفة أو خبرة بما يوجد به من مهن وأعمال أو ليس لديهم. ولم ينقطع فى أى وقت من الأوقات تيار الهجرة من القرى إلى المدن، وإن كان فى بعض الأوقات يقوى قليلاً مع سوء الحال فى الريف ووجود مغريات فى الحضر أو يضعف قليلاً مع تحسن الحياة فى الريف وصعوبتها فى الحضر، وهناك العديد من القوى الدافعة والجاذبة كما سبق القول تؤثر فى هذا الشأن.

حجم الهجرة من الريف إلى الحضر وخواص المهاجرين:

أشارت نتائج بعض الدراسات إلى أن الهجرة الريفية الحضرية قد أسهمت بنحو ٣١٪ من النمو الحضرى فى مصر خلال الفترة ٤٧ - ١٩٦٠، وحوالى ٢٧٪ خلال الفترة ٦٠ - ١٩٧٦، و ١٧,٥٪ خلال الفترة ٦٦ - ١٩٧٦. وقد بلغ عدد

المهاجرين من الريف إلى الحضر في ١٩٧٦ حوالى مليـون مهـاجراً. وبلـغ عددهـم في ١٩٦٦ حوالـى ١,٣٩ مليونـاً، نـزح حوالـى نصفهـم إلـى المحافظـات الحضريـة (القاهرة والاسكندرية وبورسعيد والسويس) و ٣٠٪ إلى محافظـات الوجـه البحـرى، وحوالى ٢٠٪ إلى محافظات الوجه القبلى. وقد تبين أن ٥٣,٣٪ منهـم مـن الذكـور، ٤٦,٧٪ مـن الإنـاث، وغالبيـة المهـاجرين فـى الفئـات العمريــة المنتجـة، وحوالــى ٥٦,٣٪ أميون، ٢٦,٧٪ يقرأون ويكتبون، أما الباقون فحاصلون على شـهادات أقـل من المتوسطة ومتوسطة فى غالبيتهم.

وعموماً فإن المستوى التعليمى للمهاجرين الريفيين كان أعلى مـن المسـتوى التعليمى للريفيين بصفة عامـة، معنـى ذلك إن المتعلميـن أقـل رغبـة فـى البقـاء فـى الريف من غير المتعلمين.

أثار الهجرة من الريف إلى الحضر:

من المعتقد أن الهجرة من الريف إلى الحضر تحدث لـلريف خسـارة بشـرية ومادية. تتمثل فى فقدانه لشطر من شبابه. ربما فـى بعـض المجتمعـات ذات الكثافـة السكانية العالية بالريف كما هو الحال فى مصر قد لايكون هناك إحساس بمدى وأثر أو قيمة هذا الفاقد إلا أنه حقيقـة واقعـة تحـس بهـا أكـثر بعـض المجتمعـات المتقدمـة حيث يرون أن الشباب الذى ينعقد عليـه الأمـل كرجـال المسـتقبل وكقـادة للمنظمـات والمؤسسات الريفية يترك الريف ويتجه إلـى الحضـر. والمشـكلة ليسـت فـى نظرهـم مشكلة نقص فى الأيدى العاملة التى سرعان ما تحل محلها الآلات الميكانيكيـة بقـدر ما هى فقدان أعداد من الشباب المتميز.

وفى مصر لايمثل السكان المهاجرون مـن الريـف إلـى لحضـر سـوى نسـبة صغيرة من جملـة سـكان الريـف إلـى حـد أن نزوحهـم لايصاحبـه شـعور محسـوس

بانخفاض الضغط السكانى بما يعكس ارتياحاً أو إرتفاعاً ملموساً فى مستوى معيشة بقية السكان فى المناطق المهاجر منها، ذلك لأن الزيادة الطبيعية الناتجة عن زيادة المواليد عن الوفيات فى ظل خصوبة السكان العالية تجعل الزيادة فى عدد السكان بالمناطق الريفية فى اطراد مستمر بما يعوض أى نقص بسبب الهجرة.

ولقد كانت الهجرة الريفية إلى المناطق الحضرية ـ خاصة فى الدول النامية حديثة التصنيع ـ سبباً فى خلق العديد من المشاكل بسبب نزوح أعداد كبيرة من المهاجرين إليها أكثر مما تستطيع أن تستوعبه مختلف الأنشطة الاقتصادية بها، فلا الصناعة ولا التجارة ولا مختلف الخدمات أصبحت بقادرة على أن تشغل الأعداد الكبيرة من المهاجرين فضلاً عن أن غالبيتهم لاتتوفر لديهم المعارف ولا الخبرات والكفاءات والمران اللازم للقيام بأنواع لأعمال فى تلك المناطق، وكانت النتيجة تكدس المناطق الحضرية بأعداد كبيرة من السكان، وانتشار البطالة المقنعة والسافرة، وظهور مشاكل الإسكان والمواصلات والصحة والتعليم والغذاء والجرائم والتشرد والبغاء وغيرها مما تنوء به بعض المدن. وقد كان لسهولة وسائل الاتصال والانتقال أثره فى زيادة عدد المهاجرين صوب المناطق الحضرية. على أن المناطق الحضرية فى بعض الدول استفادت من هجرة الشباب الريفى إليها والذى سد نقصاً فى الأيدى العاملة، على الأقل غير الفنية وغير الماهرة، فقد قبل المهاجرون العمل بأجور منخفضة بسبب قلة كفاءتهم أو كثرة عددهم بالنسبة للمتاح من فرص العمل، وبسبب عدم قدرتهم على التنظيم لغرض المساومة على أجور مرتفعة على الأقل فى البداية خصوصاً فى ظل غياب التشريعات العمالية أو عدم تطبيقها بدقة.

والنازح من القرية إلى المدينة يعانى من مشاكل قوية حتى يتكيف اجتماعياً مع الحياة المدنية، بسبب الاختلاف بين طبيعة الحياة الريفية التى تسودها نظم العلاقات الأولية، وطبيعة الحياة لحضرية حيث تسود نظم العلاقات الثانوية. فالمهاجر من مجتمع قروى منعزل ومتجانس، تسوده العلاقات الشخصية، والقليل

من التخصصات الدقيقة والآلات البسيطة، والاعتماد الضعيف على الابداع الفردى، وحيث العمل الشاق، يجد نفسه فجأة فى بيئة مغايرة تماماً لما ألفه، فيقع فى حيرة شديدة لما يسود من حرية شخصية بين الجماعات الثانوية، وغالباً ما يتعرض الشباب الريفى لنوع من الارتباك لأن وسائل لضبط الاجتماعى القديمة لم تعد قائمة، ويبدو العالم الحضرى عالماً بلا أصدقاء، يتزاحم فيه الأفراد ويتنافسون ويتصارعون فى سبيل الحصول على مكاسب شخصية.

ويجد كثير من المهاجرين من القرية إلى المدينة أن عليهم تغيير مهنهم بعد الهجرة وهذا شئ طبيعى، الأمر الذى يتطلب إعداد وتدريب وتكييف مهنى للمهاجرين حتى يكتسبوا المهارات والقدرات اللازمة للعمل بالمهن الجديدة والتى تختلف فى متطلباتها من حيث الخبرة والكفاءة لا عن مهنة الزراعة فحسب بل أيضاً عن المهن غير الزراعية المماثلة بالمناطق الريفية، فالصنع والتجار والباعة والحرفيين بل والمدرسين والأطباء الريفيون لاشك أقل خبرة ومهارة من نظائرهم بالمناطق الحضرية. إنهم يعملون تحت ظروف بيئية واجتماعية واقتصادية وتكنولوجية أقل تقدماً من مثيلاتها فى الحضر.

والمهاجرون إلى المدن لمصرية ربما يتشابهون بعض الشئ مع المهاجرين من الريف إلى الحضر فى الدول النامية فى كونهم عادة فقراء رقيقى الحال بقليل جداً من رؤوس الأموال إن وجد شئ من ذلك لديهم، ومن ثم لايمكنهم البدء فى مشروعات أو أنشطة اقتصادية يعتد بها والنتيجة أنهم يتجهون إلى العمل كعمال أجواء فى المصانع حيث يقومون بالأعمال التى لاتتطلب بالضرورة درجة عالية من الخبرة والمهارة على الأقل فى البداية، وكباعة لسلع يجوبون بها الشوارع أو يجلسون بها على جوانب الطرقات أو كعمال حرفيين فى حرف مختلفة، أو بعض أنواع مختلفة من الخدمات.

والهجرة من الريف إلى الحضر لاتستلزم من المهجر أن يتحمل فقط الصدمة الثقافية بالمدينة ولا أن يعد نفسه مهنياً ويكيف نفسه اجتماعياً لثقافتها وإنما أيضاً لظروفها وأوضاعها الاقتصادية، فالمهاجرون الريفيون القادمون إلى المدينة عادة ما يكونون ملاكاً مساكنهم فى المناطق النازحين منها. حقيقة أن تلك المساكن عادة ما يكون مستواها منخفضاً من حيث البناء والتسهيلات السكنية من مياه شرب ومجارى وإنارة وأثاث وغير ذلك إلا أنهم عادة لايدفعون نظير الإقامة بها إيجاراً أو مصروفات تذكر، وأول ما يصادف المهاجر إلى المدينة من مشاكل كبيرة هو العثور على مسكن بإيجار يستطيع أن يديه فى ظل أجره أو دخله الضئيل، على الأقل فى البداية. هذا إذا وفق فى العثور على مكان للإقامة، وعادة ما يكون ذلك بعد أن يحل ضيفاً على أقاربه ومعارفه فترات تطول أو تقصر حسب علاقاته وصلاته القرابية بهم. وإلى جانب صعوبة الحصول على مسكن واستنفاد جزء كبير من الدخل فيه ـ وهو أمر لم يكن يتوقع مدى فداحته ـ فإنه يواجه أيضاً بمصروفات أخرى عديدة لم يكن يحسب لها حساب وفى مقدمتها نفقات المواصلات والملبس وغيرها.

وكثيراً ما تضطر أسر المهاجرين الريفيين تحت وطأة متطلبات المعيشة أن تقيم كل فى حجرة فى مناطق نائية فى أطراف المدن فى بيوت غير صحية يقل مستواها من كافة النواحى أحياناً عن تلك التى نزحوا منها، كما وقد تضطرهم سوء حالتهم الاقتصادية، وعدم إمكانهم مواجهة مستلزمات المعيشة ذات التكاليف المرتفعة فى المدينة إلى الاستدانة والعجز عن دفع الديون ثم الوقوع فى مشاكل مع الدائنين، ويصبحون معتمدين على غيرهم لكى يعولهم. وهناك من يضطر إلى امتهان مهن لاتضيف شيئاً إلى الإنتاج القومى كالتسول أو أخرى وضيعة، ومنهم من يقعوا صرعى لتوتر أعصابهم ويكون مصيرهم الإصابة بمختلف الأمراض العصبية، ومنهم من ينحرف فيلجأ إلى البغاء والسرقة والإجرام وغيرها من الأمراض الاجتماعية التى تتصف بها المدن الكبيرة.

وربمـا بسـبب توقـع المشـاكل الاقتصاديـة بالمدينـة كثـيراً مـا يلجـأ بعـض المهاجرين، خاصة أولئك النازحين من الوجه القبلى إلى عدم اصطحابهم لأسرهم معهم على الأقل فى بداية الهجرة إلى أن يستقر بهم الحال فى عمل ومسكن، ويصبح فى مقدورهم إعالة أسرهم فى البيئة الجديدة ذات التكليف المرتفعة عن نظيرتهـا فـى القرى. إن تصـورات ومعتقدات سكان الريف عن مدى إرتفاع دخـول السـكان بـالحضر أحيانـاً مـا تكـون خياليـة أو مبالغـاً فيهـا، كمـا وأن توقعـاتهم عـن الأعبـاء المعيشية قد تكون أيضاً خاطئة، بسبب ذلك يواجهون بصدمة اقتصادية قد تصل فى شدتها إلى حد حمل بع المهاجرين إلى الإرتداد والعودة إلى قراهـم بعد قضـاء فترة مـن الوقت بالمدينـة، وبعد أن يكونـوا قد عجـزوا عـن تكييـف أنفسـهم لظروفهـا الاقتصادية وأنفقوا ما قد يكون لديهم من بعض المدخرات. والعودة إلى الريـف فـى ظل هذه الخبرات العيئة تحمل ذكريات مريرة، تزيد أحياناً من كراهية سكان الريـف للحضـر. علـى أن المهـاجر الـذى يمكنـه تحمـل الصدمـات السـابقة، والـذى يسـتطيع التكيف اجتماعياً ومهنياً لحياة المدينة يصبح فى مسـتوى معيشـى أعلـى مـن نظرائـه الذين بقوا فى الريف.

الهجرة الداخلية نحو المناطق الزراعية (الهجرة من الحضر إلى الريف)

قد يبدو طبيعياً أن يهاجر الأفراد مـن الريـف إلـى الحضـر بسـبب مـا يوجد بالمناطق الحضرية مـن مغريـات وقـوى جاذبـة عديـدة، وكنتيجـة لسـوء الحالـة فـى المناطق الريفية، أما أن ينتقلوا من الحضر إلى الريف فهذا قد يبدو غريباً وإن كـان دائم الحدوث. الهجرة من الحضر إلى الريف لها أسباب عديدة وتختلف تلك الأسباب من مجتمع لآخر وفى نفس المجتمع الواحـد مـن وقـت لآخـر، علـى أن الحالـة التـى يكون عليها كل من الريف والحضر من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانيـة لها دخل كبير فى هذا الشأن، فقد يهـاجر النـاس مـن الحضـر إلـى لريـف رغبـة فـى المعيشة فى مكان هادئ بعيداً عن صخب المدينة وضوضائها وزحامها الذى يجعلهـا

أشبه بالسجن الضيق الذى يصعب التحرك فيه، كانوا قد يهاجرون إلى الريف بقصد الإقامة بمسكن فسيح بإيجار معتدل وفى بيئة ذات جو نقى بعيداً عن الازدحام المسكنى وخصوصاً فى ظل ندرة المساكن ببعض المدن. وبعض الأفراد خصوصاً أولئك الذين من أصل ريفى قد ينتقلون إلى الريف لأنهم فشلوا فى أن يحققوا بالمدينة ما كانوا يصبون إلى تحقيقه من دخول عالية ومستويات معيشية مرتفعة وذلك إما بسبب صعوبات اقتصادية أو كساد أو كوارث أو غير ذلك من الأسباب.

وفى زمن الحرب أو التهديد بها يتجه بعض الناس عادة إلى الريف باعتباره مكاناً آمناً للإقامة، كما أنه فى زمن الأزمات الاقتصادية والبطالة يعتبر المكان الذى يمكن فيه انتزاع ضروريات الحياة، حتى ولو لم يكن ذلك فى صورة دخول فورية أو منتظمة وأن من الأيسر الحصول على الاستقرار والطمأنينة والراحة النفسية بعيداً عن الصراع والتنافس فى المدينة رغم ما فيها من ترف ومريحات. على أنه توجد طائفة من الناس الذين يفضلون بعد انتهاء مدة خدمتهم بالمدينة قضاء الفترة الباقية من حياتهم فى الريف حيث يستطيعون امتلاك قطعة من الأرض الزراعية يقيمون عليها مشروعاً زراعياً كطريقة للحصول على دخل إضافى أو شغل لوقت الفراغ إن لم يكن بقصد الربح والاستثمار الاقتصادى.

آثار الهجرة من الحضر إلى الريف:

لايعتقد أن تيار الهجرة من الحضر إلى الريف يحمل فى طياته آثاراً ذات بال على المناطق الحضرية المهاجر منها، ربما لأسباب كثيرة منها ضعف هذا التيار ممثلاً فى العدد القليل من المهاجرين وانخفاض مستواهم بصفة عامة عن نظائرهم من السكان الحضريين المتبقيين بالمناطق المهاجر إليها لا يتوافر لهم سبل لعيش، والذين أصبحوا يعرقلون تقدم المناطق الحضرية ويقفون حجر عثرة فى سبيل تحسينها بسبب ما يصاحب وجودهم من مشاكل عديدة، الأمر الذى جعل بعض

المصلحين يراودهم من آن لآخر فكرة إعادة ترحيل المهاجرين الحضريين الذين من أصل ريفى الذين لاعمل لهم إلى بلدانهم الأصلية.

وفى ظل ضعف تيار الهجرة من الحضر إلى الريف وفى ظل خصائص المهاجرين لايبدو أن الريف يستفيد كثيرا من المهاجرين إليه من المناطق الحضرية سواء لقلة عددهم أو لعدم استقرارهم أو لعدم رغبتهم للعمل أو البقاء فيه. حقيقة أن الصفات الاجتماعية والاقتصادية للمهاجرين إليه من المدينة قد تكون أعلى نسبياً من صفات سكانه غير أن اتجاهاتهم غير المرغوبة نحو الريف تجعل منهم أفراداً غير ذى فائدة كبيرة بالنسبة لإحداث تغيرات مرغوبة فى الريف حتى وإن كانوا مقيمين به لتعلقهم بالمدينة وتطلعهم إلى اليوم الذين ينتقلون فيه إليها، ومن ثم لاتعنيهم أحوال الريف وشئونه فى قليل أو كثير رغم أن هؤلاء الأفراد هم أساساً المنوط بهم النهوض بالريف والعمل على خدمته من أطباء ومرشدين زراعيين ورؤساء مجالس قروية ومدرسين وغيرهم. حقيقة أن هؤلاء وامثالهم ليسوا بالمهاجرين حقاً قدر ما هم عاملين بالريف فقط لفترة من الزمن وليس لديهم النية فى الإقامة الدائمة به، غير أنه على أى حال من المفروض أن عملهم وإقامتهم ولو لفترة بالمناطق لريفية يكون فيها فائدة للريف وسكانه، خاصة وأن وجودهم فيه محسوب عليه عدداً وتكلفة، على أن هذا الوضع يختلف كثيراً عن مثيله فى بعض الدول الغربية المتقدمة والتى استفاد ريفها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً من نزوح أعداد من السكان الحضريين إليه.

ومن أهم المشاكل التى يعانى منها الهاجر من الحضر إلى الريف عدا مشاكل التكيف المهنى هى مشاكل التكيف الاجتماعى، فالقيم والتقاليد والعادات فى الحضر ربما تختلف كثيراً عن مثيلتها فى الريف، فالمجتمع الريفى المحلى بما فيه من ضبط اجتماعى عالى نتيجة صغر حجمه يكون بمثابة الجو لخانق والقوى الضاغطة بشدة والمنظمة بقسوة لسلوك المهاجرين الحضريين الذين يظلون لفترة

من الوقت قد تطول تحت رقابة السكان الريفيين المحليين يتابعون كل تصرفاتهم وسلوكهم بالنقد الشديد أحياناً إذا لم تفق مع لتصرفات والسلوك السائد.

وتتباين قدرة المهاجر الحضرى على التكيف للأوضاع فى البيئة الريفية حسب خلفيته الاجتماعية، فالذين من أصل حضرى يواجهون بصعوبات أكثر بكثير من الذين من أصل ريفى بسبب القيم والتقاليد الحضرية التى تأصلت فى نفوسهم طوال حياتهم فى المناطق الحضرية، كالعادات فى العمل وتدبير شئون المنزل واقتصادياته والأوضاع الاجتماعية وطرق ووسائل الترويح. كل هذه وغيرها تختلف وتتناقض مع متطلبات الحياة بالمجتمع الريفى، أما الصعوبات الاقتصادية فتتوقف على الوضع الاقتصادى للمهاجر نفسه فإن كان لديه لدخل الكافى استطاع إلى حد كبير أن يواجه المشاكل الاقتصادية فى الريف، وإلا فإن المشكلة تصبح أكثر تعقيداً. وقد يعجب البعض من القول بأن أولئك الذين من أصل ريفى يجدون هم الآخرون صعوبة فى التكيف للحياة الريفية بعد أن يكونوا قد أمضوا فترة من لاوقت بالمناطق الحضرية، غير أن تلك حقيقة واقعة ترجع إلى أن ما أعتنقوه من قيم وتقاليد وعادات وما تعودوا عليه من طرق فى السلوك واتجاهات أصبح مختلفاً عن مثيله بالمناطق الريفية الأصلية التى نشأوا فيها، وهم بذلك يجدون أنفسهم فى حيرة بين جديد يصعب التخلى عنه وبين قديم يصعب الرجوع إليه. على أن بعضاً من المهاجرين من الحضر إلى الريف سواء كانوا من أصل حضرى أو ريفى كثيراً ما يظلون ولفترة قد تطول يرثون فقدان الحرية الشخصية ومستوى المعيشة والخدمات وغيرها من المميزات لتى كانوا يعيشون فى ظلها بالمناطق الحضرية وقد يفكر البعض منهم فى العودة إلى الحضر ثانية.

بمقارنة حجم تيار الهجرة من الريف إلى الحضر بتيار الهجرة من الحضر إلى الريف فى كل من ١٩٦٦ و ١٩٧٦ نجد أن الأول كان أكبر كثيراً من الثانى. وتعزى الزيادة المضطردة فى نسبة السكان الحضريين، والنقص

المضطرد فى نسبة السكان الريفيين فى التعدادات المختلفة حتى ١٩٧٦ إلى عامل الهجرة الحضرية فى المحل الأول، خاصة فى ظل ما هو معروف أن معدل الخصوبة فى الريف أعلى منه فى الحضر، بمعنى أنه لايمكن أن يعزى الزيادة فى نسبة السكان الحضريين إلى إرتفاع خصوبتهم.

على أنه قد لوحظ أن نسبة كل من السكان لريفيين والحضريين لم يحدث لها تغيير محسوس فى تعداد ١٩٨٦ مقارنة بتعداد ١٩٧٦. ولا يعنى ذلك أن الهجرة قد توقفت بين الريف والحضر، ولكن قد يعنى ذلك أن تيارى الهجرة من الريف إلى الحضر ومن الحضر إلى الريف قد تقاربا فى الحجم، أو أن نسبة أعلى من الحضريين قد هاجروا هجرة هجرة خارجية خلال تلك الفترة مما قلل من تأثير هجرة الريفيين إلى الحضر على نسبة كل من السكان الريفيين والحضريين. على أى حال فإنه فى ظل عدم وجود دراسات حديثة عن هذا الموضوع لايمكن الجزم بصحة أى من هذه التفسيرات.

الهجرة من الحضر إلى الحضر

يقصد بهذا النوع من الهجرة انتقال الأفراد من منطقة حضرية إلى منطقة حضرية أخرى. ولقد كان من المعتقد إلى عهد قريب أن هذا التيار ضعيف للغاية غير أن نتائج تعداد السكان بالعينة فى ١٩٦٦ وما استتبعها من بحوث أوضحت أن هذا التيار هو أقوى تيارات الهجرة فى مصر مقاساً بعدد ما يتضمنه من مهاجرين، يليه قوة من ناحية عدد المهاجرين تيار الهجرة من الريف إلى الحضر، فقد بلغ عدد المهاجرين من الحضر إلى الحضر ١٦٩٨٦١١ مهاجراً بينما بلغ المهاجرين ن الريف إلى الحضر ١٣٩٧٤٠٦ مهاجراً فى ١٩٦٦. وفى ١٩٧٦ بلغ عدد المهاجرين من الحضر إلى الريف حوالى ٢,٠١٩ مليون مهاجراً، مقابل حوالى مليون مهاجراً من الريف إلى لحضر غير أن هذا التيار لايحظى بالأهمية التى ينالها

تيار الهجرة من الريف إلى الحضر، لأنه من ناحية لايؤثر على حجم النمو السكانى فى الحضر ككل، ولأن المهاجرين من الحضر إلى الحضر عادة ما يكونون أكثر قدرة على التكيف مع الحياة الحضرية فى الأماكن المهاجر إليها.

وهناك الكثير من الأسباب التى تدفع الناس إلى الهجرة من الريف إلى الحضر أو التى تجذبهم إلى الحضر بحيث تبدو وكأن هجرتهم أمراً منطقياً للغاية، عكس ما يبدو عند محاولة التفكير فى أسباب الهجرة من منطقة حضرية إلى منطقة حضرية أخرى. الحقيقة أن أسباب الطرد والجذب موجودة بالنسبة لكل حركة هجرة أياً كان اتجاهها غير أنه فى بعض الحالات قد لاتكون عوامل الطرد كثيرة ولا قوية من حيث تأثيرها كعوامل الجذب أو العكس. والحضر فى مصر كما سبق القول يتكون من المدن وهى بلدان متفاوتة تفاوتاً كبيراً من حيث ظروفها، وبالأخص فرص العمل والترقى ومستوى الأجور وما تتمتع به من العديد من الخدمات التعليمية والصحية وغيرها. ومن ثم كان بديهياً أن تكون بعض هذه البلدان أكثر جذباً للسكان الحضريين من غيرهم بحكم ما لها من ميزة نسبية.

الهجرة من الريف إلى الريف

يعتبر هذا التيار أضعف تيارات الهجرة الأربعة، ففى مصر بلغ عدد المهاجرين من المناطق الريفية إلى مناطق ريفية أخرى ٩٨٥٧٣ مهاجراً فى ١٩٦٦ ذلك لأنه لا توجد - بالأخص فى الوقت الحاضر بعد أن تم استصلاح الكثير من الأراضى البور فى الدلتا والوادى - من فرص العمل ولا المميزات الاقتصادية والاجتماعية فى معظم المناطق الريفية ما لايوجد فى المناطق الريفية الأخرى، فأجور العمال الزراعيين تكاد تكون متقاربة فى معظم المناطق وفرص تملك أو استئجار أراضى زراعية حالياً لم تعد أيضاً ميسورة بشكل كبير فى منطقة دون أخرى بما يغرى بالهجرة، وإذا كانت هناك فروق أو مميزات اقتصادية فإنها لاتكون

بالدرجة من الإغراء ما يجعل زراعا من محافظة معينة يهاجرون للعمل بالزراعة فى ريف محافظة أخرى، وإن حدث ذلك فإن أعداد هؤلاء المهاجرين تكون عادة قليلة للغاية باستثناء أولئك الذين يهاجرون بغرض تملك أو استئجار بعض الأراضى حديثة الاستصلاح تحت إغراء التيسيرات والتسهيلات التى تقدمها الدولة من أراضى ومسكن وحيوانات وقروض وغير ذلك. ولما كان معظم المهاجرين من المناطق الريفية إلى مناطق ريفية أخرى من الزراع أو أبنائهم، ولما كان عددهم قليلاً وصفاتهم وخواصهم الاجتماعية والتعليمية لاتختلف كثيراً عن نظائرهم من الريفيين فإن المناطق الريفية المهاجر منها وإليها - على الأقل فى بلد كمصر – لا تتأثر بمثل هذه الهجرة إلا فى حالات قليلة.

ثانياً: الهجرة الخارجية

يقصد بالهجرة الخارجية انتقال السكان من دولة إلى دولة أخرى بهدف تغيير الإقامة بصفة مؤقته أو دائمة. على أنه من المتعذر وضع حدود فاصلة بين الهجرة الخارجية الدائمة والهجرة الخارجية المؤقتة، غير أن المهاجر بصفة دائمة عادة مالا تكون لديه النية للعودة إلى موطنه الأصلى مرة أخرى.

ومعظم المهاجرين المصريين هجرة خارجية دائمة عادة ما يتوجهون إلى الدول الصناعية المتقدمة وخاصة الولايات المتحدة وكندا واستراليا وبعض الدول الأوربية حيث توجد بهذه الدول فرص العمل والتوظيف والانتاج والإرتقاء المهنى والعلمى، بالإضافة إلى الدخل المرتفع لأصحاب الكفايات العلمية. ولذا فإن أغلب المهاجرين إلى هذه البلدان هم عادة من أصحاب الكفاءات العلمية. أما غالبية المهاجرين المصريين إلى الخارج هجرة مؤقتة فأنهم يتمثلون فى المصريين الذين يذهبون لعمل فترات محددة، غالباً فى الدول العربية البترولية. ولا يعرف على وجه التحديد عدد المهاجرين المصريين إلى الخارج، غير أن عدد المصريين بالخارج فى تعداد ١٩٨٦ يشير إلى أنهم يبلغون أكثر من ٢ مليون نسمة.

ولم يكن لهجرة المصريين للخارج أى وزن منذ بداية القرن الحالى وحتى بداية الستينيات، ولكن خلال الستينيات والسبعينيات تزايدت أعداد المصريين بالخارج بمعدلات كبيرة بسبب الزيادة فى عوائد البترول فى عدد من الدول العربية، وحاجة هذه الدول إلى العمالة المجلوبة فى تلك الدول بدرجة كافية لأسباب ديموجرافية ترتبط بانخفاض عدد السكان، وأسباب اجتماعية وثقافية كتحريم عمل المرأة فى كثير من المجالات. وكانت مصر هى البلد العربى الذى يزخر بأعلى عدد من الكفاءات التى يمكنها تلبية رغبات هذه البلاد.

الآثار المترتبة على الهجرة الخارجية

اهتمت كثير من الدراسات بتحديد الآثار الإيجابية والسلبية لهجرة المصريين للخارج، وبخاصة هجرة العمالة المصرية إلى الدول العربية، وأوضحت نتائج بعض هذه الدراسات أن أهم الآثار الإيجابية لهذه الهجرة تتلخص فى التأكيد على حرية الشخص وحقه فى العمل خارج وطنه وعودته إلى وطنه متى شاء، والتخفيف من الأعباء الناجمة من لتضخم السكانى، وتدعيم العلاقات بين مصر والدول الأخرى، وزيادة موارد الدولة من العملة الصعبة.

أما الآثار السلبية فيتمثل أهمها فى نقص العمالة الفنية المدربة مما أدى إلى إرتفاع أجورها، والتنازلات الوظيفية للعاملين فى دول المهجر مما يكون أحياناً ماساً بالكرامة الوطنية، إهدار قيمة العمل نتيجة حصول المهاجر فى بلد المهجر على أجور مرتفعة مع مجهودات متواضعة بالمقارنة بالحال فى مصر، وإرتفاع معدلات التضخم، وتدهور الروابط الأسرية، وتراخى الشعور بالانتماء، وإرتفاع نسبة الإعالة، واضطرار الدولة لتعويض نسبة الفاقد فى رأسمالها البشرى بعمالة غير مدربة، واحتمال تعرض العمالة المصرية المهاجرة للأستغناء عنها فجأة.

نتائج الهجرة

للهجرة نتائج واضحة فى حجم وتوزيع وتركيب السكان فى منطقتى الأصل والوصول، ويمكن أن تحدد أهم هذه النتائج فى النواحى التالية:

١ - تغير حجم السكان:

يعد تغير حجم السكان من أبرز نتائج الهجرة، وتتحدد ملامح هذا التغير فى إتجاهين عكسيين أحدهما يتمثل فى زيادة السكان فى المناطق المستقبلة سواء كانت مدنا أو منطق زراعية حديثة العهد بالاستيطان ـ والآخر يتمثل فى تناقص عدد السكان فى المناطق المرسلة (مناطق الأصل) خاصة الريف الذى يتعرض باستمرار لتناقص سكانى depopulation بسبب الهجرة المغادرة.

الهجرة والنمو الحضرى:

يعد النمو الحضرى الذى شهده العالم فى المائة سنة الأخيرة من السمات البارزة فى نمط توزيع السكان، وقد أسهمت الهجرة إلى المراكز الحضارية بدور كبير فى هذا النمو وخاصة هجرة السكان الريفيين التى أدت إلى خلل شديد فى توازن توزيع السكان بين الحضر والريف.

وقد أدت هذه الهجرات إلى زيادة سكان الحضر، ويرتبط نمو المدن بمعدلات لهجرة إليها والتى تؤدى إلى تزايد سكان المدينة الأصلية أو التوابع التى تنشأ وتتضخم حولها.

وترتبط الهجرة الريفية ـ لحضرية بتوطن الصناعة الحديثة إرتباطاً وثيقاً ولذلك فقد أصبحت المدن مراكز توطن صناعى وجذب سكانى بمعدلات تفوق متوسط معدل النمو فى الدولة.

٢- تغير التركيب العمرى والنوعى

ومن أبرز الخصائص ظاهرة الانتقاء الهجرى Migration Selactivity، أى اختيار المهاجرين ونوعيتهم، وانعكاس ذلك على خصائص السكان فى مكانى الأصل والوصول.

وتنعكس نتائج الهجرة على التركيب العمرى النوعى فى المدن بوضوح حيث يكون الذكور فى أعمار العمل الصغرى هم الغالبية فى المراحل المبكرة للنمو الحضرى. وفى فترات الهجرة العظمى إلى الولايات المتحدة — كانت غالبية المهاجرين من الذكور.

وتؤدى هجرة الشباب نحو المدن إلى تزايد نسبة الأعمار الوسطى بها، بعكس مناطق إرسال المهاجرين.

٣- مشكلات الاختلاط السكانى فى المهجر:

لعل أبرز النتائج المترتبة على الهجرة إختلاط العناصر السكانية فى المهجر مع ما يترتب على ذلك الاختلاط من مشكلات عرقية ولغوية مختلفة سواء بالنسبة للسكان المهاجرين أو السكان الأصليين.

وتظهر المشكلات العرقية بوضوح فى المناطق التى هاجرت إليها العناصر الأوربية الإنجلو ساكسونية، كما هى الحال فى أمريكا الشمالية — أو جنوب أفريقيا، أما فى استراليا ونيوزيلند فلم تظهر هذه المشكلات لقلة عدد السكان الأصليين.

أما الاختلافات اللغوية، فقد تؤدى إلى مشكلات للسكان فى المهجر. وتظل اللغة لأصلية سائدة لدى المهاجرين، ولاتهمل إلا عند الجيل الثانى أو الثالث خاصة

بين لذكور الذين يدخلون سوق العمل ويضطرون إلى التحدث بلغة المهجر السائدة حتى يتمكنوا من كسب عيشهم.

وعلى النقيض مما سبق فإن الهجرات الاستعمارية التى أدت إلى انتشار المؤشرات الثقافية كان لها تأثير عكسى، فقد أدخلت اللغات الأوربية إلى مناطق واسعة من العالم وأصبحت هذه اللغات الدخيلة أهم وسائل الإتصال والتفاهم بسهولة بين لسكان.

٤- النتائج الاقتصادية للهجرة:

تتمثل النتائج الاقتصادية للهجرة فى عدة وجوه أبرزها إنتقال رؤوس الأموال والمساعدات المالية المباشرة وغير المباشرة، وذلك لأن المهاجرين يدخلون أموالاً إلى المهجر عند إنتقالهم إليه. وبالإضافة إلى إنتقال رؤوس الأموال من المهجر إلى الوطن الأصلى للمهاجرين فإن الهجرة تكلف مناطق الاستقبال وتزيد من أعبائها الاقتصادية، فبالإضافة إلى ما تتحمله الدولة المستقبلة من أجور الانتقال، فإن هناك أعباء أخرى تتمثل فى تجهيز المساكن والأراضى والخدمات المتعددة للمهاجرين الجدد.

ومن أبرز النتائج السيئة التى تترتب على الهجرة أن هناك قطاعاً كبيراً من سكان المناطق المتخلفة يهاجرون بدافع الفقر الشديد فى بيئاتهم ويؤدى ذلك إلى نتاج وخيمة حيث يكونون عبئاً ثقيلاً على المنطقة المستقبلة.

التغيرات المصاحبة لهجرة الريفيين المصريين إلى الخارج

أوضحت نتائج بعض الدراسات التى أجريت عن هجرة الريفيين المصريين للعمل بالخارج إلى أن هجرتهم قد ترتب عليها أو صاحبها بعض التغيرات الهامة. فقد أشارت نتائج إحدى الدراسات عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للهجرة المؤقتة من إحدى القرى المصرية إلى حدوث تحول واضح فى دور المرأة الريفية التى هاجر زوجها، حيث تحولت من زوجة تابعة تماماً لزوجها إلى إمرأة تستطيع الاعتماد على نفسها فى تسيير أمور منزلها وأولادها أثناء غياب الزوج. كما أوضحت نتائج الدراسة أيضاً أن بعض مدخرات المهاجرين قد وجهت إلى عملية التوسع فى مصانع الطوب التى جذبت أعداداً كبيرة من العمالة الزراعية، وأوضح بحث آخر عن بعض المصاحبات الاجتماعية لهجرة الريفيين للدول العربية النفطية أنه قد أرتبط بهجرة المشتغليين بالزراعة تحول أعداد من العمال الزراعيين إلى مهن أخرى، خاصة فى مجال البناء، وان هجرة القرويين للعمل بالدول النفطية لم تقتصر على عمال الزراعة الأجراء فقط، بل شملت صغار الحائزين نتيجة للتضخم وإرتفاع أسعار مستلزمات الإنتاج وانخفاض العائد من الزراعة. كذلك فإنه قد صاحب الهجرة تغير فى القيم الاجتماعية المتعلقة بالنشاط الاقتصادى لصالح مهن أخرى غير الزراعية كالحرف، كما زادت حدة المضاربة على الأرض الزراعية، وحدث أيضاً تغير فى بعض الأدوار الاجتماعية التقليدية للمرأة القروية، خاصة أدوارها على مستوى المجتمع المحلى، وصاحب هجرة الآباء للعمل بالدول العربية خلل فى بعض وظائف الأسرة القروية، خاصة وظيفة التنشئة الاجتماعية.

وقد أوضحت نتائج دراسة اجراها أبو منـدور وآخرون أن أوجه التصرف فى المدخرات التى كونها المهاجرون للخارج قد تمثلت فى شراء أجهزة منزلية، تسديد الديون، شراء أرض للبناء وبناء منزل وأخيراً شراء ماشية وتوصلت دراسة اخرى إلى نتائج مشابهة حيث أوضحت أن أهم مجالات الاستثمار للتحويلات النقدية

هى على الترتيب بناء منزل، شراء أرض زراعية، شراء أرض بناء، زواج المهاجر أو تزويجه لبعض أبنائه، شراء سيارة أو جرار زراعى، فتح محل بقالة وعمل بالتجارة، وانشاء مزرعة دواجن أو إنتاج حيوانى (هدهود، ١٩٨٤).

وقد بينت إحدى الدراسات عدة آثار ترتبت على هجرة القرويين للعمل بالخارج من بينها انخفاض نسبة السكان فى فئات العمر الوسطى، التحسن الملحوظ فى الحالة التعليمية للسكان، تأجيل الزواج، زيادة التحول إلى نمط الأسرة النووية، رفع مستوى معيشة الأسرة، توسيع دور المرأة فى الحياة الاقتصادية للأسرة (أبو المكارم، ١٩٨٧).

وتوصلت دراسة الأشمونى (١٩٩٣) إلى عدة نتائج توضح حدوث تغيرات بنائية وظيفية فى الأسرة الريفية كنتيجة لهجرة وعودة رب الأسرة، من بين هذه التغيرات: تغير تركيب الأسرة من ممتدة أو مركبة إلى بسيطة، إرتفاع مستوى المعيشة، زيادة حجم الحيازة الزراعية، انخفاض درجة الأكتفاء الذاتى للأسرة، زيادة درجة التماسك الأسرى، تغير فى الأدوار الوظيفية لأفراد الأسرة، وتقلص سلطة كبار العائلة فى إتخاذ القرارات السرية.

مما سبق يتبين أن هجرة بعض السكان الريفيين للعمل فى الدول العربية قد ترتب عليها بعض الآثار الاقتصادية والاجتماعية المتباينة، وعموماً فإن ظاهرة هجرة المزارعين قد غيرت بعض الأفكار الشائعة عن سلبية الفلاح المصرى، وعدم رغبته فى المخاطرة والتصاقه الشديد بأرضه.



الباب الخامس

دور المنظمات الأهلية فى حماية البيئة

- الفصـل الأول: مفهوم المنظمات الأهلية (غير الحكومية)
- الفصل الثانى: أهم المعوقات التى تواجه مؤسسات العمل الأهلى
- الفصل الثالث: العلاقة بين المنظمات غير الحكومية والحكومة

الفصل الأول

مفهوم المنظمات الأهلية (غير الحكومية)

١- تعاريف اقتصادية:

وهى مجموعة التعاريف التى تركـز علـى الجوانـب الاقتصاديـة للمنظمـات غير الحكومية، سواء الجوانب الخاصة بعدم توجه هذه المنظمات للربح أو الجوانـب الخاصة بذاتية التمويل، فنجد أن الأمم المتحدة تعرف المنظمات غير الحكومية علـى أنها تلك المنظمـات التـى تحصـل علـى نصـف دخلهـا أو أكـثر مـن مصـادر خاصـة (تبرعات ومنح...الخ) أى أن هذا التعريف يستبعد من مجال تعريفه المنظمـات التـى تتلقى أكثر من نصف دخلها من دعم الحكومة، أو من بيـع سلـع وخدمـات، وهـو مـا يخرج نصف المنظمات غير الحكومية العاملة فـى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة مـن التصنيف (أمانى قنديل،١٩٩٥ ب:١٦)

ويشير بيريلاند (Brieland, 1975:40) إلـى أن المنظمـات غـير الحكوميـة هى المنظمات التى لا تهدف للربح، ويتفق هـذا التعريـف مـع تعريـف شبكة النسـاء الافريقيـات للتنميــة والاتصــالات (١٩٩٥: ١٩٩) حيـث عرفـت المنظمــات غـير الحكومية على أنها منظمات ينشأها الأفراد على أساس تطوعـى دون أن يقصـد مـن ورائها تحقيق الربح المادى، كما يرى غيث (١٩٧٩) أن المنظمـات غير الحكوميـة هى جماعة متخصصة ومنظمة تنظيماً رسـمياً تقـوم عضويتهـا علـى الاختيـار الحـر للأفراد، من أجل تحقيق هدف معين غير الحصول على الربح المادى وهذا التعريف على الرغم من أنه يضع بعض العناصر الاجتماعية لهذه المنظمات مثل إنها منظمـة رسمية متخصصة تقوم على التطوع، إلا أنه يركز أساساً على عدم توجـه المنظمـة للربح.

٢- تعاريف اجتماعية:

وتشمل هذه المجموعة، جميع التعاريف التى تركز على الجوانب والشروط الإجتماعية للمنظمات غير الحكومية، سواء من حيث اعتمادها على التطوع أو توجهها نحو أهداف اجتماعية، أو ديمقراطية الإدارة داخلها، فنجد شودهرى، (Chowdhry, 1971: 36) يعرف المنظمة غير الحكومية على انها منظمة يقوم عليها أعضاء من داخلها دون رقابة خارجية، بينما يرى فرنانديز (١٩٩٥: ٤٢١) أن المنظمات غير الحكومية جماعات صغيرة أو كبيرة من الناس يتجمعون معاً لتحقيق هدف مشترك وهم يفعلون ذلك طوعاً، وليس استجابة لأمر من سلطة ما، ولا كالتزام تقليدى وليس بهدف الربح.

ويشير كنكل (Kenkel,1980:169) إلى أن المنظمة غير الحكومية هى جماعة تكونت عمداً وتطوعياً لتحقيق مجموعة من الأهداف، كما يرى لايت وكيلر (Light and Kel-ler, 195:178) أن المنظمة غير الحكومية هى منظمة رسمية يتحد من خلالها مجموعة من الأفراد نتيجة لوجود إهتمامات مشتركة لديهم سواء فى الهداف أو المعايير، ويشير سيلس Sills إلى أن المنظمة غير الحكومية هى مجموعة من الأشخاص تتشكل بغرض تحقيق مصالح مشتركة لأعضائها، والعضوية فيها تطوعية، وهى مستقلة عن الدولة (ناجى،١٩٨٥) أما محرم (١٩٩٠: ١٣١) فيرى أن المنظمات غير الحكومية هى تجمعات شعبية منظمة فى إطار رسمى معترف به قانونياً، ويؤسسها أبناء المجتمع المحلى عن إقتناع بحاجتهم إليها كى تقوم بأدوار ووظائف معينة تشبع وتسد حاجات تتطلبها مناشط حياتهم.

ويرى السيد (١٩٨١: ٢٥٦) أن المنظمة غير الحكومية هى جماعة من الأفراد، على درجة عالية من التخصص والتنظيم، يرتبط فيها الأعضاء، أو يتوحدون بإحدى المصالح أو الإهتمامات التى لا يمكن أن تتحقق من خلال السلوك الفردى أو المشاركة الإجتماعية فى الأشكال الأخرى للتفاعل الإجتماعى، ويشير

إيسمان وأبهوف (Esman and Uphoff, 1984:18) إلى أن المنظمة غير الحكومية هى عبارة عن جماعة منظمة وظيفتها لا تستطيع الحكومة أدائها، ويتوقف العمل فيها على العمل التطوعى واهتمامات وقيم وأفراد المجتمع، وتتخذ فيها القرارات بإسلوب ديموقراطى لصالح أفراد الجماعة.

٣- تعاريف قانونية:

وهى مجموعة من التعاريف التى تضعها القوانين فى كل دولة وفقاً لظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فنجد أن القانون الفرنسى يعرف المنظمات غير الحكومية على أنها بناءات اجتماعية بالمجتمعات المحلية، والتى تكون محددة وذات أهداف واضحة ولا تهدف إلى الربح وينتمى إليها الأفراد عمدياً وطوعياً، وهم يمتلكون حرية الإستقالة من عضويتها (Rose 1954: 73) بينما يعرفها القانون المصرى على أنها كل جماعة ذات تنظيم مستمر، تتألف من أشخاص طبيعيين أو قانونيين، لغرض غير الحصول على ربح مادى (القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤).

مما سبق يتضح وجود مسميات وتعريفات كثيرة لما يمكن أن يطلق عليه "المنظمات غير الحكومية، مما يستوجب وجود تعريف يجمع الحد الأدنى من السمات الأساسية لهذا النوع من المنظمات، وقد ظهر نشاط بحثى ضخم فى السنوات الأخيرة فى محاولة لوضع أسس اكثر عالمية تعكس النظم الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من جانب، وتستطيع تطوير هذه المنظمات بشكل يجعلها أكثر تأثيراً فى مسار المجتمع من جانب آخر، ومن أهم الدراسات البحثية فى هذا المجال ما قام به "كولن بول وليث وان" لوضع الأسس والسمات الرئيسية للمنظمات غير الحكومية والتى نشرت فى تقرير يحمل عنوان "المنظمات غير الحكومية: موجهات السياسة الجديدة والممارسة الفعالة" عن مؤسسة الكومنولث

عام ١٩٩٦ (ياسين، ١٩٩٧: ٢٠-٢١) والذى حدد أربع سمات رئيسية للمنظمات غير الحكومية وهى:

١ – التطوعية:

وهى تعنى أولاً أن المنظمة تنشأ طوعياً، بمعنى أنه ليس هناك فى النظام القانونى أو الإطار اللائحى فى البلد المحدد ما يدعو إلى تشكيلها، أو ما يمنع تشكيلها، وهناك ثانياً عنصر التطوعية فى الاشتراك فى المنظمة سواء فى أعداد صغيرة من الناس يشكلون مجلس الإدارة، أو أعداد كبيرة يمثلون الأعضاء، أو مستفيدين ويسهمون أيضاً بإعطاء جزء من وقتهم للمنظمة بطريقة تطوعية.

٢ – الاستقلال:

المنظمات غير الحكومية والتى تنشأ وفق النظام القانونى فى البلاد، ينبغى ألا يهيمن على مقدرتها سوى هؤلاء الذين شكلوها، أو بواسطة مجالس إدارة فوضها الأعضاء فى إدارتها، أو يستلزم القانون تفويضهم بالإدارة.

٣ – عدم استهداف الربح:

المنظمات التطوعية لا تنشأ لتحقيق أرباح شخصية، أو تحقيق كسب ومع ذلك:

أ- فهذه المنظمات قد تستخدم موظفين، وتدفع لهم أجوراً، غير أنه لا يجوز لأعضاء مجلس الإدارة أن يتقاضوا أجورا على أعمالهم ما عدا إستردادهم ما قد يدفعونه فى سبيل أداء عملهم.

ب- المنظمات التطوعية قد تنغمس فى أنشطة تهدف إلى تحقيق إيرادات غير انه مع ذلك ليس من حقها أن توزع أرباحاً على أعضائها، وعليها أن تنفق ما قد تحصل عليه من ايرادات فقط على أنشطتها.

٤- عدم القيام بالخدمة الشخصية على إداراتها:

هدف المنظمات التطوعية هو تحسين ظروف غير القادرين ممن لا يستطيعون إستغلال إمكانياتهم أو يكتسبوا كامل حقوقهم فى المجتمع، وذلك من خلال العمل المباشر أو غير المباشر. ولا يجوز لها أن تقوم بأنشطة تضر بالصالح العام لأعضاء المجتمع ككل.

لا تزال المؤسسات التطوعية فى العالم العربى على وجه العموم وفى مصر على وجه الخصوص تعانى من مشكلات متعددة، من أهم هذه المشكلات تلك التى تواجهها فى التأسيس نتيجة عقبات قانونية وإدارية وتدخلات من أجهزة الدولة فى شئونها والتضييق عليها من جانب الأجهزة الرقابية، كما تعانى من مشكلات التمويل التى تساعدها على الحصول على مقرات مناسبة يمكن أن تمارس منها أنشطتها، هذا بالرغم من ان البلاد العربية عرفت تكوين المؤسسات التطوعية منذ بدايات القرن التاسع عشر، حيث عرفتها مصر عام ١٨٢١ وتونس ١٨٦٧ والعراق ١٨٧٣ ولبنان ١٨٧٨ والأردن ١٩١٢ وفلسطين ١٩٢٠ والبحرين ١٩١٩ والكويت ١٩٢٣ وكانت ولا تزال الكثير من هذه المؤسسات تنشأ نتيجة لدوافع دينية، فالجمعيات الإسلامية فى مصر تشكل حوالى ٣٤٪ من إجمالى الجمعيات عام ١٩٩٠ وتصل هذه النسبة فى بعض المحافظات إلى ٥١٪، كما تشكل الجمعيات المسيحية فى مصر حوالى ٩٪ من إجمالى الجمعيات الأهلية، لكن العقدين الأخيرين شهدا ظهور جيل جديد من الجمعيات تعنى بالدفاع عن الحقوق أكثر من عنايتها بتقديم المساعدات أو عمل الخير، ولعل من أبرز هذه الجمعيات تلك المنشغلة بالدفاع عن حقوق الإنسان والبيئة وعن حق النساء فى أن يحظين بحقوق وفرص متساوية مع الرجال بالإضافة لتلك التى تدافع عن حقوق الفقراء والضعفاء فى الحصول على نصيب عادل من عوائد التنمية، ومعظم هذا الجمعيات تروج لثقافة جديدة ذات مفاهيم إنسانية جديدة، ثقافة تحترم الحياة وتقف ضد العنف، ثقافة تقوم على التضامن الاجتماعى وعلى التسامح وعلى احترام الحقيقة وتدعو إلى حقوق متساوية للمواطنين مهما اختلفت

أديانهم أو جنسهم أو رأيهم السياسى، ثقافة تؤكد على مبادئ الديمقراطية والمشاركة وتأخذ بأسلوب التفكير العلمى المنظم فى التعامل مع ما يواجه المجتمع من مشكلات.

ولأهمية الأدوار التى تقوم بها المنظمات الأهلية التطوعية ولشدة حرص طائفة كبيرة من المفكرين فى أماكن مختلفة من العالم على نجاح هذا القطاع، فلقد سعت مؤتمرات ومنتديات كثيرة على صياغة ما يمكن تسميته بميثاق أخلاقى للعمل الأهلى التطوعى وكان "السيد ياسين" المفكر الاجتماعى المصرى المعروف من أبرز الكتاب العرب الذين انشغلوا بهذا الموضوع حيث قام بإعادة صياغة لمشروع "جونز هوبكنز" فى قواعد سلوك المنظمات التطوعية الذى جاء فيه:

١- أن الهيئات التطوعية غير الهادفة للربح تكتسب أهمية بالغة على اعتبارها تشغل مجالاً هاماً من مجالات المشاركات الفعالة للمواطنين فى الحياة المدنية والاجتماعية، ومن ثم فهى تسهم فى تدعيم الديمقراطية.

٢- كى تقوم الهيئات الأهلية التطوعية بتحقيق كل إمكانياتها وأهدافها، فلابد وأن تتمتع بالاستقلال عن الدولة وأن تدير أمورها بنفسها.

٣- إن التطوع بالجهد والوقت والخبرة يظل المصدر الرئيسى لحيوية هذا القطاع.

٤- يجب تجنب تأثير الجهات المانحة على عمل وسياسات الهيئات الأهلية التطوعية.

٥- يجب أن يقوم القطاع الحكومى والقطاع الخاص بتيسير عمل القطاع الأهلى التطوعى كما يجب أن يتجنبا وضع العراقيل والعقبات فى طريقه ويتجنبا النظر إليه على انه قطاع منافس لهما.

٦- يجب إدارة العمل فى الهيئات التطوعية بحكمة وفاعلية وبأسلوب علمى.

٧- يجب أن تتمتع الهيئات الأهلية التطوعية التى تعمل فى مجال الخدمة العامة بمعاملة ضريبية خاصة.

٨- على الحكومة أن تشجع إسهام المواطنين والهيئات فى انشطة الخدمة العامة التى تقوم بها الهيئات الأهلية التطوعية سواء كان ذلك الإسهام نقدياً أو عينياً.

٩- يجب ألا تنتهك الحكومة استقلال القطاع الأهلى التطوعى.

١٠- إذا أدينت الهيئات الأهلية التطوعية نتيجة سوء التصرف أو سوء الإدارة فلابد من مثولها أمام المحكمة المختصة.

١١- يجب أن تخدم الهيئات الأهلية التطوعية ـ بصفة أساسية ـ المصالح العامة للمواطنين لا المصالح الفردية الضيقة للمنضمين إليها.

١٢- يجب على الهيئات الأهلية التطوعية أن تقوم بصفة دورية بالإعلان عن أنشطتها وميزانياتها، وأن يرتبط مستوى الإعلان بمستوى المساندة العامة.

١٣- يجب أن تدار الهيئات الأهلية التطوعية بأسلوب ديمقراطي.

١٤- يجب ألا تكون النفقات الإدارية للهيئات الأهلية التطوعية كبيرة أو مبالغاً فيها.

١٥- فيما عدا الأعمال غير الادارية أو النفقات الإدارية يجب ألا يحصل القائمون على إدارة الهيئات الأهلية التطوعية على أجور مقابل إدارتهم لشئون جمعيتهم والتخطيط لأنشطتها.

١٦- يمكن للهيئات الأهلية التطوعية أن تعتمد على موظفين بأجر للقيام بجانب من أعمالها، لكن يجب أن يظل ذلك فى حدود لا ترهق ميزانياتها.

١٧- يجب أن يبنى العمل التطوعى على الاحترام المتبادل وعلى الثقة المتبادلة وأن يخلو من الصراع والتنافس الهدام والأغراض الشخصية.

الفصل الثانى

أهم المعوقات التى تواجه مؤسسات العمل الأهلى:

- عدم استقرار الموارد المالية.
- عدم استقرار الموارد البشرية.
- غياب الأنظمة وأساليب العمل الموثقة.
- غياب قيادات الصف الثانى.
- عدم وجود مرونة كافية فى التنظيم.
- الصراع والتنافس غير الصحى بين أعضاء مجلس الإدارة.
- صعوبة الانتقال من مرحلة الإغاثة وتقديم الخدمات إلى مرحلة التنمية والمشاركة فى صنع وتقييم السياسات.
- غياب المنهج العلمى والموضوعية والتجرد من المصالح الشخصية عن أسلوب صنع القرار وتنفيذه وتقييمه.

مقومات الإدارة الفعالة فى منظمات العمل الأهلى:

- رؤية واضحة المعالم وخطة محددة الأهداف.
- برامج وأنشطة تستجيب لحاجات الناس.
- عنصر بشرى كفؤ.
- قيادة ذاتية تعتمد مبدأ التمكين.
- نظام موضوعى لمعالجة الخلافات والصراعات الداخلية.
- تجهيزات ووسائل عمل ملائمة.
- تنظيم واضح ومرن.
- موارد مالية مضمونة فى حدها الأدنى.
- تفاعل صحى مع المجتمع المحيط.

- نظام فعال لإدارة الجودة.
- قدرة على منح المؤسسة الأهلية وقتاً كافياً.
- استقلال عن مؤسسات المجتمع الأخرى.
- التواصل الجديد بين أعضاء المنظمة.
- مشاركة الأعضاء فى صنع السياسات.
- مستوى عالى من التعاون والتماسك والتعاضد داخل المنظمة.
- ضمان وحدة المنظمة.
- وضع مصلحة المنظمة فوق المصالح الفردية والشخصية لأعضائها.
- عدم استغلال اسم المنظمة لتحقيق مصالح شخصية.

وظائف المنظمات غير الحكومية

أ- العمل على كفاءة استغلال موارد المجتمع ومواجهة مشكلاته وذلك عن طريق:

(١) تحديد احتياجات وموارد المجتمع المحلى.

(٢) إمداد الأهالى والحكومة بمعلومات عن الاحتياجات المحلية وأولوياتها والقدرات المحلية.

(٣) توفير الاتصال الجماهيرى والقيام بالتوعية والإرشاد.

(٤) توفير بعض الاحتياجات المحلية عن طريق الاتصالات التنظيمية مع المنظمات الحكومية وغير الحكومية الأخرى بالمجتمع.

(٥) القيام بأنشطة ومشروعات لاتقوم بها الحكومة أو استكمال المشروعات التى تعجز الحكومة عن استكمالها.

(٦) الاستفادة من الخبرات الفنية والاجتماعية والتكنولوجية والعلاقات الإنسية لأفراد المجتمع.

(٧) تدريب القيادات المحلية الشابه للإستفادة منها مستقبلاً.

(٨) تنظيم المجتمع المحلى فى حالات التغير لسريع، وخلق أدوار جديدة.

(٩) العمل على مواجهة المشكلات المتوطنة والمتغيرة للمجتمعات المحلية.

ب- العمل على تحقيق العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع عن طريق:

(١) تنفيذ برامج اجتماعية واقتصادية موجهة للفئات الفقيرة والمحتاجة سواء بطريقة فردية، أو بالتعاون مع منظمات أخرى حكومية أو غير حكومية.

(٢) القيام بالتوزيع العادل لموارد المنظمة بين أفراد المجتمع المحلى.

(٣) تدريب أفراد المجتمع على طرق وأساليب اجتماعية أو اقتصادية تساعدهم على مساعدة أنفسهم.

(٤) العمل على تنمية المورد البشرية لأفراد المجتمع (صحياً، تعليمياً، دينياً)

(٥) العمل على تغيير بعض السلوكيات ولعادات والقيم السلبية بين أفراد المجتمع.

جـ- الحث على المشاركة عن طريق:

(١) تجميع الجهود المحلية ورفع مستوى المشاركة.

(٢) تدريب أفراد المجتمع المحلى على الديمقراطية والحرية فى إبداء الرأى.

(٣) مساعدة أفراد المجتمع المحلى على أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم وتكون قراراتهم من داخلهم.



الفصل الثالث

العلاقة بين المنظمات غير الحكومية والحكومة:

تختلف العلاقة بين النشاط الحكومى ونشاط المنظمات غير الحكومية من مجتمع لآخر نتيجة لعدة عوامل من بينها مدى قدرة وكفاءة الجهاز الحكومى فى تلبية وإشباع احتياجات المجتمع، والأيديولوجية السياسية التى يقوم عليها المجتمع، وفلسفة الرعاية الاجتماعية وأولوياتها فى كل مجتمع. وهناك تفسيران نظريان يفسران كيفية تنسيق العلاقة بين المنظمات غير الحكومية والحكومة هما:

أ- نظرية امتداد السلم Extension Ladder Theory

يشير سدنى وب Sidney Webb إلى أنه وفقاً لهذه النظرية فإن الأجهزة الحكومية تضمن للمواطنين حد أدنى من الخدمات، ومنها مساعدات الضمان الاجتماعى والخدمات الصحية والتعليمية، وفى حالة عدم إمكان الهيئات الحكومية مقابلة كل الاحتياجات فإن المنظمات غير الحكومية تكمل مثل هذه الخدمات، بل تتوسع فيها أو تحسنها أو تنسق بينها **(سامية فهمى ١٩٨٥: ٢٢١)**.

ويتناسب هذا التصور مع المجتمعات التى تتميز بوفرة فى هذه الموارد الاقتصادية، بحيث يمكن للدولة أن تعمل فى كافة برامج الرعاية الاجتماعية التى يحتاج إليها المواطن فى المجتمع والتى من شأنها أن توفر له فرص حياة أفضل، ويأتى دور القطاع غير الحكومى من حيث ينتهى دور الدولة، ويتجه القطاع غير الحكومى إلى رفع مستوى الرعاية التى تكفلها الدولة، وأيضاً يصبح من مسئولياتها تنبيه الدولة إلى مجالات الرعاية الاجتماعية المستحدثة.

ب- نظرية الأعمدة المتوازية Paralled Bars Theory

يفترض كرك مان جراى Kirkman Gray - وفقاً لهذه النظريـة ـ أن تقـوم كل من الأجهزة الحكومية والمنظمات غير الحكوميـة معاً على تنفيذ الخدمات فـى كافة الميادين. ويناسب هذا التصور الدول محدودة الدخل أو النامية، حيث يتم اقتسام مجالات الرعاية بين الهيئات الحكومية ولمنظمات غير الحكوميـة، لتتصـدى الدولـة للعمل فى المجالات التى لها الأولوية، بينما تتولى المنظمـات غـير الحكوميـة العمـل فى المجالات التى تليها من حيث الأهمية ويسير كل قطاع جنباً إلى جنب مـع دور القطاع الآخر، وإذا توافرت للدولة موارد جديدة أو أضيف مجال جديد إليها باعتباره هام من حيث الأولوية، فعلى القطاع غير الحكومى أن يترك العمل فـى هـذا المجـال للقطـاع الحكومـى. ومـن هنـا تجـئ العلاقـة المتوازيـة، بحيث لا ألتقـاء بيـن النشـاط الحكومى وغير الحكومى فى مجال عمل واحد (سامية فهمى: ١٩٨٥ : ٢١٤).

وتتناسب نظرية الأعمدة المتوازيـة مـع ظـروف المجتمـع المصـرى، ولكننـا يمكن أن نجد بعض المجالات التى تعمل فيها المنظمات الحكوميـة وغـير الحكوميـة معاً فـى نفـس الوقـت، ولـذل فإنـه مـن الأفضـل أن نقـول بـأن بـأن نظـام الرعايـة الاجتماعية فى مصـر يغلـب عليـه الأخـذ بمعطيـات النظريـة الثانيـة (سـامية فهمـى، ١٩٨٥ : ٢١٤).

المنظمات غير الحكومية فى ظل القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤

(١) أهداف القانون:

توضح المراجعة الدقيقة للقانون وديباجته مجموعة من الأهداف التـى سـعى القانون إلى تحقيقها ومنها:

١- ضم وحصر كافة القوانين والمواد المتفرقة التى تـدور حـول الجمعيـات الأهليـة والمؤسسات الخاصة فـى القـانون المدنـى العـام فـى تشـريع واحـد شـامل، لإدارة وتنظيم كافة الجمعيات والهيئات غير الهادفـة لـلربح (فيمـا عـدا النقابـات العماليـة والمهنية والتعاونية التى ينطبق على كلاً منها قانون مستقل).

٢- فرض سيطرة الدولة على الجمعيات الأهلية والمؤسسات الخاصة، من خلال توسيع سلطة الرقابة عليها من جانب الجهة الإدارية المختصة (وزارة لشئون الاجتماعية)، لضمان سيرها فى طريق تحقيق أهدافها فى حدود الأغراض التى انشئت من أجلها.

٣- إلتزاما بمبدأ التخطيط الاشتراكى الذى يهدف لتحقيق العدالة وتكافؤ الفرص بين المواطنين، فإنه ينبغى أن تخضع الجهود المبذولة فى مجال العمل الاجتماعى لتخطيط سليم، بحيث تصبح جزءا من خطة التنمية الشاملة التى تشرف عليها وتوجهها الدولة.

٤- تطهير الجمعيات الأهلية والمؤسسات الخاصة من العناصر التى حرمت من ممارسة حقوقها السياسية. حيث يحرم القانون على أى شخص ممنوع من ممارسة حقوقه السياسية من الاشتراك فى تأسيس أو عضوية أى جمعية أهلية إلا بتصريح من وزارة الشئون الاجتماعية.

٥- فصل الروابط العمالية عن الجمعيات والروابط الاجتماعية، وحظر شهر الأولى طبقا لهذا القانون بإعتبارها هيئات نقابية أو منظمات عمالية.

٦- توثيق وتأكيد وسائط الربط بين الجمعيات والاتحادات الإقليمية والنوعية، وتمكين هذه الاتحادات من القيام بوظائفها التخطيطية والتنسيقية والتوجيهية فى جميع مجالات العمل الاجتماعى.

ولضمان سريان أحكام القانون تضمنت مادته الثانية نصا يلزم الجمعيات الأهلية والمؤسسات الخاصة بتعديل نظمها وإعادة شهرها طبقا لأحكامه خلال ستة أشهر من تاريخ العمل به، وإلا أعتبرت منحلة بحكم القانون.

(٢) من أهم مواد هذا القانون

(أ) شوط تأسيس الجمعيات الأهلية.

(ب) مجالات أنشطة الجمعيات الأهلية.

مجالات أنشطة الجمعيات الأهلية:

يصنف القانون الجمعيات إلى نوعين رئيسين هما جمعيات تنمية المجتمع، وجمعيات الرعاية، ثم يصنف النوع الثانى تبعاً لنوع الخدمة التى تقدمها الجمعية، وقد تضمن القرار الجمهورى رقم ٩٣٢ لسنة ١٩٦٦ قائمة تضم مجالات الرعاية الآتية:

١- رعاية الطفولة والأمومة. ٢- رعاية الأسرة.
٣- المساعدات الاجتماعية. ٤- رعاية الشيخوخة.
٥- رعاية الفئات الخاصة والمعوقين. ٦- الخدمات الثقافية والعلمية والدينية.

ثم صدر القرار الوزارى رقم ١٢ فى ٢/٢/ ١٩٦٨ بإضافة المجالات الآتية:

٧- الإدارة والتنظيم. ٨- رعاية المسجونين.
٩- تنظيم الأسرة. ١٠- الداقة بين الشعوب.
١١- النشاط الأدبى.

ثم صدر القرار الوزارى رقم ١٢٣ فى ٤/٩/ ١٩٨١ بإضافة المجال الثانى عشر من مجالات الرعاية وهو:

١٢- الدفاع الاجتماعى.

وقد أضيفت أخيراً بقرار وزارى المجالات الآتية:

١٣- حماية البيئة. ١٤- أصحاب المعاشات.
١٥- التنمية الاقتصادية. ١٦- تنمية الدخل وحماية المستهلك.

(جـ) الهيئات المسئولة بالجمعيات الأهلية.

(د) الأمور الإدارية والمالية للجمعيات الأهلية.

(هـ) علاقة الجمعيات بالإتحاد العام والاتحادات الإقليمية المتنوعة.

(ل) علاقة الجمعيات الأهلية بأجهزة الحكم المحلى.

(ز) حل الجمعيات الأهلية.

(و) بعض المزايا القانونية للجمعيات الأهلية.

بعض المزايا القانونية للجمعيات الأهلية:

تتمتع الجمعيات الأهلية المشهرة وفقاً لقانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤ بالمزايا الآتية:

١- تعفى من رسوم التسجيل فى عقود الملكية والرهن ولعقود الخاصة بالحقوق العينية الأخرى وكذلك من رسوم التصديق على التوقيعات.

٢- تعفى من رسوم الدمغة المفروضة حالياً أو مستقبلاً على جميع العقود والمحررات والأوراق والمطبوعات وغيرها.

٣- تعفى من الرسوم الجمركية المفروضة على ما تستورده من معدات وأدوات لازمة لنشاطها.

٤- تمنح تخفيض قدره ٢٥٪ من أجور نقل المعدات والآلات على لسكك الحديدية.

٥- تمنح تخفيضاً قدره ٥٠٪ من قيمة استهلاك المياه والكهرباء.

(ى) التعديلات التى دخلت على القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤:

تم إدخال ثلاثة تعديلات طفيفة على القانون، كان التعديل الأول فى عام ١٩٧٢ وينص على:

(أ) أعفاء الهيئات التطوعية والاتحادات الخاصة من رسوم تسجيل بعض الممتلكات ومن رسوم الجمارك (ماده ٢١).

(ب) لوزير الشئون الاجتماعية أو من ينيبه حق إنتداب بعض موظفى وزارة الشئون الاجتماعية للعمل فى الهيئات التطوعية الخاصة (ماده ٢١ ـ أ). كما جعل مدة الإدارة للهيئات التطوعية ٣ سنوات على أن يتغير ثلث الأعضاء كل سنة.

وكان التعديل الثانى فى عام ١٩٨٢، وقد أضاف بعض الإعفاءات لجمركية القليلة على المعونات أو الهيئات العينية مثل المعدات التى ترسل من المانحين بالخارج طالما أنها ضرورية لأنشطة الهيئة التطوعية الخاصة. والتعديل الثالث والأخير حدث فى عام ١٩٩٤ وينص على:

(أ) إلغاء تمثيل الاتحاد الإشتراكى العربى فى الإتحاد العام للهيئات التطوعية والإتحادات الخاصة.

(ب) إضافة مادة جديدة هى (٥٠ - أ) تحظر عضوية الهيئات التطوعية الخاصة على أعضاء المجالس الشعبية المحلية ومسئولى السلطة التنفيذية ذوى سلطات الأشراف أو الإدارة أو التفتيش أو الشئون المالية.



المراجـــع



المراجع العربية

- أبو عيانة، فتحى محمد أحمد، ١٩٨٥، جغرافيـة السكان. دار المعرفـة الجامعيـة، الإسكندرية.
- أحمد علـى إسماعيل، ١٩٩٥، البيئـة المصريـة، دار الثقافـة للنشـر والتوزيــع ــ القاهرة.
- أمانى قنديل، الجمعيات الأهلية وسياسات الإصلاح الاقتصادى والتكييف الهيكلـى فـى مصـر، مركز البحـوث والدراسـات السياسـية بالتعـاون مـع المركـز الثقـافى الفرنسى، باريس ١٩٩٤.
- أمانى قنديل، المجتمع المدنى فى العالم العربى ـ دراسة الجمعيات الأهلية، منظمـة سيفيكس، القاهرة ١٩٩٤.
- أمانى قنديـل، ساره بـن نفيسـه، الجمعيـات الأهليـة فـى مصـر، مركـز الدراسـات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٩٥.
- أمين، سـعد زغلـول، ١٩٨٥، مكونـات النمـو السكانى، المركـز القومـى للبحـوث الاجتماعية والجنائية ـ المسح الشامل للمجتمع المصـرى ٥٢ ــ ١٩٨٠: السكان، القاهرة.
- أو عيانة، فتحى محمد أحمد، ١٩٨٤، مشكلات السكان فـى الوطـن العربـى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- إبراهيم، على عيسى. ١٩٩٩ جغرافية مصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- الأشـمونى، أشــرف أحمـد، ١٩٩٣، أثـر الهجـرة علـى التغـيرات الاجتماعيـة والاقتصادية للأسرة الريفية، رسالة دكتوراه فـى المجتمـع لريفـى، كليـة الزراعـة بكفر الشيخ ـ جامعة طنطا.
- الجهاز المركزى للتعبئة والأحصاء، ١٩٧٦، التعداد العام للسكان والمنشآت.
- الجهاز المركزى للتعبئة والأحصاء، ١٩٨٦، التعداد العام للسكان والمنشآت.
- الجهاز المركزى للتعبئة والأحصاء، ١٩٩٦، التعداد العام للسكان والمنشآت.

- الجهاز المركزى للتعبئة والأحصاء، ١٩٩٩، الكتاب الأحصائى السنوى.
- السيد ياسين، نحو ميثاق شرف أخلاقى العمل الأهلى العربى، ورقة مقدمة إلى مؤتمر المنظمات الأهلية العربية، القاهرة ١٩٩٧.
- العزبى، محمد إبراهيم، ٢٠٠١، الخصائص الديموجرافية للسكان الريفيين، فى المجتمع الريفى، كلية الزراعة، جامعة الإسكندرية.
- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، ١٩٨٩، مستقبلنا المشترك، ترجمة محمد كامل عارف، مجلة عالم المعرفة.
- حليم، نادية، ١٨٩٥، الهجرة الداخلية، فى المسح الاجتماعى الشامل للمجتمع المصرى ١٩٥٢ ــ ١٩٨٠: السكان، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.
- حمدان، جمال، ١٩٨٠، ١٩٨٤، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، ٤ أجزاء، عالم الكتب، القاهرة.
- دار البصام، العمل الأهلى العربى المشترك، ورقة مقدمة إلى مؤتمر المنظمات الأهلية العربية، القاهرة ١٩٩٧.
- صليب، منى ١٩٨٨، دراسة موجزة عن أسباب الهجرة ومراحل تطورها وآثارها على المؤتمر الإقليمى: تنمية واستخدام وهجرة القوة البشرية.
- هلول، فتح الله ١٩٩٠، خواص الحياة الريفية، فى قراءات فى علم الاجتماع الريفى: الجزء الأول، قسم المجتمع الريفى، كلية الزراعة. جامعة الإسكندرية.

المحتويات





رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٧٤٩١

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-6015- 42- 5

الناشر

مكتبة بستان المعرفة

لطبع ونشر وتوزيع الكتب

كفر الدوار - الحدائق ☎: ٠٤٥/٢٢٤٢٢٨